مظاهر حضارية

من الثقافة العثمانية

إعداد
عبد السلام كمال أبوحسن

مكتبة حراء

بروج
BURUJ BOOKS

مكتبة
حراء

مظاهر حضارية

من الثقافة العثمانية

مظاهر حضارية

من الثقافة العثمانية

Copyright©2018 Buruj Books

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة، لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو نقله بأي شكل أو بأية وسيلة، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير الفوتوغرافي أو التسجيل أو وسائل تخزين المعلومات وأنظمة الاستعادة الأخرى بدون إذن كتابي من الناشر.

تصميم وغلاف

أحمد علي شحاتة

رقم الإيداع

2017/20148

الترقيم الدولي

ISBN: 978-977-6631-00-7

رقم النشر

111

شركة بروج للأدوات المكتبية والمدرسية

القاهرة 2018م

Tel.: 002 02 25379391

Mobile: 002 01023201002

E-mail: info@burujbooks.com

www.burujbooks.com

مظاهر حضارية
من الثقافة العثمانية

إعداد

عبد السلام كمال أبوحسن

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس

المقدمة ٩

سلاطين بني عثمان، قلوبٌ احترقت في حب الرسول ﷺ ١١
ضياء دميرال

رجل من صناع التاريخ، أورخان غازي ٢٠
الصفصافي أحمد القطوري

أب وابن ٢٥
نجلاء محرم

السلطان محمد الفاتح، فاتح الإنسان والعمران ٢٩
ممتاز أيدين

السلطان عبد الحميد الثاني والتصوير الفوتوغرافي ٣٩
محمد بهادير دوردنجي

شجاعة السلطان عبد الحميد الثاني ٤٥
أورخان محمد علي

سيادة القانون في الدولة العثمانية ٥٧
حسين أوزدمير

بصمات عثمانية على الأقصى الشريف ٦٨
أحمد مروات

ثقافة البيت العثماني ٧٦
ممتاز أيدين

دروس الحضرة السلطانية ٨٢
متين رئيس

الثقافة التسامحية لدى العثمانيين ٩٠
أ.د. سعاد يلدريم

ذكريات رمضانية من إسطنبول العثمانية ١٠٤
محمد بهادير دوردنجي
مشاهد كونية في مساجد عثمانية ١١١
أ. د. يحي وزيري
لمسات الجمال في شواهد القبور العثمانية ١١٨
طلحة أوغرلوإيل
المنمنمات العثمانية.. تراث إسلامي مشترك ١٢٨
الصفصافي أحمد القطوري
العثمانيون والأماكن المقدسة في القدس الشريف ١٣٨
الصفصافي أحمد القطوري
سكة حديد الحجاز ١٤٧
صالح كولن
قوافل الحج في العصر العثماني ١٦١
الصفصافي أحمد القطوري
حقيقة حريم السلطان ١٧٧
مراد دومان
ذكريات رحالة فرنسي عن إسطنبول العثمانية ١٨٥
طلحة أوغرلوإيل
مأساة الأندلس وموقف العثمانيين ١٩٥
أورخان محمد علي
الدور المركزي للأ تراك في الأمة الإسلامية ٢٠٧
عماد الدين خليل
الوقف العثماني.. حضارة واقتصاد ٢١٦
نعمان ترك أوغلو
مراكز النشاط الاقتصادي في الدولة العثمانية ٢٢٣
ناظم إينتبه
عملاق الأدب العثماني: "فضولي" ٢٣٣
عوني عمر لطفي أوغلو
شهود الحال في القضاء العثماني ٢٤٥
رمضان بالجي

منهاج الفاتحين ٢٥٣
متين رئيس
مراسيم ليلة القدر ٢٦٠
محمد بهادير دوردنجي
المآذن العثمانية.. رشاقة وبساطة وسموق ٢٦٣
محمد حسن فخري
تأملات معمارية في المسجد الكبير بـ"بورصة" ٢٦٦
د. يحيى وزيري
تناغم المعنى والمبنى في الهندسة المعمارية إطلالة على الجامع الأخضر ٢٧٣
محمد كول كونول

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

أثبتت الثقافة العثمانية نفسها بنجاح، وضربت بجذورها على مسرح الزمنِ مدةً ليست بالقليلة، ونقشت لنفسها مكانةً خاصّة على صفحة التاريخ بين الأمم، وحافظت على شموخها بين الثقافات الأخرى محافظةً صعَّبَت على غيرها منافستها.

لم يكن كل هذا النجاح الباهر ليتحقق هكذا صدفة عابرة، بل تمتّعت الثقافة العثمانية بمميزات خاصة وأسسٍ ومبادئَ راقية، ومنهجيّة كفلت لها تجاوز العقبات مهما كانت، لا بل وتحويلها إلى نجاحات في بعض الأحيان، فكانت جديرةً بالريادة مؤهّلةً للقيادة.

لقد انطلقت من المفاهيم الإسلامية الصرفة، واهتدت بالكتاب والسنة، وضبطت ضربات قلوب أربابها على أوتار حب النبي المصطفى ﷺ، فكانت تتحرّق له عشقًا، وتتمايلُ به فرحًا.

ورغبةً منا في تعريف الناس بهذه الثقافةِ فقد قمنا بإصدار هذا الكتاب الذي بين أيديكم كمنارةٍ للإحاطة بمزايا وملامح الثقافة العثمانية.

وقد جاء تصنيفُه مختلفًا وفريدًا، وذلك لأنه ليس من تأليفِ مؤلِّفٍ واحد، ولا بقلمِ كاتب واحد، وإنما هو عبارةٌ عن باقة من المقالات المتنوّعة التي نُشرت في مجلة حراء، ولكن هذه المقالات على اختلاف كتّابها يربطها قاسمٌ مشتركٌ، ألا وهو موضوعها، إذ إنها جميعًا تدندن حول الحضارة العثمانية.

دار "بروج"

القاهرة -٢٠١٨

سلاطين بني عثمان،
قلوبٌ احترقت في حب الرسول ﷺ(*)

لقد حملت الدولة العثمانية منذ أن بزغ فجرها في القرن الثالث عشر، هموم الأمة الإسلامية بكل فخر واعتزاز، وسَعَت بكل ما أوتيت من قوة إلى رعاية هذه الأمة وتأمين أمنها وراحتها وسلامتها في كل نواحي الحياة. كما حرصت كل الحرص على نصرة الإسلام ونشر مبادئه وقيمه في أرجاء المعمورة، ثم رفعِ رايته خفاقة على جميع الأقاليم والبلدان...

وما إن نتجول بين صفحات التاريخ ونتفحص المعلومات عن حياة سلاطين آل عثمان، حتى نجد معظمهم دائمًا في مقدمة الصفوف يمتطون أحصنتهم ويقاتلون في ميادين الحرب ببسالة منقطعة النظير. وعندما لم يقدروا على المشاركة في حرب ما؛ عدّوا أنفسهم عديمي الحظ وفاضت عيونهم بالدموع وامتلأت قلوبهم بالحزن والأسى..

إنهم نذروا أنفسهم للإسلام، واعتبروا الدفاع عن الإسلام وقيمه مسؤولية عظمى لابد أن تؤدى، فساروا قدمًا أمام الأمة بصدق وإخلاص مقتدين بنهج رسولهم ﷺ ومتبعين سنته أفضل اتباع.

(*) **ضياء دميرال** [كاتب وباحث تركي]. الترجمة عن التركية: **نور الدين صواش**.

ومما يجدر ذكره أن السلاطين العثمانيين تربوا وترعرعوا منذ نعومة أظفارهم على حب الرسول ﷺ والتأسي بسنته الطاهرة.. نقشوا اسمه ﷺ في قلوبهم، وأمضوا معظم حياتهم على ظهور الخيول من أجل أن تبسط الرسالة المحمدية أجنحتها وتحلق في سماء البشرية، ولكي يشع نوره ﷺ في العالم كافة.

هذا الحب الذي جرى في أرواحهم وتغلغل في أعماقهم، حوّلهم إلى أناس يحترمون كل شيء يخص الرسول ﷺ. ونتيجة لهذا الحب نشأ عندهم مظهر من مظاهر الجهاد الروحي، فسعوا جاهدين إلى فتح القلوب أولًا ثم إلى فتح القلاع والأراضي، بغية أن ينثروا -كما أمرهم دينهم الحنيف- بذور القيم والمبادئ التي تنبثق منها الحضارة الإنسانية وينبت منها منهج الحياة والأخلاق المبنية على الحب والتسامح والكرامة.

احتل الرسول ﷺ في أفئدة هؤلاء الناس الطيبين مكانا رفيعًا خاصًا، فأصبح اسمه ﷺ يتردد على ألسنتهم في كل لحظة؛ في حياتهم اليومية، وأشعارهم المدحية، وأذكارهم الشخصية.. كما أن هذه المدائح الشريفة التي نقشوها على صفحات التاريخ بأقلامهم النيرة لا زالت لسان عشاق الرسول ﷺ وترجمان مشاعرهم حتى يومنا هذا.. ونورد فيما يلي بعض الأمثلة الواقعية عن أولئك الأفذاذ وعن حياتهم المثالية التي عاشوها..

ظلال حزن، وسكون كئيب قد خيم على جنبات الغرفة.. رجال القصر ملتفون حول سرير السلطان وهو يرقد على فراش الموت.. الكل من حوله يترقب حركة شفتيه.. فتح السلطان مراد الثاني عينيه ليلمح وزيره، قال بصوت خافت:

- اقرأ يا إسحاق، اقرأ وصيتنا!

فبدأ إسحاق باشا يقرأ الوصية بصوت عال:

"بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. توكلت على الله رب العرش العظيم. كل نفس ذائقة الموت. فلا تغرنّكم الحياة الدنيا ولا يغرنّكم بالله الغَرور.. أما بعد؛ أوصيكم بأن توزعوا ثلث أملاكي في ولاية "صاروهان"؛ على أن يكون ٣٥٠٠ قطعة ذهبية منها إلى فقراء مكة المكرمة، و٣٥٠٠ قطعة ذهبية إلى فقراء المدينة المنورة. ووزعوا ٥٠٠ قطعة أخرى على الذين يكثرون من تلاوة القرآن الكريم من أهالي مكة المكرمة في حرم بيت الله ثم يرددون كلمة التوحيد "لا إله إلا الله" ٧٠ ألف مرة ويهدون ثوابها للموصي، وأوصيكم أن توزعوا ٢٥٠٠ قطعة ذهبية من أملاكي هذه، على الذين يكثرون من تلاوة القرآن الكريم ثم يرددون كلمة التوحيد "لا إله إلا الله" ٧٠ ألف مرة في قبة الصخرة بساحة المسجد الأقصى".

وإذا ما أمعنا النظر في هذه الوصية نرى بوضوح حب السلطان مراد الثاني لله ﷻ ولرسوله ﷺ. لأن أراضي الحجاز (مكة المكرمة- المدينة المنورة) والقدس (المسجد الأقصى) في تلك الآونة لم تكن في حوزة الدولة العثمانية بعدُ. وما هذا إلا تعبير عن الحب الذي سكن بين ثناياه وأترع قلبه. فهو لحرمة الأقدام المباركة التي لمست تربة تلك الأراضي، ولحرمة أهالي تلك المنطقة، أبدى هذا السخاء وجاء بهذا العطاء.

العام ١٤٥٣... القائد فتىً في ريعان شبابه يقود جيشه في ملحمة فتح إسطنبول ونشر الإسلام.. وهو صاحب بشارة الرسول ﷺ.. نصب خباءه أمام أسوار إسطنبول ليفتحها بإذن ربه في فجر يوم الجمعة.. يخرج القائد العظيم في إحدى الليالي إلى شيخه "أقْ شمس الدين" ويبدي رغبته في العثور على قبر الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري ﷺ الذي قام باستضافة الرسول ﷺ في بيته عقب الهجرة النبوية... وكان أبو أيوب الأنصاري قد خرج مع جيش المسلمين لفتح إسطنبول في عهد الأمويين واستشهد تحت أسوارها. فيخرج "أقْ شمس الدين" برفقة السلطان من الخيمة. ويصلا إلى ساحل القرن الذهبي، وهناك يشير الشيخ إلى مكان قريب من الأسوار ويقول: "ها هنا القبر يا جلالة السلطان". فيأمر السلطان محمد الفاتح بإنشاء جامع وضريح في هذا المكان على الفور. وبعد الفتح يبنى الجامع والضريح..

نصل من هذه القصة إلى نتيجة أن السلاطين العثمانيين أبدوا حبا جمًا ليس للرسول ﷺ فحسب، بل لأصحابه الذين حملوا رائحته العطرة ورائحة بلدته الطاهرة أيضًا.

ولقد ورّث السلطان محمد الفاتح هذه المحبة لابنه السلطان بيازيد الثاني أيضًا... يقوم السلطان بيازيد خان بزيارة صديقه الذي يحبه في الله "بابا يوسف" لتوديعه قبل ذهابه إلى الحج، ويسلّمه كمية من الذهب ويقول: "هذا ما رزقني الله به من عرق جبيني. ولقد ادخرته من أجل صيانة قناديل الروضة المطهرة. عندما تقف

في حضرة الرسول ﷺ أريد منك أن تقول: يا رسول الله، خادمك الفقير "بيازيد" يقرئك السلام ويقول لك: إنه قد أرسل هذه القطع من الذهب لشراء زيت قناديل الروضة، فاقبلها منه..".

وفي عهد السلطان سليم الأول نرى أن هذا الحب النبوي يكتسب بُعدًا آخر؛ حيث تنضم أراضي الحجاز في عهده إلى الدولة العثمانية ويتوحد العالم الإسلامي تحت راية واحدة.

وسرعان ما يذيع صيت السلطان سليم في العالم الإسلامي، ويبدأ الخطباء في المساجد يقرأون الخطب باسمه مستخدمين لقب "حاكم الحرمين". إلا أن السلطان سليم لم يكن راضيًا عن هذا اللقب أبدًا. وفي يوم من الأيام وهو يصلي صلاة الجمعة في الجامع الكبير بحلب، يسمع هذه اللفظة من خطبيب الجامع، فيهب مسرعًا ويقول: "لا لا، لستُ حاكمًا للحرمين، بل خادمًا لهما"، فيعدّل الخطيب كلامه كما أشار به السلطان. وبعد الصلاة يقوم السلطان بتقديم قفطانه هدية إلى الخطيب وشكرًا له. فبهذا يشهد له التاريخ مرة أخرى احترامه وحبه العميق تجاه سيدنا رسول الله ﷺ.

والجدير بالذكر أنه كان من بين سلاطين آل عثمان مَن رأى الرسول ﷺ في المنام. وبالأوامر والإشارات التي تلقّاها منه ﷺ تمكّن من فتح بلاد عديدة بإذن الله ﷻ. والدليل على ذلك رؤية السلطان سليمان القانوني، إذ رأى الرسول ﷺ يقول له: "إذا ما فتحت قلاع بلغراد ورودوس وبغداد، فقم بإعمار مدينتي". فسرعان ما يأمر السلطان بإعمار أراضي الحرمين ووضع مشاريع الإسكان لها.

حتى إنه ترك وصية يطلب فيها أن يُنشأ من ثروته الخاصة وقفٌ خيري يلبي حاجة المياه لحجاج بيت الله الحرام. وبعد وفاته قامت ابنته "مهرماه سلطان" بتحقيق وصيته وأمرت بجلب مياه عين زبيدة من عرفات إلى مكة المكرمة.

ونرى هذا القائد العظيم الذي وقف العالم كله إجلالا واحتراما له، يتوجه في إسطنبول نحو القبلة ويناجي بلسان الحب رسول الله ﷺ منشدًا:

يا حبيب الله يا ضياء العالمين
ببابك العالي وقف العاشقون
فإن داء لساني بذكرك يشفى
فؤادي المكروب بك يفرح
وقلبي المجروح أنت ضماده

ولم تُنقِص الأيام من بحر عشقهم للرسول ﷺ مثقال ذرة، بل تضاعف وتضاعف حتى تحول إلى محيط لا حد له ولا قرار.. السلطان أحمد الأول، يصعد العرش في وقت حرج، حيث تسود الاضطرابات وتنتشر الفوضى في معظم الأراضي العثمانية. إلا أن هذا السلطان الشاب المهموم كان مفعمًا بالروح المعنوية العالية. فراح يبحث عن الدواء في عصره الذي يعيش فيه ولكن دون جدوى، فيقرر في نهاية المطاف أن يرجع إلى الماضي ويبحث عن غرضه هناك.. فيخرج في إحدى الليالي خفية إلى جناح الأمانات المقدسة بقصر طوب قابي... يمسك نعل الرسول ﷺ ويضمه إلى صدره ثم يقول بحرقة قلب:

ليتني أحمل نعلك الشريف دائمًا على رأسي كالتاج
يا صاحب النعل الكريم، يا وردة حديقة الأنبياء
ليتني أمسح وجهي دائمًا على أثر قدمك يا وردة الورود..

ومنذ ذلك الوقت أخذ السلطان أحمد الأول يحمل صورة لأثر القدم النبوي الشريف داخل قفطانه.

ونراه في موضع آخر، يحترق بلهيب العشق النبوي هذا ويقول:

فما عاد الفؤاد يتحمل فراقك
وما عاد اللسان يتحرك بسواك
غدا حبي عشقًا
فأبكاني أنا الفقير،
حتى نفدت دموع قلبي
وما بقيت فيه دمعة، كمثل يعقوب عليه السلام.

وكان السلطان عبد العزيز أيضًا من عشاق النبي ﷺ. ففي إحدى الأيام وصلت رسالة إلى القصر من المدينة المنورة، وكان السلطان في تلك اللحظة مصابًا بمرض شديد أقعده في الفراش. فتردد رجال الدولة بادئ الأمر في تقديم الرسالة إلى السلطان عبد العزيز بسبب مرضه هذا، ولكنهم كانوا يعرفون في الوقت نفسه، مدى حساسيته تجاه المدينة المنورة وحبه لها، فاضطروا إلى تقديمها له في نهاية الأمر.

وعندما اقترب الوزير منه وأخبره أن رسالة وصلت من المدينة المنورة، لمعت عينا السلطان وطلب من الوزير ألَّا يبدأ بالقراءة حتى يأمره بذلك، ثم قال لمن حوله: "ارفعوني، فلا يمكن أن أسمع

رسالة وصلت من الأراضي المقدسة وأنا نائم"، واستمع إلى ما في الرسالة واقفًا على رجليه رغم وطأة المرض.

ومما يجدر ذكره هنا، أن السلطان عبد العزيز كان لا يتناول أي ملف أو أوراق قادمة من المدينة المنورة دون أن يجدد الوضوء؛ لأن هذه الأوراق بالنسبة له تحمل غبار بلدة الرسول ﷺ ورائحته العطرة، لذا كان يقبلها أولًا ثم يضعها على جبينه ثم يشمها بحرارة ثم يفتحها ليقرأها.

تولى السلطان عبد الحميد الثاني الخلافة في وقت كانت فيه الدولة العثمانية في منتهى السوء والاضطراب، سواء في الأوضاع الداخلية أو الخارجية.. وفي وسط هذه التيارات والأمواج المتلاطمة تقلد السلطان عبد الحميد الحكم، وبدأ في العمل بكل ما أوتي من قوة ليوحد المسلمين من جديد تحت راية الإسلام، وقام في عهده بتنفيذ مشاريع مهمة غاية الأهمية منها إنشاء خط حديد الحجاز الذي امتد من إسطنبول إلى المدينة المنورة، وكانت الغاية العظيمة في ذلك الدفاع عن الأراضي المقدسة من هجمات العدو ثم تأمين راحة الحجاج خلال رحلتهم إلى الحرمين الشريفين.

ومما نريد لفت الأنظار إليه في هذا الصدد أنه، قد جرى إنشاء الخط الواقع بين مدائن صالح والمدينة المنورة كله بأيدي المهندسين والعمال المسلمين فقط، لأن هذا الجزء كان داخل حدود منطقة الحرم، وعندما وصل الخط إلى المدينة المنورة في ٣١ أغسطس من عام ١٩٠٨ أمر السلطان عبد الحميد الثاني بأن يُمَدّ اللباد على الخط في آخر ثلاثين كيلو مترًا منه؛ كما أن مقطورة القطار كانت عند وصولها إلى المدينة المنورة تخفض من سرعتها وتقترب من

رصيف المحطة ببطء حتى لا تزعج الرسول ﷺ. ثم ينزل الركاب من القطار ماشين على أطراف أقدامهم بتأدب واحترام... أما اللباد الممدود على سكة الحديد فيتم غسله بماء الورد خلال كل يوم في ساعات معينة، وذلك احترامًا لتلك الأراضي المباركة وتقديسًا لها.

لقد حمل سلاطين بني عثمان من أولهم إلى آخرهم، مشاعرعذبة وحبًا فياضًا ولهفة شديدة إلى الحبيب المصطفى ﷺ وإلى القرب منه. ولعل أهم ميراث تركوه لنا هو هذا الحب النقي الصافي.

رجل من صناع التاريخ، أورخان غازي(*)

هو "أورخان بن عثمان الغازي" ثاني أبناء الأمير "عثمان" مؤسس الدولة العثمانية، وهو ثاني سلاطين آل عثمان، وُلد في الأول من محرم ٦٨٧هـ، ٦ من فبراير ١٢٨٨م، وكان أبوه "عثمان" حريصًا على إعداده لتولي المسؤولية ومهام الحكم، فكان كثيرًا ما يعهد إليه بقيادة الجيوش التي يرسلها لفتح بلاد الروم، كما حدث في سنة (٧١٧هـ، ١٢١٧م) عندما أرسله لحصار مدينة "بورصة" (مدينة في آسيا الصغرى)، فحاصر أورخان القلاع المحيطة بها، وظل محاصرًا لها قرابة عشر سنوات، ولما تأكد حاكمها أنها أصبحت في قبضة أورخان سلَّمها إليه، فدخلها دون قتال سنة (٧٢٦هـ، ١٣٢٥م)، ولم يتعرض أورخان لأهلها بسوء مما جعل حاكمها يعلن إسلامه، فمنحه أورخان لقب "بك".

ولم يكد أورخان يتمُّ فتح مدينة "بورصة" حتى استدعاه والده الذي كان على فراش الموت ولم يلبث أن فارق الحياة بعد أن أوصى له بالحكم من بعده في (٢ من رمضان ٧٢٦هـ، ٢ من أغسطس ١٣٢٥م) وأوصاه وصيَّة تاريخية جاء فيها:

(*) **الصفصافي أحمد القطوري** [جامعة عين شمس / مصر].

"يـا بنـي!.. أَحِـط مـن أطاعـك بالإعـزاز، أنعـم علـى الجنـود.. لا يَغُرَّنك الشيطان بجندك ومالك.. إياك أن تبتعد عن أهل الشريعة.

يا بني!.. إنك تعلم أن غايتنا الأسـمى هي إرضاء رب العالمين.. وبالجهـاد يعلـو نـور ديننـا الحنيـف، وترفـرف راياتـه فـي كل الآفاق، فتحدث مرضاة الله ﷻ.

يـا بنـي!.. اعلم أننا لسـنا من هـؤلاء الذين يقيمون الحرب شـهوةً في الحكم أو سيطرة أفراد.. فنحن بالإسلام نحيا وللإسلام نموت.. وهذا يا ولدي ما أنت أهلٌ له".

ولـم يعارض علاء الدين، الابن الأكبر لعثمان غازي هذه الوصية، بـل قبلهـا مقدمًـا الصالـح العـام على الصالـح الخـاص، بالإضافة إلى أنـه كان يميـل إلـى العزلـة ودراسـة الفقـه، فـي حين اتصـف أورخان بالشجاعة والإقدام.

ولقـد نفَّـذ السـلطان أورخان وصية والده أحسـن تنفيـذ؛ أقام أول جامعة إسلامية في الدولة، وأول جيش نظامي، وعندما تولى السلطة نقـل مقـر الحكومـة إلـى مدينـة "بورصـة" الشـهيرة لحسـن موقعهـا، وجعلهـا عاصمـة لدولتـه، وبنى بها جامعًا ومدرسـة وتكيـة يقدم فيها الطعام للفقراء والغرباء، كما ولى أخاه علاء الدين"الصدارة العظمى (رئاسـة الوزراء)؛ فاختص علاء الدين بتدبير الأمور الداخلية، وتفرغ أورخـان للفتوحـات الخارجيـة، وبهذا يُعد عـلاء الدين أول وزير في تاريخ الدولة العثمانية.

فأمر بضرب النقود الفضية باسم أورخان، وكان أحد وجهي العملة يحمل عبارة "خلَّد الله ملكه"، والوجه الآخر يحمل اسم الأمير.

وفيما يتعلق بتنظيم الجيش، فقد حرص السلطان أورخان في بادئ الأمر على تأليف جيش من الأتراك أنفسهم، وكانت الدولة تدفع لهم الرواتب، ولكن هذه الخدمة العسكرية -التي لم يكن للأتراك عهد بها من قبل- حملت الناس على المغالاة في مطالبهم، فاقترح "جاندرلي" -الذي يعرف بـ"قَرَهْ خليل"، وهو أحد قواد الجيش- إحياء التشريع الإسلامي الذي يقضي بأن يحتفظ بيت مال المسلمين بخمس الغنائم، وعزل الأولاد من أسرى الحرب، وتربيتهم تربية إسلامية خالصة تحثهم على الجهاد في سبيل الله. فوافق السلطان أورخان على هذا الاقتراح، وأعجب به، ودعا إلى تنفيذه، وإعداد هذا الجيش الجديد.

وأما مدة حكم أورخان فتنقسم إلى فترتين:

الأولى من سنة (٧٢٦هـ، ١٣٢٥م إلى سنة ٧٤٣هـ، ١٣٤٢م). وفيها اهتم بتوطيد دعائم الحكم العثماني في "آسيا الصغرى"، وإنشاء الجيش الجديد "الإنكشاري"، وتأسيس الدولة.

والثانية من سنة (٧٤٣هـ، ١٣٤٢م إلى سنة وفاته ٧٦١هـ، ١٣٥٩م)، وكان يستعد فيها لتثبيت قدمه في "شبه جزيرة تراقيا"، و"مقدونيا"، ونشر سلطانه على أرض أوروبا.

وقد تمكن أورخان أيضا من فتح "جزيرة بيثنيا"، وقلعتي "سمندرة" و"آيدوس"، وهما قلعتان إستراتيجيتان تحرسان الطريق الحربي الواصل بين "القسطنطينية" – عاصمة الإمبراطورية البيزنطية آنذاك- و"نقومكيدية" التي فتحها أورخان في سنة (٧٢٧هـ، ١٣٢٦م)، ثم تمكن من فتح بلاد "قره سي" في سنة (٧٣٦هـ، ١٣٣٥م)، وكانت معاملته الطيبة لأهل هذه المدن سببا في اعتناقهم الإسلام.

ولمَّا اتسع ملك الدولة العثمانية، تفرَّغ أورخان لترتيب البلاد وتنظيمها، وسنَّ القوانين اللازمة لاستتباب الأمن، وانتشار العمران في أنحاء الدولة العثمانية كافة.

وعندما زار الرحَّالة المعروف "ابن بطوطة" بلاد الأناضول في فترة حكم السلطان أورخان وقابله هناك، قال عنه: "إنه أكبر ملوك التركمان، وأكثرهم مالًا وبلادًا وعسكرًا، وإن له من الحصون ما يقارب مائة حصن، يتفقدها ويقيم بكل حصن أيامًا لإصلاح شؤونه".

وبفتح إمارة "قره سي" اقترب أورخان من الإمارات الأوربية التابعة للإمبراطورية البيزنطية، فدخلت مدن الثغور البحرية في طاعته صيانة لتجارتها، كما استنجد الإمبراطور البيزنطي "جان باليولوج" بالسلطان أورخان، وأرسل إليه سنة (٧٥٦هـ، ١٣٥٥م) يطلب منه الدعم والمساعدة لصد غارات ملك الصرب "إستيفان دوشان" الذي أصبح يهدد "القسطنطينية" نفسها. فأجاب أورخان طلبه، وأرسل إليه جيشًا كبيرًا. لكن "دوشان" ملك الصرب عاجلته المنية، فعاد العثمانيون من حيث أتوا دون قتال.

ولمَّا تيقن العثمانيون -بعد عبورهم للشاطئ الأوربي- من حالة الضعف والانحلال التي حلَّت بالإمبراطورية البيزنطية؛ شرع أورخان في تجهيز الكتائب سرًا، لاجتياز البحر وفتح بعض النقاط على الشاطئ الأوربي، لتكون مركزًا لأعمال العثمانيين في أوروبا. وفي سنة (٧٥٨هـ، ١٣٥٧م) أمر السلطان أورخان ابنه سليمان بعبور مضيق "الدردنيل"، وكان معه أربعون من أشجع جنوده، فتمكنوا من الاستيلاء على ما كان بها من السفن والقوارب، وعادوا بها إلى الضفة الشرقية، حيث حشدوا فيها ٣٠ ألف جندي، وتمكنوا من دخول مدينة "تزنب". كما ساعدتهم الظروف على فتح مدينة "غاليبولى" -التي تبعد عن القسطنطينية بحوالي (٨٦,٥) ميلًا- إثر زلزال أصاب المدينة، فدخلها العثمانيون، وفتحوا عدة مدن أخرى، منها "أبسالا"، و"ردوستو"، وبنوا العديد من المساجد.

وتوفي الأمير "سليمان" سنة (٧٦٠هـ، ١٣٥٩م)، وفي العام التالي (٧٦١هـ، ١٣٦٠م) توفي السلطان أورخان، والذي يُعَدُّ أول سلطان عثماني امتد ملكه إلى داخل أوروبا، وكانت مدة ملكه خمسًا وثلاثين سنة.

وكان رحمه الله ملكًا جليلًا، ذا أخلاق حسنة وسيرة طيبة وكرم وافر... عمل على استقرار الدولة العثمانية بفتوحاته الجديدة وتنظيماته العديدة، وحرص كل الحرص على تنفيذ وصية والده عثمان مؤسس الدولة العثمانية، ودُفِن في مدينة "بورصة" عاصمة الدولة العثمانية، وتولَّى بعده ابنه السلطان مراد الأول.

أب وابن[*]

نقض المعاهدون معاهداتهم، وتمرَّد الخاضعون... رأى الصبيُّ السلطانُ دولتَه يتنازعها أعداؤها وتنهشها ذئاب الطمع؛ فأرسل لأبيه -الذي تخلى عن العرش- يطلب منه العودة لمواجهة الخطر القادم، راجيًا أن يقف مدافعًا عن أوطان أمته، إلا أن الأب الزاهد، أرسل لولده رسالة يقول فيها: "الدفاع عن الأوطان من واجبات السلطان".

عندها كتب السلطان محمد الثاني البالغ من العمر أحد عشر عامًا رسالة وجيزة قائلًا فيها: "إن كنتَ أنت السلطان فعُدْ واجلس على عرشك وقُدْ جيشك، ولكن إن كنتُ أنا السلطان، فآمرك أن تعود وتجلس على عرشك وتقود جيشك".

لم يستطع السلطان العثماني "مراد الثاني" أن يخالف نجله... لم يستطع أن يغض الطرف عن جيشٍ قوامه تسعون ألف مقاتل يزحف نحو السلطنة... لم يستطع تجاهل نقض العهود والارتداد والنكوص والاستهانة بدولته، كما أدرك أن صناعة السلاطين لا تتحقق بمجرد تمكينهم من العروش.

(*) **نجلاء محرم** [كاتبة وأديبة مصرية].

عاد ثانية إلى العرش وتولى شؤون الدولة. وسرعان ما شرع يتدبر أمور رعيته وجيشه، ويعد العدة لمواجهة زحف الغدر القادم عليه. اصطحبَ وليّ عهده الذي كان سلطانًا بالأمس، وولّى نحو جيوش التحالف القادمة بقيادة "لادسلاس" من المجر، وبولونيا، وألمانيا، وفرنسا، والبندقية، وبيزنطة، وبروجنديا.

كان "لادسلاس" ملك المجر، قد وقَّع مع "مراد الثاني" سلطان الدولة العثمانية معاهدة صلحٍ أقسم فيها بالإنجيل على حفظ بنودها ما دام حيًّا. إذ كانت المعاهدة تنص على وقف القتال لمدة عشر سنوات، وذلك ابتداءً من الثالث عشر من يوليو عام ١٤٤٤م.

إلا أن "لادسلاس" انتهز فرصة تخلّي السلطان "مراد الثاني" عن العرش، وقام بالانقضاض على السلطان الصبي الذي لم يكن يملك الخبرة الكافية في إدارة الدولة؛ فجهز التحالف الأوربي وزحف نحو السلطنة العثمانية.

عبر السلطان "مراد الثاني" مضيق البوسفور متكئًا على كتف ولي عهده الصبي، وزحف قاصدًا قوات التحالف المتهجمة عليه، فوصل "فارنا" ليلة السابع والعشرين من رجب سنة ٨٤٨هـ، واندلعت في اليوم التالي (العاشر من نوفمبر عام ١٤٤٤م) معركة ضارية حرص السلطان "مراد الثاني" على أن يرفع خلالها وثيقة المعاهدة التي وقعها مع ملك المجر "لادسلاس" على سن رمح، ليُشهد الجيشين ويذكرهما بنقض ملك المجر والأوربيين لها، ثم جرَتْ مبارزة بينه وبين "لادسلاس"، قُتِل فيها الأخير، وما لبث ان فرّ قائد جيوش التحالف الأوربية "هونياد" تاركًا خلفه جُلَّ جيشه أسرى.

عـاد "هونيـاد" بعد أربـع سـنوات بحملة عسـكرية أوروبية جديدة على العثمانيين، قوامها مائة ألف جندي.

اصطحبَ السلطان "مراد الثاني" مرة أخرى وليَّ عهده الذي أصبح شـابًّا، متوجهًا نحو سـهل "قَوْصُوَة" المعروفة الآن باسـم "كوسـوفو". وصل جيش العثمانيين إلى "قوصوة"، واحتدمت المعركة لثلاثة أيام متواصلة (من ١٧-١٩ نوفمبر ١٤٤٨) حسمها العثمانيون لصالحهم، وفرّ "هونياد" ثانية، تاركًا خلفه سبعة عشر ألف قتيل وعشرات الآلاف من الأسرى.

تعـددت معـارك السـلطان "مراد الثانـي" دفاعًا عن دولتـه وحفاظًا علـى أبنـاء وطنـه. وأشـهدَ وليَّ عهـده كيف يعتني وليُّ الأمر بشـؤون دولته؛ فشيد المساجد والجوامـع والمدارس والتكايا والزوايا، ودور الضيافـة والخانـات والجسـور... ومهّـد الطرقـات، وأعـدّ الجيـوش، وأرسـل السـفارات والرسـل للممالك والإمارات المجاورة... علّمه كيـف يَعـدِل بيـن رعيتـه ليضمـن ولاء الجميـع علـى تعدد مشـاربهم وعقائدهـم... علّمـه كيـف يفـي بعهـوده، وكيف ينتقم ممـن يخونون عهـده، وعلّمـه كيـف يجنـح للسـلم ولا يتردد فـي الحرب مـا دامت لصالـح دولته وأمته...

جـاء يـوم الثالـث مـن فبراير عـام ١٤٥١م وشـبَحُ المـوت يطوف فـي سـماء "بورصـة" حتـى لقـي السـلطانَ مـراد فـي عمـره التاسـع والأربعيـن... دُفِـنَ مراد الثاني حسـب وصيته فـي مدينة "بورصة" في قبر بسيط مكشوف لا تعلوه قبة.

مات السلطان الزاهد في الحكم والحياة... وعاد ولي عهده لعرشه من جديد، ليصبح واحدًا من أكبر وأهم سلاطين العالم... ومَن ذا الذي يستطيع أن يربي ولدًا غير "مراد الثاني"، كـ"محمد الفاتح" الذي فتح القسطنطينية (إسطنبول) -بإذن ربه- ونال بشرى رسول الله ﷺ بعد وفاة أبيه بعامين!؟

السلطان محمد الفاتح،
فاتح الإنسان والعمران(*)

دأبت كتب التاريخ ودوائر المعارف (الموسوعات التاريخية) على ذكر السلاطين العثمانيين بأسمائهم الصريحة، مع إلحاق هذه الأسماء بترقيم لاتيني على شكل (I – II)، تبعًا للتسلسل التاريخي، مثل "مراد IV" (مراد الرابع)، و"عبد الحميد II" (عبد الحميد الثاني)، و"سليم III" (سليم الثالث). وعند مطالعة اسم " السلطان محمد II" قد لا يتذكر القارئ لأول وهلة أيّ سلطان مقصود هنا وربما يخمنه مع بعض التردد.

ولكن عندما يُذكر نفس السلطان باسم "السلطان محمد الفاتح"، فإنه يعرفه على الفور، بل وتتداعى إلى الأذهان كثير من المعلومات حوله؛ حيث إن هذا السلطان قد استفاضت شهرته وعُرف بصفة "الفاتح" باعتبارها لقبًا له أكثر من شهرة "محمد الثاني" وهو اسمه، وقد سبق لقبُه اسمَه "في التركية".

(*) **ممتاز أيدين** [كاتب وباحث تركي]. الترجمة عن التركية: **سارة رفعت حمدان محمد**.

وعلى الرغم من قيام السلاطين السابقين له بفتوحات عديدة، وامتداد رقعة الخلافة العثمانية في أزمانهم وخلال سنوات حكمهم، إلا أن امتياز السلطان "محمد الثاني" عليهم بلقب الفاتح جاء عن جدارة واستحقاق، ويمكن الوقوف على حقيقة ذلك بدقة من خلال جهوده المشكورة في فتح إسطنبول، تلك الجهود التي استمرت حتى عام ١٤٥٣م.

إسطنبول في التاريخ الإسلامي

ورد ذكر إسطنبول بكثير من الإجلال في مصادر التاريخ الإسلامي، وتعددت محاولات فتح هذه المدينة، تلك المحاولات الضاربة في عمق التاريخ، فخلال عهد الأمويين تم محاصرة إسطنبول برًّا وبحرًّا أربع مرات، بيد أنه لم يتم فتحها.

وقد شارك كثير من الصحابة في بعضٍ من هذه الحملات، وفي مقدمتهم الصحابي الجليل "أبو أيوب الأنصاري" ﷺ، وقد جاء هؤلاء الأصحاب الأطهار لينالوا شرف الوصف وعظيم الأجر الذي بشّر به النبي ﷺ أول جيش يفتح القسطنطينية.. فقد قال النبي ﷺ: "أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفورٌ لهم" (رواه البخاري)، غير أن هؤلاء الفضلاء نالوا الشهادة ولم يستطيعوا فتحها.

محاولات فتح إسطنبول

في عهد الخلافة العباسية، انتهت الحملة الوحيدة التي خرجت لفتح إسطنبول أمام السواحل.

ثم تلا ذلك ظهور الأتراك على ساحة التاريخ، ووصول "قوتالميش أوغلو سليمان بك" (*Kutalmışoğlu Süleyman Bey*) من سلاجقة الأناضول، حتى حدود "أوسكودار"، ثم مرور "جاقا بك" (*Çaka Bey*) الذي أسَّس إمارة صغيرة في "إزمير" بعد أيام عسيرة في مواجهة البيزنطيين، لكي ينال شرف فتح المدينة، لكنه لم يحالفه التوفيق.

وتمثل إسطنبول في الذاكرة العثمانية، المدينةَ الأصعب فتحًا، والأكثر حصارًا، والأشد منعة، والتي مثَّلت صعوبة جمة أمام العثمانيين.

وقد حاول السلطان "يلديرم بيازيد" فتح إسطنبول أربع مرات بعد محاولات كلٍّ من "أورخان بك"، و"مراد الأول"، غير أن جيش "تيمورلنك" القادم من الشرق لغزو الأناضول كان حائلًا دون إتمام ذلك الفتح.

أما الحصار الأخير قبل الفتح، فقد حدث في عهد السلطان "مراد الثاني" والد "الفاتح".

وبعد ما لا يقلّ عن ثلاث عشرة محاولة نجح السلطان "محمد" في فتح إسطنبول، مستفيدًا من كل التجارب السابقة عليه؛ ولهذا فقد نُعِتَ في كتب التاريخ بلقب "الفاتح" الذي اكتسبه بهذا الفتح الرائع.

أهمية فتح إسطنبول

وعلى الجانب الآخر، كانت هناك أهمية خاصة لهذا الفتح بالنسبة للعالم الإسلامي آنذاك. فقد توقفت الفتوحات في العالم الإسلامي

في تلك العصور، وتحول العالم الإسلامي من حالة تمدد وانتشار في عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين إلى حالة انكماش وتراجع وانكفاء على النفس وترك الساحة للآخرين، وظهر الضعف في حركة الفتوحات لفترة طويلة.

كما أنه لم يتبق من هيبة الدولة العباسية شيء، ولم تكن آثار غارات المغول التي أضعفت كثيرًا من قوى المسلمين قد مُحيت بعدُ من الأذهان، بالإضافة إلى انشغال المسلمين لفترات طويلة بالتصدي للحملات الصليبية القادمة من الغرب.

إن إحياء السلطان محمد الفاتح لحركة الفتوحات التي توقفت لسنوات عدة، وفتحه لأبواب العالم الغربي أمام المسلمين، قد أحدث سعادة وفرحة عارمة على امتداد العالم الإسلامي لم تحدث منذ موقعة "ملاذ كرد".

ولذا لم يكن للسلطان محمد مكانة مرموقة في التاريخ التركي فحسب، بل تميز واشتُهر بين القادة العظام الفاتحين في تاريخ الإسلام أيضًا، بالتالي نال مدح الرسول ﷺ بأنه من خيار الأمراء حيث قال ﷺ: "**لتُفْتَحنّ القسطنطينية، فلنِعْم الأمير أميرُها، ولَنِعْم الجيشُ ذلك الجيش**" (رواه أحمد).

غير أن الأمر لم ينته بالسلطان محمد الفاتح بفتح إسطنبول فقط، بل إنه كان على وشك التحرك من جديد صوب أوروبا استكمالًا لمسيرة الفتوحات؛ فتمنَّى أن تستمر "الفتوحات" و"التوسعات" التي تعبّر عنها كلمة "الفتح" بصدق ووضوح، بهدف نشر قيم الإسلام ومبادئه الإنسانية الراقية.

أخلاق الفاتحين المسلمين

ووفقًا لما يأمر به الدين الحنيف؛ فقد تصرف السلطان محمد الفاتح بعد دخول المدينة يوم التاسع والعشرين من مايو تصرف النبلاء، فقد أوضح لأهالي إسطنبول وللعالم أجمع أنه لم يأت إلى هنا لأسباب عسكرية فقط، بل إنه جاء لغاية أعظم، وأخذ يهدئ من رَوْع أهل المدينة الذين كانوا في حالة اضطراب وخوف بسبب سير الفاتحين في ذلك الزمان، إلا أنه خاطبهم بقوله: " أقول للجميع إنه ومن اليوم لم يعد هناك خوف على حياتكم وحريتكم".

وأعلن أن الشعب بكل أطيافه والكهنة "القساوسة" يمكنهم العيش وفقًا لأديانهم ومعتقداتهم، ولم يكتفِ بالسماح لبطريكية الروم بممارسة أنشطتها فحسب، بل سمح للطائفة اليهودية بامتلاك المعابد، وترك للأرمن حرية اختيار بطريك على رأس الطائفة الأرمينية.

وظهر بوضوح كالشمس المشرقة صدق ما قاله الأهالي والقساوسة من أهل المدينة قبل الفتح، وأنهم كانوا محقين في رؤيتهم عندما قالوا: "نفضّل أن نرى العمامة العثمانية في إسطنبول على أن نرى قبعة الكاردينال".

لم ينجح السلطان محمد الفاتح في فتح إسطنبول فحسب، بل قد نجح في فتح قلوب أهالي هذه المدينة أيضًا، دون أن تكون هناك أي قوة تجبره أو تضغط عليه لفعل هذا، وإنما لامتثاله أخلاق الإسلام وقيمه ومبادئه السامية.

إعمار مدينة إسطنبول وتنميتها

ثم جاءت مرحلة تنمية المدينة وإعمارها؛ فأعاد السلطان محمد الفاتح إعمار المدينة عبر البدء بإصلاح الأماكن التي دُمرت إبان الحصار، وبدأ في دعوة السكان الروم المقيمين في إسطنبول إلى الإسلام عبر تعريفهم به، كما بدأت فعاليات الإسكان بهدف تحويل المدينة ديمغرافيًا إلى مدينة عثمانية؛ فأحضر ما يقرب من خمسة آلاف شخص أغلبهم من أماكن متعددة بالأناضول، وجزء منهم أيضًا من منطقة "الروم إيلي" حتى سبتمبر ١٤٥٣م، وتم تسكينهم في إسطنبول..

إذ آمن السلطان محمد الفاتح -كأجداده الأجلاء- أن القيم السامية والمبادئ النبيلة التي تحلى بها دينه الحنيف، لابد أن تغرس بُذورها في تربة هذه المدينة وتصبغ صبغتها على كل جنبات إسطنبول حتى يكون الفتح قد اكتمل وبلغ الغاية والمبتغى.

وهكذا فقد هدف السلطان إلى أن تتعلم المجتمعات المختلفة في العرق والدين كيف تتعايش معًا جنبًا إلى جنب، وأن يصبح السكان المسلمون نموذجًا يُحتذَى لغيرهم من الشعوب أيضًا.

إسطنبول في العقلية العثمانية

إن فتح إسطنبول كان بمثابة "التفاحة الحمراء" التي راودت خيال العثمانيين، وهو الأمر الذي يعتبر بداية لفتح الروم، وهو الفتح الذي تحول به العثمانيون لـ"دولة عالمية" تحكم العالم الإسلامي في الشرق، والعالم المسيحي في الغرب.

ومن المعلوم أن "الفاتح" الذي نشأ بهذه المثالية سعى لحماية هذه العادات والتقاليد عبر حثّ رعاياه من الإيطاليين على تعلّم تاريخ روما، ولعل رأي "*Jacopo Langusebi*" الذي عاش بإسطنبول بعد فترة وجيزة من فتحها يطابق رأي السلطان "الفاتح" حيث يقول: "يجب أن تكون هناك إمبراطورية واحدة، وعقيدة واحدة، وحكم واحد على مستوى العالم، وليس ثمة مكان أكثر مناسبة لتأسيس هذا النموذج من إسطنبول". فهذا -بلا شك- يجب أن يكون واحدًا من دواعي اتخاذ مدينة إسطنبول عاصمة للدولة العثمانية.

وفي صيف ١٤٥٦م أوكل الفاتح إلى"*Amirutzes*" مهمة إعداد خريطة العالم، ليتعرف على العالم الذي استعد لغزوه.

ومن أجل فتح الغرب استمرت حملات الفاتح بالقارة الأوروبية، فأرسل في البداية حملةً إلى بلاد الصرب، تلاها فتح بلاد المورة، والأفلاق، والبوغدان، وسمندر، وميدلي، ورودس، وأثينا، والبوسنة.

محمد الفاتح "إمبراطور الروم"

ثم تبع ذلك الخروج في حملة إلى إيطاليا والاستيلاء على مدينة "ترنتو" وتحويلها إلى قاعدة عسكرية، وقد شكّلت الهجمات الصادرة من هذه القاعدة بدايةً تهدف لفتح روما، ثم ما لبث أن تحول العثمانيون -بامتداد حدودهم داخل أوروبا- إلى دولة عالمية.

فقد حوّل السلطان "الفاتح" هذه الدولة التي أسّسها "عثمان غازي" قبل مائة وخمسين عامًا كـ"دولة قبَلية" إلى دولة عالمية؛ مما دعا بعض المؤرخين البيزنطيين الذين وُجدوا إبان هذه الفترة إلى

أن يلقّبوا الفاتح بـ"إمبراطور الروم" لاستحواذه على الإمبراطورية الكائنة بإسطنبول.

أما في الأناضول فكانت بعض الدويلات والإمارات الصغيرة، تهدد وحدة هذه المنطقة وفي مقدمتها "الكرمانيين" الذين توجه إليهم "الفاتح" في البداية، وأعقبهم في المرحلة الثانية إمارة "آق قويونْلو" والتي كانت تمثل تهديدًا كبيرًا على وحدة المنطقة، حيث إن العثمانيين كانوا قد تعلموا دروسًا كبيرة من حادثة "تيمور" المماثلة لهذه الأحداث.

ومع تخلّص العثمانيين من هذه القلاقل بانتصار معركة "أُطْلُوقْبَلِي" (*Otlukbeli*) وبإلحاق ممالك "ذو القادر"، و"اسفنديار"، و"جاندار" و"عالية" للدولة العثمانية كانوا بذلك قد أحكموا سيطرتهم على جميع الأناضول.

ومع استمرار تحركات وغزوات الفاتح، فقد تشكل الجانب السياسي والعسكري للدولة العالمية، بالإضافة إلى أن هذا النموذج المثالي العظيم أوجد العديد من الفعاليات المتعلقة بالثقافة والحضارة والعلم؛ حيث كان العثمانيون لا يزالون محكومين بعاداتهم وتقاليدهم ومعاملاتهم التي ورثوها عن "الدولة القبَلية".

تنظيم محمد الفاتح شؤون الدولة العالمية

تلا ذلك مرحلة تحديد المبادئ واللوائح الإدارية والقانونية والاقتصادية، ومع صدور القوانين المعروفة باسم "دستور الفاتح"،

ظهر كيف ستُدار الدولة، وأي المناصب سيتم استحداثها، كما تم ربط وظائف وصلاحيات مسؤولي وموظفي هذه المناصب بنظام محدد، بالإضافة إلى تحويل القانون إلى قانون مكتوب، مع الأخذ في الاعتبار الأوضاع القائمة آنذاك؛ وعليه فقد حلت الدساتير المدونة محل العادات والتقاليد والأعراف على نحو يليق بعظمة الدولة ومكانتها.

المسجد والمدرسة كلاهما من عوامل النهضة

وبجانب المسجد الذي يحمل اسمه، فإن تشييد الفاتح للمدرسة الدينية "الصحن الثماني" (*Sahn-ı Seman*) التي تماثل الجامعة في وقتنا الحالي؛ يعد إكمالًا للقاعدة التعليمية النموذجية.

فمنذ أن تأسست هذه المدرسة التي تُعد بمثابة أكبر جامعة في العالم الإسلامي آنذاك، كان يتم اختيار الأطفال النابهين ثم يرسلون إليها، حيث يتلقون العلوم الطبيعية والدينية جنبًا إلى جنب، ومن ثَم فقد تحولت أيضًا "مدرسة الأندرون" التي شُيدت بهدف إعداد رجال الدولة، إلى مدرسة تستطيع أن تلبّي الاحتياجات من الموظفين المؤهلين لإدارة الدولة المترامية الأطراف، وذلك بعد أن تم إجراء بعض الإصلاحات عليها.

وقد توفي "الفاتح" في سنّ مبكرة عن عمر يناهز تسعة وأربعين عامًا بعد أن حقّق حلم "التفاحة الحمراء" تاركًا إياها لمن خلفه من الأجيال القادمة.

فتح وضم على امتداد عهد سلطنته سبع عشرة دولة ومائتي مدينة، غير أن كل هذه الانتصارات والفتوحات والعروش لم تُلْهِه عن أن يكون سلطانًا حقيقيًّا يدرك مسؤوليته التي حملها على عاتقه أمام ربه والإنسانية جمعاء، ويعي مكانته كخادم وحارس للقيم الإسلامية الإنسانية الراقية.

السلطان عبد الحميد الثاني والتصوير الفوتوغرافي(*)

إبان القرن الثامن عشر تم الشروع -ولأول مرة- في كلية هندسة الدفاع البري السلطانية بتدريس الرسم من أجل التعرف على الصور الثلاثية الأبعاد على النمط الغربي، وفي القرن التاسع عشر أضيف إلى المنهاج التعليمي في الكلية، مادة التصوير الفوتوغرافي تحت إشراف مدرسين تخرَّجوا في قسم الرسم، حيث تم التقاط بعض الصور الموجودة في ألبومات الصور العثمانية ولا سيما ألبومات يلديز، من قبل طلاب خريجي كلية هندسة الدفاع البري السلطانية. ومن أشهر هؤلاء الطلاب النقيب حسني (١٨٤٤-١٨٩٦)، البحار علي سامي، أحمد أمين سرولي (١٨٤٥-١٨٩٢)، علي رضا باشا (ت: ١٩٠٧)، علي سامي أق أوزَر (١٨٦٦-١٩٣٦).

ومما يستحق الإشادة به أن السلطان عبد الحميد الثاني حثّ بنفسه على التصوير الفوتوغرافي في الدولة العثمانية، حيث كان التصوير العنصر الرئيس الذي يعكس حالة البلاد خارج القصر

(*) **محمد بهادير دوردنجي** [كاتب وباحث تركي]. الترجمة عن التركية: **نور الدين صواش**.

لا سيما عندما كانت الدولة في حالة من الانحطاط والضعف، تلك الصور سهّلت للسلطان معرفة الأحوال ضمن الأراضي العثمانية التي تمتد من مصر إلى دول البلقان، ومن الحجاز إلى بلاد القفقاس؛ ومن ثم راح التصوير يزدهر وينمو يومًا بعد يوم حتى أصبحت الصورة وثيقة مرئية تُحفظ في أرشيف الدولة العلية.

يقول السلطان عبد الحميد الثاني: "الصورة التي تعبر عن الوقائع والأحداث وتنقلها إلينا، لهي أدق وأوجز من الكلام الذي يطول فيه الشرح".

ولعل هذا يبيّن لنا موقف السلطان عبد الحميد الثاني من الصورة والتصوير.

تقويم الأشخاص عن طريق الصور

يروى أن السلطان عبد الحميد الثاني كان يحلل الأشخاص من خلال الصور، ويقال إنه بعد مضي ٢٥ سنة من تربعه على العرش طلب من موظفيه أن يلتقطوا صورًا للسجناء ويسجلوا تحت كل صورة جرائمهم وأسباب دخولهم السجن، وتم هذا فعلًا؛ فأخذ السلطان يحلل شخصياتهم من خلال هذه الصور، ثم عفا عن بعض هؤلاء وأصدر أمرًا بإطلاق سراحهم، ويقال إنه انتقى الطلاب الذين يستحقون التسجيل في المدارس العسكرية عن طريق الصور كذلك.

وينقل إلينا الطبيب حسين عاطف بك -الطبيب الخاص للسلطان عبد الحميد الثاني- في مذكراته، كيف كان السلطان عبد الحميد يحلل من الصور هوية السجناء ويبدي رأيه حول قابليتهم للجريمة بالتنبيه إلى طول أصابعهم، فيقول عاطف أفندي:

"أنهى السلطان حديثه عن الجريمة والمجرم قائلًا: "قرأت ترجمة كتاب إنجليزي حول الجرائم، لأنّ لي فضولًا حول قراءة الوقائع الجنائية؛ فقد ذكر في الجزء الأخير من هذا الكتاب، أن رأس إبهام أغلبية القتلة طويل جدًّا ويتجاوز العقدة الوسطى من السبابة، وأن يدَي القاتل تشبه مخالب الحيوانات الوحشية؛ فدفعني الفضول إلى أن آمر بجمع صور السجناء كلهم.

وفعلًا رأيت أن أصابع هؤلاء طويلة كما قيل في الكتاب، ولكن هيئة يد كل واحد منهم كانت مختلفة عن الآخر".

وحكى لنا السلطان أنه كان يُقبَض على المجرمين في أوربا -أحيانًا- من خلال النظر إلى صورهم.

إذًا، فقد استخدم السلطان عبد الحميد طريقة قراءة الصور في تحليل الأشخاص، وعفا عن بعض السجناء من خلال تقويمه لصورهم في ذكرى الجلوس الخامس والعشرين على العرش؛ ولعل هذا يفسر سبب وجود عدد كبير من صور السجناء في "ألبومات يلديز"، وكان أغلبها لسجناء أرمن وروم اتهموا بجرائم مختلفة.

ألبومات يلديز

تم التقاط الصور الموجودة في ألبومات يلديز في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٨)، وهي عبارة عن ٩١١ ألبومًا، وفيها حوالي ٣٦ ألف صورة.

والصور التي التقطها مصورون محترفون قدّمت معلومات جليلة عن مدينة إسطنبول وكافة أرجاء الدولة العثمانية، بالإضافة إلى تقديمها معلومات قيمة عن اليابان، والصين، وآسيا الوسطى، والهند، والشرق الأوسط، والبلقان، وأوربا، والولايات المتحدة ومدنها المهمة؛ فالمصانع التي افتتحت في تلك الآونة، والمدارس، والمستشفيات، والمخافر، والصور التي صورت أحداثًا مهمة، حظيت بمكانة عالية في الألبومات.

وجدير بالذكر أن السلطان عبد الحميد الثاني قد شارك في عملية التقاط الصور بنفسه، وهذا ما يبين لنا مدى ازدهار التصوير في عهد السلطان عبد الحميد والاهتمام به؛ وبالتالي فإن اللوحات والصور التي تم جمعها في الألبومات سلطت الأضواء على أحوال الأراضي العثمانية في ذلك الوقت.

ولقد قام السلطان عبد الحميد الثاني بتوظيف مصورين في أعمال شتى كتوظيف "علي سامي أق أوزَر" بتصوير الإمبراطور الألماني "ويليم الثاني" إبان زيارته القدسَ عام ١٨٩٨، وتوظيف "حسن رضى الأسكداري" بتصوير الأبنية العسكرية، وتوظيف "كنعان باشا" بتصوير أنقاض الحرب العثمانية-اليونانية لعام ١٨٩٧.

حرب نفسية عن طريق الصور

أرسلت الدولة العثمانية ألبومات متنوعة عديدة لتعرّف نفسها إلى دول قوية كفرنسا وبريطانيا، والولايات المتحدة التي بدأت -آنذاك- تلعب دورًا مهمًّا في التوازن الدولي شيئًا فشيئًا.

فقد تم إرسال واحد وخمسين ألبومًا من الصور إلى ملكة بريطانيا، وملك فرنسا، ورئيس الولايات المتحدة، اختيرت باهتمام بالغ للتأكيد على أن الدولة العلية العثمانية لا تزال في حالة جيدة، تحافظ على قوتها ومكانتها المرموقة في سياسة العالم على عكس ما كان يعتقد من أنها أشرفت على الزوال والانهيار.

وقد أراد السلطان بذلك، خوض حرب نفسية مع الدول الكبرى في وقت كانت فيه الأمم تتصارع للسيطرة على العالم بأكمله ولا سيما أراضي الدولة العثمانية التي لقّبوها بـ"الرجل المريض".

واللافت للنظر أن الألبومات التي أُرسلت إلى خارج البلاد تميزت بمقاييسها الضخمة؛ حيث تألفت من ٥٠ صفحة بينما كانت عادة تتألف من ١٢-٢٠ صفحة داخل الدولة العثمانية، كما تم كتابة الحواشي على بعض هذه الألبومات المرسلة باللغة الفرنسية، وبعضها الآخر بلغات أجنبية أخرى.

ولقد تميزت هذه الألبومات بأغلفتها المزخرفة، من أوسمة، وخطوط لتزيين الحواشي، وطغراء السلاطين، والعلَم العثماني، وشعار الدولة العثمانية.

لم تُرسل هذه الألبومات إلى رؤساء الدول فحسب، بل أُرسلت كذلك إلى المتحف البريطاني في لندن، ومكتبة الكونغرس في واشنطن.

أما الألبومات التي تم إهداؤها إلى المتحف البريطاني عام ١٨٩٤، فقد كان سبعة عشر منها يتضمن مناظر طبيعية خلابة وآثارًا

تاريخيـة بديعـة تعـود إلـى مناطـق عديـدة داخـل الأراضـي العثمانية، وسبعة عشر أخرى منها تتضمن صور وحدات عسكرية عثمانية برية وبحرية، وخمسة عشر أخرى صُوَرَ فعاليات طلبة المدارس العسكرية والمدنيـة، واثنـان منهـا تعود إلى صور الخيـول التي يتم ترويضها في القصر العثماني.

شجاعة السلطان عبد الحميد الثاني(*)

السلطان عبد الحميد الثاني هو السلطان الرابع والثلاثون في دولة آل عثمان، جاء إلى الحكم في ظروف صعبة جدًّا؛ فالدولة كانت على حافة الانهيار جراء ضعفها الداخلي اقتصاديا وعسكريا وعلميا، ومن جراء الخطر الخارجي الذي كان يتمثل في اجتماع الدول القوية (مثل إنجلترا وروسيا وفرنسا والنمسا) عليها، ومحاولة كل منها ابتلاع قطع من أراضيها الواسعة الممتدة على ثلاث قارات. في مثل هذه الظروف القاسية استطاع هذا السلطان المحافظةَ على الدولة العثمانية ثلاثا وثلاثين سنة (١٨٧٦-١٩٠٩م) بأقل الخسائر، وحال دون انهيارها، وقام بحملة كبيرة في ساحة التعليم وبناء المدارس والكليات، ولكن من جاء بعده من الاتحاديين فتّتوا الدولة العثمانية وبعْثروا أشلاءها في عشر سنوات فقط.

كان عبقريًّا في السياسة وفي إدارة الدولة حتى قال جمال الدين الأفغاني وهو يصف سياسته: "إن السلطان عبد الحميد لو وزن مع أربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاء ودهاء وسياسة، خصوصًا في تسخير جليسه، ولا عجب إذ رأيناه يذلل ما يقوم لملكه من الصعاب من دول الغرب، ويخرج المناوئ له من حضرته راضيًا عنه وعن سيرته وسيره، مقتنعاً بحجته"، و"رأيته يعلم من دقائق

(*) أورخان محمد علي

الأمور السياسية ومرامي الدول الغربية وهو معدّ لكل هوة تطرأ على الملك مخرجًا وسلّمًا. وأعظم ما أدهشني ما أعد من خفي الوسائل وأمضى العوامل كي لا تتفق أوروبا على عمل خطير في الممالك العثمانية، ويريها عيانًا محسوسًا أن تجزئة السلطنة العثمانية لا يمكن إلا بخراب الممالك الأوروبية بأسرها".

تعرض هذا السلطان العظيم إلى العديد من الافتراءات الظالمة من قبل أعدائه؛ من أهمها أنه "كان سلطانًا ظالمًا قتل العديد من خصومه"، و"كان كثير الوساوس وعلى خوف دائم على حياته وعلى عرشه؛ لذا قام ببث العيون والجواسيس في طول البلاد وعرضها".

وسنتناول في مقالنا هذا تهمة الجبن، أما أنه بث العيون والجواسيس، فنقول لمن لم يدقق التاريخ العثماني ولا سيما في أدواره الأخيرة: إن إسطنبول عاصمةَ الدولة العثمانية كانت تعجّ آنذاك بجواسيس الدول الكبرى، وقد نجحت هذه الدول في تدبير المؤامرات والانقلابات حتى في القصر السلطاني. مثلا استطاعت إنجلترا وفرنسا تدبير انقلاب على السلطان عبد العزيز (عمّ السلطان عبد الحميد).

لذا كان من الطبيعي قيام السلطان عبد الحميد بتشكيل مؤسسة استخبارية تقاوم وتناضل ضد الألاعيب والمؤامرات التي كانت هذه الدول الكبرى تدبرها ضد الدولة العثمانية، هل كان المتوقع من هذا السلطان أن يترك دولته في مهب الريح طعمة للمؤامرات!؟

المدقق لحياة السلطان عبد الحميد يتوصل إلى أن هذا السلطان كان شجاعًا رابط الجأش أمام المخاطر التي كانت تطير بألباب

الرجال، أي يتوصل إلى عكس تهمة الجبن التي حاول أعداؤه إلصاقها به..

ويكفي أن نورد هنا حادثتين تاريخيتين في هذا الصدد:

١-حادثة الزلزال الكبير

لنَنْقل وصفًا لهذا الزلزال الذي سُجِّل في التاريخ التركي تحت اسم "الزلزال الكبير" (٦ محرم ١٣١٢هـ - ١٠/٧/١٨٩٣م) من المؤرخ التركي حامي دانشماند، يقول: "إن هذا الزلزال الهائل الذي كان متوجهًا من الجنوب إلى الشمال والذي استمر دقيقة واحدة تقريبًا -كما ذكرت جريدة "ترجمان الحقيقة" في نسختها الصادرة في اليوم الثاني للزلزال- قد أدّى إلى تلف وتخريبات كبيرة.

فقد تهدم كثير من الجوامع والمنائر والمدارس ومراكز الشرطة وأرصفة الموانئ والمباني الرسمية والخانات[1] والدكاكين والبيوت، كما أصبحت بنايات كثيرة معرضة للسقوط وخطرة على الناس، لذلك فقد هدمت من قِبل الحكومة، وكان معظم الذين ماتوا في هذه الحادثة هم الذين بقوا تحت الأنقاض؛ فمثلًا في منطقة الـ"سراجخانة" قُتل خمسة أطفال من طلاب مدرسة ابتدائية، كما مات بعض المارة عندما سقط عليهم جدار، وكان عدد الجرحى أكثر من عدد القتلى، وقد نُقلوا مباشرة إلى المستشفيات للعلاج، وكلّف السلطان فورًا -بوساطة ياوَرِه- وزارةَ الداخلية ورئاسة البلدية ورئاسة الصحّة بإبداء المعونة والمساعدة الفورية، وبفتح سجل بجمع التبرعات حيث بلغ مجموع ما جمع من التبرّعات في خمسة أشهر وتسعة عشر يومًا (أي حتى ٢٩ من جمادى الآخر المصادف ليوم الجمعة

١٢/٢٨) ٨٢٨٧٤ ليرة ذهبية عثمانية، علمًا بأن القسم الأعظم من هذا المبلغ دفع من قِبل السلطان عبد الحميد".[٢]

ويصف شاهد آخر هذا الزلزال، وهو الشاعر التركي المعروف عبد الحق حامد، فيقول: "كنت آنذاك على باخرة "الشركة الخيرية"، وبعد أن اجتازت الباخرة "بشكتاش"[٣] واقتربتْ من الجسر، رأينا فجأة منظرًا غريبًا كاد يفقدنا عقولنا!.. كانت البيوت تتهدم والسقوف تنهار والمنائر تهوى وتتحطم... لم نكن ندري ما الأمر، وأخيرًا صاح أحدهم: إنه الزلزال؛ عند ذلك توضّحت لنا المسألة؛ كان الزلزال عنيفًا إلى درجةٍ حسبنا أن القيامة قد قامت".[٤]

في ذلك اليوم كان السلطان عبد الحميد في قصر "يِلْدِز" جالسًا في صالون استقبال المهنّئين بالعيد تحت "ثريا" تزن عدة أطنان، يستقبل المهنئين من السفراء وحوله كبار الضبّاط والوزراء ورجال الدولة... وفجأة وقع الزلزال العنيف وبدأ الناس يتراكضون وعمت الفوضى كل مكان؛ حتى إن الضبّاط تراكضوا إلى النوافذ القريبة يكسرون الزجاج بأعقاب أحذيتهم العسكرية لكي يُلقوا بأنفسهم إلى الحديقة، وبدأت الثريّا الكبيرة المعلقة في السقف تتأرجح بقوة وعنف كبندول الساعة.

كان السلطان الشخص الوحيد المتمالك لأعصابه، إذ لم يقم ولم يتحرك من مكانه بل بقي هادئًا وقورًا الوقار اللائق بخليفة المسلمين، تتحرك شفتاه بتلاوة بعض آيات من القرآن الكريم.

هذا المشهد الهائل الذي لم يتمالك معه الضباط -الذين خاضوا الحروب وواجهوا الموت فيها- من ضبط أنفسهم فاستسلموا

للهرب للنجاة بأنفسهم.. لم يهتزّ السلطان ولم يفقد أعصابه أمام هذا المشهد، بل واجهه بأعصاب ثابتة وبرباطة جأش عجيب.

٢- حادثة القنبلة

في ١٩٠٥/٧/٢١م حدثت محاولة لاغتيال السلطان، وذلك بوضع ٨٠ كجم من المتفجرات مع ٢٠ كجم من قطع الحديد في مركبة أُوقفتْ في فناء الجامع الذي كان يصلي فيه السلطان أيام الجمع، ووقّتت القنبلة بحيث تنفجر في الوقت الذي يخرج فيه السلطان من الجامع.

وقد تأخر السلطان في الخروج قليلًا، فانفجرت القنبلة -والسلطان بعدُ في المسجد- مُحْدثة دويًّا هائلًا تردد صداه من أقصى إسطنبول إلى أقصاها، قُتل في هذا الانفجار ٢٦ شخصًا وجُرح ٥٨ ونفقت ما يقارب العشرين من الخيول.

في هذا الموقف الرهيب الذي ساد فيه الهَرْج والمرْج وتراكض الضبّاط والجنود والناس خوفًا وهلعًا يريدون النجاة بأنفسهم، بقي السلطان هادئًا وساكنًا، ثم مشى -بعد أن أصدر بعض الأوامر- إلى عربته حيث قادَها بنفسه بين هتاف الناس له.

جرَتْ هذه المحاولة بعدما أيقن الأرْمن بأن السلطان عبد الحميد لن يطبّق البند الوارد في معاهدة "برلين" -التي اضطر السلطان على التوقيع عليها- حول الامتيازات والمؤسسات الضرورية التي طلبتها الدول الأوروبية الكبرى من الدولة العثمانية لتأسيس حكم ذاتي مستقل للأرمن مع أنهم كانوا أقلّية في الدولة العثمانية.

كانت خطة الأرمن هي اغتيال السلطان أولًا ثم نسف مقر الحكومة العثمانية، أي نسف الباب العالي وجسْر غَلَطَة والبنك العثماني وسفارات بعض الدول الأوروبية في إسطنبول لإشاعة فوضى كبيرة فيها لفسح المجال لتدخل الدول الأوروبية.

كان القائم بهذه المحاولة -التي وضعت تفاصيلها في مدينة "صوفيا"- أرمنيًا من منظمة "طشناق" من باكو اسمه "كريستوفر ميكاليان"، حيث قام كريستوفر بالاتصال مع فوضوي بلجيكي مختص بصنع القنابل الموقوتة اسمه "أدوارد جوريس"، وقد صنعت العربة التي وضعت فيها المتفجرات في الخارج، وأدخلت أجزاؤها إلى إسطنبول قطعة قطعة ومن أماكن متفرقة.

وبعد الحادثة تم القبض على أدوارد جوريس وعلى بعض أعوانه، وقد اعترف في المحكمة التي حضرها السفير البلجيكي أيضا بأنه قام بهذه العملية، وحكم عليه بالإعدام، ومع أنه حاول الانتحار في سجنه إلا أنه لم يفلح.

أما السلطان "الظالم!" فقد عفا عنه وأمر بإخراجه خارج الحدود، لأنه لم يكن يرغب في توقيع عقوبة الإعدام على أحد.(٥)

يصف "الأميرال هنري وودس" في مذكراته هذه الحادثة فيقول: "لم أكن بعيدًا عن السلطان.. في هذه الأثناء فرْقع دوي كصوت عدة مدافع، واهتزّت الأرض تحت قدمي وكأنها تريد الإطاحة بي، ذهلت من رباطة جأش السلطان، وفجأة شاهدت العديد من الأشخاص الذين هرْولوا داخل جامع "يِلدِز" والدماء تنزف من وجوههم وأياديهم، حسبت لأول وهلة أن قنبلة يدوية ألقيَت على

السلطان، ولكنني عندما نظرت إلى فناء الجامع الذي كان السلطان يركّز نظره عليه، ارتعشتُ من الدهشة؛ كان الفناء كأنه ساحة حرب دمرتها المدافع، فهناك تناثرت أجساد الخيول وقطع الأخشاب والعربات التي تمزقت شرّ ممزق وأجساد السائسين المساكين الراقدة دون حياة... وعلى بُعد مترين لاحظت جاويشًا يحاول تغطية جسد ضابط كبير خر صريعًا بإحدى الشظايا.

وما إن سُمع الدوي حتّى أسرعت كوكبة من الفرسان إلى مكان الحادثة وبأيديهم السيوف المشهرة، ولكنها قفلت راجعة عندما تلقّى آمرها إشارة السلطان بالرجوع.

وبعد قليل عرف الجميع مدنيّين وعسكريين بأن السلطان سليمٌ معافًى، فلم يتمالكوا أنفسهم -أتراكًا وأجانب، مدنيين وعسكريين- من الفرح وبدأوا بالهتاف "عاش السلطان، عاش السلطان" وانشغل عبد الحميد مدة دقيقة أو دقيقتَين بإعطاء الأوامر لبعض كبار الضباط، ثم توجه إلى عربته بكل هدوء ورباطة جأش وكعادته قادها بنفسه، وكانت تقاطيع وجهه في غاية الهدوء، وهكذا ترك الجامع وذهب إلى القصر.

وأصيبت إحدى المتفرجات،[٦] كما جرح كثير من المتفرجين بسبب تناثر عظام الخيول الموجودة في مكان الحادث، وسقط فخذ حصان أمام المكان المخصص للسفراء كما تحطم زجاج ساعة برج القصر، وفتحت فتحات كبيرة في أعلى الجامع، وتحطم زجاج نوافذه مما أدى إلى جرح الكثيرين، كما تضرر داخلُ المسجد بشكل كبير".[٧]

يقول رئيس الكتاب "تَحسين باشا" في مذكراته بعد شرح الحادثة: "ماذا شعر السلطان آنذاك؟ لا أستطيع الإجابة على هذا السؤال، ولكن لا يستطيع أحد الإنكار بأنه أبدى شجاعة خارقة... ولم يُظهر أي نوع من أنواع الانفعال، أو الخوف، واكتفى بسؤال: ماذا هناك؟. وعندما اقترب من عربته ورأى الاضطراب والهلع هتف بهم بصوته الجهوري: "لا تخافوا!.. لا تخافوا!".[٨]

وقد نظم أمير الشعراء أحمد شوقي قصيدة،[٩] مهنّئا الخليفة الذي نجا من الموت بعد إلقاء قذيفة عليه، في سبتمبر ١٩٠٥م، قال فيها: نَجاة

هنيئًا أميرَ المؤمنين، فإنما
نجاتك للدين الحنيف نجاةُ
هنيئًا لطه، والكتابِ، وأمةٍ
بقاؤك إبقاءٌ لها وحياة
أخذتَ على الأقدار عهدًا ومَوثقًا
فلستَ الذي ترقى إليه أذاةُ
ومَن يك في بُرد النبي وثوبه
تجُزْه إلى أعدائه الرَّمَياتُ
يكاد يسير البيتُ شكرًا لربّه
إليك، ويسعى هاتفًا عرفاتُ
وتستوهبُ الصفحَ المساجدُ خُشّعًا
وتبسُط راحَ التوبةِ الجُمُعاتُ
وتَستَغفِرُ الأَرضُ الخَصيبُ وَما جَنَتْ
وَلَكِن سَقاها قاتِلونَ جُناةُ
وَتُثني مِنَ الجَرحَى عَلَيكَ جِراحُهُمْ

وَتَـأتي مِـنَ القَتلى لَـكَ الـدَعَـواتُ
ضَحِكتَ مِـنَ الأَهـوالِ ثُـمَّ بَكَيتَهُمْ
بِـدَمـعٍ جَـرَت في إِثـرِهِ الرَحَـماتُ
تُـثـابُ بِـغـالـيـهِ وَتُـجـزى بِـطُـهـرِهِ
إِلـى البَعـثِ أَشْـلاءٌ لَـهُـمْ وَرُفـاتُ
وَمـا كُـنتَ تُحييهِمْ فَكِلهُمْ لِرَبِّهِمْ
فَـمـا مـاتَ قَـومٌ في سَبيلِكَ ماتوا
رمَتهم بسَهم الغدر عند صلاتهم
عـصـابـةُ شـــرٍّ لـلـصـلاة عُـــداةُ
تَـبـــرَّأ عـيـسـى مـنـهـمُ وصِـحـابِـه
أأتـبـاعُ عيسى ذي الحَنان جُفاةُ؟
يُـعـادونَ دِيـنًـا، لا يـعـادون دَولـةً
لـقَـد كـذِبَـت دَعـوى لـهـم وشَـكـاةُ
وَلا خَيرَ في الدُنيا وَلا في حُقوقِها
إِذا قـيـلَ طُـلّابُ الـحُـقـوقِ بُـغـاةُ
بـأي فـؤادٍ تَلتقي الـهَـولَ ثابتًا
ومـا لـقـلـوب الـعـالَـمِـيـن ثـبـاتُ؟
إِذا زُلزلت من حولك الأرضُ، رادَها
وَقـــارُك حـتـى تَـسـكُـن الـجـنـبـاتُ
وَإِن خَـرَجَـت نـارٌ فَـكـانَـت جَهَنَّمًا
تُـغَـذَّى بِـأَجـسـادِ الـــوَرى وَتُـقـاتُ
وَتَـــرتَـــجُّ مِـنـهـا لُـجَّـةٌ وَمَـديـنَـةٌ
وَتَـصـلـى نَـــواحٍ حَـرَّهـا وَجِـهـاتُ
تَمَشَّيتَ في بُـردِ الخَليلِ فَخُضتَها
سَـلامًـا وَبَـــرْدًا حَـولَـكَ الـغَـمَـراتُ

وَسِرتَ وَمِلءُ الأَرضِ حولَك أَدرُعٌ
وَدِرعُــكَ قَـلـبٌ خـاشِـعٌ وَصَـلاةُ
ضَحوكًا وَأَصنافُ المَنايا عَوابِسٌ
وَقــورًا وَأَنــواعُ الـحُتوفِ طُغاةُ
يَحوطُكَ إِن خانَ الحُماةَ انتِباهُهُمْ
مَـلائِـكُ مِـن عِـنـدِ الإِلَــهِ حُـمـاةُ
تُشيرُ بِـوَجـهٍ أَحــمَــدِيٍّ مُـنَـوِّرٍ
عُـيـونُ الـبَـرايـا فـيـهِ مُـنـحَـسِراتُ
يُحَيّي الرَّعايا وَالقَضاءُ مُهَلِّلٌ
يُـحَـيّـيـهِ وَالأَقــــدارُ مُـعـتَـذِراتُ
نَـجـاتُـكَ نُـعـمـى لِـلإِلَـهِ سَـنِـيَّـةٌ
لَـهـا فـيـكَ شُـكـرٌ واجِــبٌ وَزَكــاةُ
فَـصَـيِّـرْ أَمـيـرَ الـمُـؤمِـنـيـنَ ثَـنـاءَهـا
مَـآثِـرَ تُـحْـيِـي الأَرضَ وَهْـيَ مَـواتُ
إِذا لَـم يَفُتنا مِـن وُجــودِكَ فـائِـتٌ
فَـلَـيـسَ لآمــالِ الـنُـفـوسِ فَــواتُ
بَـلَـونـاكَ يَـقـظـانَ الـصَّــوارِمِ وَالقَـنـا
إِذا ضَـيَّـعَ الـصـيـدَ الـمُـلـوكُ سُـبـاتُ
سَـهِـرتَ وَلَـذَّ الـنَّـومُ وَهْــوَ مَـنِـيَّـةٌ
رَعـايـا تَـوَلاّهـا الـهَـوى وَرُعــاةُ
فَـلَـولاكَ مُـلكُ الـمُسلِمينَ مُضَيَّعٌ
وَلَــولاكَ شَـمـلُ الـمُسلِمينَ شَتاتُ
لَـقَـد ذَهَـبَـت رايـاتُـهُـمْ غَـيـرَ رايَـةٍ
لَـهـا النَـصـرُ وَسْــمٌ وَالـفُـتـوحُ شِـيـاتُ
تَـظَـلُّ عَـلـى الأَيّــامِ غَــرّاءَ حُــرَّةً

مُحَجَّلَةً في ظِلِّها الغَزَواتُ
حَنيفِيَّةٌ قَد عَزَّها وَأَعَزَّها
ثَلاثونَ مَلْكًا فاتِحونَ غُزاةُ
حَماها وَأَسماها عَلى الدَّهرِ مِنهُمُ
مُلوكٌ عَلى أَملاكِهِ سَرَواتُ
غَمائِمُ في مَحْلِ السِّنينِ هَواطِلٌ
مَصابيحُ في لَيلِ الشُّكوكِ هُداةُ
تَهادَت سَلامًا في ذَراكَ مَطيفَةً
لَها رَغَباتُ الخَلقِ وَالرَّهَباتُ
تَموتُ سِباعُ الجَوِّ غَرثى حِيالَها
وَتَحيا نُفوسُ الخَلقِ وَالمُهَجاتُ
سَنَنتَ اعتِدالَ الدَّهرِ في أَمرِ أَهلِهِ
فَباتَ رَضِيًّا في ذَراكَ وَباتوا
فَأَنتَ غَمامٌ وَالزَّمانُ خَميلَةٌ
وَأَنتَ سِنانٌ وَالزَّمانُ قَناةُ
وَأَنتَ مِلاكُ السِّلمِ إِنْ مادَ رُكنُهُ
وَأَشفَقَ قُوّامٌ عَلَيهِ ثِقاتُ
أَكانَ لِهَذا الأَمرِ غَيرُكَ صالِحٌ
وَقَد هَوَّنَتهُ عِندَكَ السَّنَواتُ
وَمَن يَسُسِ الدُّنيا ثَلاثينَ حِجَّةً
تُعِنهُ عَلَيها حِكمَةٌ وَأَناةُ
مَلَكتَ أَميرَ المُؤمِنينَ ابنَ هانِئٍ
بِفَضلٍ لَهُ الأَلبابُ مُمتَلَكاتُ
وَمازِلتُ حَسّانَ المَقامِ وَلَم تَزَل
تَليني وَتَسري مِنكَ لِي النَّفَحاتُ

زَهِدتُ الَّذي في راحَتَيكَ وَشاقَني
جَوائِزُ عِندَ اللهِ مُبتَغَياتُ
وَمَن كانَ مِثلي أَحمَدَ الوَقتِ لَم تَجُز
عَلَيهِ وَلَو مِن مِثلِكَ الصَّدَقاتُ
وَلي دُرَرُ الأَخلاقِ في المَدحِ وَالهَوى
وَلِلمُتَنَبّي دُرَّةٌ وَحَصاةُ
نَجَت أُمَّةٌ لَمّا نَجَوتَ وَدُورِكَتْ
بِلادٌ وَطالَت لِلسَريرِ حَياةُ
وَصينَ جَلالُ المُلكِ وَامتَدَّ عِزُّهُ
وَدامَ عَلَيهِ الحُسنُ وَالحَسَناتُ
وَأُمِّنَ في شَرقِ البِلادِ وَغَربِها
يَتامى عَلى أَقواتِهِم وَعُفاةُ
سَلامِيَ عَن هَذا المَقامِ مُقَصِّرٌ
عَلَيكَ سَلامُ اللهِ وَالبَرَكاتُ

الهوامش

(١) جمع خان: وهي البنايات التي كانت تستعمل كفنادق آنذاك.

(2) İzahlı Osmanlı Tarihi Kronolojisi, s.331.

(٣) بشكتاش: منطقة في إسطنبول مشرفة على البسفور.

(4) Ulu Hakan Abdülhamid Han, s.311.

(5) Belgelerle Sultan Abdulhamid, s.117-124.

(٦) كانت هناك أمكنة مخصصة للزوار وللأجانب وللسفراء، يشاهدون منها مراسيم صلاة الجمعة أي ما كان يسمى آنذاك بمراسيم الـ"سلاملك".

(7) Büyük Türkiye Tarihi, 7/191-192.

(8) İzahlı Osmanlı Tarihi Kronolojisi, s.349.

(٩) الشوقيات، لأحمد شوقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١/٨٠-٨٢.

سيادة القانون في الدولة العثمانية(*)

تمايزت أنماط الدول منذ العصور القديمة وفقًا لتأثير عوامل الدين والتقاليد والثقافات والجغرافية والاقتصاد وغيرها، ومنذ القرن التاسع عشر بدأت الدول التقليدية كالملَكِيَّات والسلْطَنات تترك مكانها للدول البيروقراطية العصرية كالدول الشمولية أو الدول الشعبية المركزية.

وأيًّا ما تكون الدول تقليدية أم عصرية، وأيًّا ما تكون أنماطها وأشكالها، فإن سيادة القانون ومبدأ العدالة مقابل المزاجية والظلم، يشكلان دومًا أهمَّ عنصرين حاكمين في إدارة الدول.

وفيما يتعلق بالدولة العثمانية، فقد ظهرت تعريفات وتصنيفات كثيرة لنظامها. فقد عرف بعض الباحثين كـ"فؤاد كوبرولي" وعمر لطفي بَرْقان الدولةَ العثمانيةَ بأنها "دولة علمانية عصرية"، وأن الدساتير (قانون نامة) العثمانية التي تغطي الجوانب القانونية والإدارية للدولة قد وُضعت في ظل مقاربة وفَهْم عصريّيْن.

(*) **حسين أوزدمير** [كاتب وباحث تركي]. الترجمة عن التركية: **مصطفى حمزة**.

وعلى النقيض منهما يُصنف أحمد أَقْ كونْدوز -وهو باحث في الحقوق الإسلامية ومؤلف كتاب الدساتير العثمانية (*Osmanlı Kanunnameleri*)- الدولةَ العثمانية كدولة إسلامية، فالحقوق العرفية العثمانية عنده، متمِّمة للحقوق الشرعية، وجميع القوانين العثمانية خرجت من مصفاة شرعية لا تخالف الدين، فالخليفة أو السلطان مسؤول أمام الله، ومكلف بالخضوع لأحكام القرآن والسنة.

وهناك مقاربة أخرى تقف بين التقييمين السابقين، وتستند إلى مفهوم صاغه صَدْري مَقْصودي أَرْسال؛ حيث ترى أن نظام الحكم في الدولة العثمانية هو نظام "نصف ثيوقراطي"، وأن معظم الدول الكبرى التي نشأت في تلك الفترة من التاريخ هي دول نصف ثيوقراطية. فللدين تأثير هام في هذا النمط من أنظمة الحكم، حيث تكون البيروقراطية الدينية وبيروقراطية الحكم في حالة توازن داخل الدولة، ونظام الحكم في الدولة العثمانية يمكن فهمه وتصنيفه في هذا الإطار.

من جهته، يرى "ماكس ويبر" أن أنظمة كافة الدول التي كانت قائمة قبل القرن العشرين الميلادي هي أنظمة دول تقليدية من الوجهة التاريخية والاقتصادية والاجتماعية، ويزعم بأنها كانت تقوم على الحكم الملكي الوراثي، ويُقوِّم بالتالي نظام الدولة العثمانية في إطار التصنيف التقليدي، ويعتمد كثير من المؤرخين على وجهة النظر هذه في مقارباتهم للدولة العثمانية.

شكل ملكي ومضمون ديمقراطي

إن الدولة العثمانية كان لها في الواقع نظام حكمها الخاص بها، وهو الذي يمكن أن نصفه بـ"النمط العثماني".

فالسلاطين العثمانيون مارسوا حكمهم بما يملكونه من صلاحيات التشريع (سن القوانين) والتنفيذ والقضاء في ظل سيادة الحقوق والقوانين، ولكن ليس على النمط الملكي المعروف أوروبيًّا في ذلك العهد.

فالعبارات التي تضمنتها وثائق الحقوق العرفية العثمانية -كالحقوق الإدارية والحقوق العسكرية- وردت في القوانين التي جرى سَنُّها كالنص على أن "تراعى مصالحُ عباد الله على أنها مصالح شرعية وقانونية"، هذه العبارات لم تُهمل أو تتجاهل الدين، بل شُرّعت في ظل تكامل بين الحقوق العرفية والحقوق الشرعية، واكتسبت ماهيّتها من هذا التكامل.

ويمكن القول بأن النظام السياسي في هذه الدولة وإن اتخذ الشكل الملَكيَّ في الحكم، إلا أنه تجلت فيه كل الممارسات التي نراها في الديموقراطيات: فكل مواطنٍ يمكنه أن يرتقي إلى كل مقام دون مقام السلطان، وله حقوقه الكاملة في الشكوى والتقاضي والتظلم، وتقديم العرائض بمطالبه كلها، كما تجلت في هذا النظام أيضًا، بعض الممارسات الإقطاعية أو الأرستقراطية، كالأوقاف وما يشبهها من المؤسسات التي كان لها تأثيرها الفعال في الحياة الاجتماعية في الفترة العثمانية طيلة ستة قرون.

وتسلّطُ بعض الآغوات والبيكوات في مرحلة التأسيس، وبعض الأعيان والولاة في عهود التخلف للدولة، وقدرتهم على التأثير في نظام الحكم، يمكن أن يُنظر إليها كممارسات إقطاعية ظهرت في مراحل ضعف السلطة المركزية.

وهـذا مـا يجعلنا نمنح بعض الحق لمن يقيّم بنية الدولة على أنها نصـف ثيوقراطيـة، لأن دخـول البيروقراطية الدينيـة ضمن المكونات الأعـم التـي شـكلت بيروقراطية النظـام من خلال الخدمـات العلمية كالحقـوق والتعليـم ومـا يشـبهها، والصلاحيات المطلقـة للقضاة في القضاء.. كل ذلك يبدو لنا تجسيدًا لنظام نصف ثيوقراطي.

وإذا كان ينبغـي تقويـم مـا ورد أعـلاه من التصنيفـات والتعريفات للدولـة العثمانيـة فـي ضـوء الوثائق، فإن هـذه الدولـة لا ينطبق عليها بشكل تام، أي نمط من أنماط أنظمة الحكم الواردة أعلاه بشكل تام، فينبغي تحليل "النمط العثماني" في الحكم انطلاقًا من مقاربات كثيرة كالدين والحقوق والتاريخ والسياسة وغيرها.

ونتنـاول بالبحـث هنـا مفهوم العدالة وسـيادة القانـون؛ المفهومان اللذان يشكلان أرضية المبادئ التي جعلت من الدولة العثمانية ذات طبيعـة عالميـة، واللـذان ينبغي توفرهما في أي نظام مهما كان شـكل الدولة وعصرها.

الحس القانوني وسيادة القانون

بعـد أبحاثـه فـي الأرشـيف العثماني طيلة اثني عشـر عامًا، توصل الباحـث "أ. حقـي أوزون جارشـيلي" المعروف بطول باعه في مجال البحـث التاريخـي، إلـى أن كثيـرًا من الأجانـب كـ"هَمَـرَ" (*Hammar*) وغيـره مـن الباحثين فـي التاريـخ العثماني ربما كانـوا يحملون أفكارًا خاطئـة عـن هـذا التاريـخ، مسـجلًا هـذه المعلومـات المهمـة: "كنت أعتبـر نفسـي مطلعًـا علـى التاريـخ العثمانـي وخبيـرًا بـه إلـى درجـة

كافية قبل البحث في الدساتير العثمانية؛ غير أني بعد الخوض في تلك الدساتير ووثائقها أدركت مدى ضحالة معلوماتي وسطحية رؤيتي لهذا التاريخ، وتبين لي مدى قوة هذه الدولة الأطول عمرًا بعد الإمبراطورية الرومانية والتي تمددت إلى ثلاث قارات، كما أدركت سبب عدم تمزقها وتلاشيها في زمن قصير -مثلما كان حال الإمبراطوريات السلجوقية والمغولية والتيمورية- بالرغم من تعرضها للصدمات الكثيرة في مرحلة انحطاطها، وتمكّنها من الوقوف على قدميها رغم ابتلاع أراضيها قطعة قطعة.

فهذه القوانين التي بلغت من القوة مبلغ العقيدة والإيمان، وتطبيقُها بشكل أو آخر حتى في مراحل ضعفها، وانتقالُها من جيل إلى جيل، واستمرارُها بالعَنْعَنَة كنصوص مقدسة، ورؤيةُ الأمة التركية نفسَها في موقع القيادة في كل حين، كلُّ ذلك مَكّنها من إنقاذ نفسها، أي إنقاذ الجامعة الإسلامية من التمزق والانحلال".

سر قوة العثمانيين

إن القوانين والممارسات التي كانت سائدة حتى عهد السلطان محمد الفاتح في شكل تقاليد وأعراف، أصبحت مجموعة ومدوّنة اعتبارًا من هذا العصر، والدستور (قانون نامه) العثماني في عهد السلطان سليمان القانوني الذي يحوي "دستور التشكيلات" من عهد الفاتح والأحكام الحقوقية بشكل أعم وأكثر انتظامًا، كان واحدًا من أهم الدساتير العامة.

لـم تصـدر الدسـاتير العثمانيـة مـن مجلـس واحـد كما هـو الحال اليـوم، غيـر أن إعدادهـا كان يتـم بصورة أشـمل من خـلال إجراءات قانونيـة معينـة، فمشـاريـع القوانيـن التـي يعدهـا مسـؤول الفرمانـات (نيشـانجي) يعرضهـا علـى الديـوان الهمايونـي الـذي يعتبـر مجلـس الشـورى -وهـو بالطبـع عضـو فيه- وبعـد النظر فيها والتشـاور تُقدَّم للصدر الأعظم، فيعرضها بدوره على السلطان، وبعد التصديق عليها تأخذ اسم القانون والفرمان.

وقـد تحـدّث كاتـب هولنـدي من غير المسـلمين عـن صلاحيات السـلطان وسـيادة القانـون فـي الدولـة العثمانيـة فقـال: "إن القوانيـن الإسـلامية فـي الفكـر الأوروبي، هـي عبارة عن أوامـر كيفية مزاجية. فالشـريعة المحمديـة بحسـب الأفـكار الشـائعة فـي أوروبـا، أعطـت لشـخص السـلطان التفـرد فيمـا يشـاء مـن الأفعـال والتصرفـات، أي الصلاحية المطلقة، وجعلت إرادة السلطان الكيفيةُ بديلة عن القانون، فهـو يَسُـنُّ القوانيـن كمـا يشـاء... غير أن ذلك كله بهتـان عظيم إذا ما قورن بالحقيقة".

إن الدسـتور العالـي العثمانـي الـذي تـم تدويـن محتـواه وإقـراره كقانون للتشـكيلات في عهد الفاتح، بقي -بتعديلات بسـيطة- مُطبّقًا حتـى عهـد التنظيمـات. هـذا الدسـتور الذي يبـدأ بهذه العبـارة: "هذا الدسـتور هـو قانونـي كمـا كان قانـون آبائـي وأجدادي، وقـد عمل به الأبنـاء الكـرام جيلًا بعد جيل"؛ يتناول مراتب الأعيان الكبار وأصولَ وقواعـد التشـريفات "الألقـاب" وتشـكيلات رجـال الدولـة، ومهـامَّ

الموظفين من رجال القصر، وأحكامَ وعقوبات المخالفات والجرائم التي يرتكبها أركان الدولة، ويؤكد على أهمية عدم الاكتفاء بإصدار القوانين، بل ينبغي أن تكون أيضًا موضع التطبيق الجاد، وأن تشيع ثقافة القانون والثقة به بين الناس.

وقد أكد كل من "مصطفى لي" في القرن السادس عشر، و"كوبي بك" في القرن السابع عشر -وكان لكل منهما موقعه المهم في الترتيب البيروقراطي- بعد بيانهما متانة القوانين القديمة وكمالها؛ أنه عندما يُظهر جميعُ الناس خضوعهم للقانون، يمكن للحكومة أن تقوم بكل خدماتها على أكمل وجه.

وهذا يعني أن نظام الدولة العثمانية ليس نابعًا من الممارسات المزاجية والعلاقات الشخصية، بل من بنية بيروقراطية مشكلة في إطار احترام القوانين.

ويعزز هذا الطرح ما ذهب إليه خليل إِنالْجِكْ -الباحث المحلل في النمط السياسي العثماني- حيث يقول: "إضافة إلى أن مشهد الجهاز البيروقراطي العثماني في القرن السادس عشر، يسمح لنا أن نصوّب -ولو جزئيًّا- الصورة التي يعرضها "ويبر" (*Weber*). فالجهاز البيروقراطي في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م)، لا يمكن النظر إليه كمجرد جزء مُلْحَقٍ بباب الحاكم فقط، والدواوين لم تكن خاضعة للعلاقات الشخصية والتبعية المطلقة للحاكم.

وفي بحث ميداني، نجد أن البيروقراطية العثمانية التي كانت تعمل نسبيًّا في نظام عقلاني، مكوّن من بنية تراثية صرفة قائمة على القواعد والأصول قد تطورت تدريجيًّا إلى نظام إدارات الحكم الذاتي".

يتبين لنا من كل ذلك أن البنية المَلكيّة التقليدية التي تصورها "ماكس ويبر" لنظام الحكم العثماني لم تكن تنطبق تمامًا عليه.

مبدأ العدالة في نظام الحكم العثماني

يأتي مبدأ العدالة في مقدمة أهم الخصائص التي تميز نظام الدولة العثمانية، ولقد قال "جان جاك روسو": "إن القوانين تؤمِّن العدالةَ، وعلى الرغم من أن الله هو أصلُ العدالة ومنبعُها، فإن وجود القوانين ضرورية للحكومات".

واكتسب السلاطين العثمانيون مشروعيتهم من خلال تطبيقهم أحكام القرآن والسنة، والعدالة واحدة من القواعد الأساسية الأربعة للقرآن، ولذلك وضع السلاطين أنفسهم في منزلة "الأفراد" وتمسكوا بسيادة القانون، ورأوا في "الرعايا" أمانة وضعها الله في أعناقهم، وأن وظيفة السلطان تكمن في حماية هؤلاء الرعايا ورفع الظلم عنهم.

ووظيفة (الحَلِّ والعَقْدِ) التي أنيطت بالحاكم تتمثل في تأمين جميع العلاقات بين الرعايا على أساس العدل بينهم، وقد قام قضاة الدولة العثمانية بتجسيد هذه الوظيفة من خلال نظام قضائيّ يشمل الإمبراطورية كلها، ومارسوا عملهم كقضاةٍ محكمة عليا إلى جانب وظائفهم الأخرى في الديوان الهمايوني.

نظام سياسي تفوق على أوروبا الإقطاعية

وقد أثار "ليبر" (*Lyber*) في كتابه، الانتباه إلى أهمية العدالة عند العثمانيين بهذه العبارات الموجزة: "إن السبب الذي كان يمنح

الحكم العثماني قوَّتَه ويحمي دولتَه من الزوال، يكمن في المحاسبة السريعة والأكيدة للمذنبين، وتحقيقِ العدالةِ بشكل سريع وفعال.

فالمحاكم العثمانية يمكن القول بعدالتها، كما يمكن التأكيد بأن السلطان سليمان القانوني لم يأمر بإعدام أحد قبل محاكمته.. وقد تأثر بعض المراقبين الغربيين بالعدالة العثمانية التي تفوق عدالتهم في بلدانهم.. تأثروا بهذه العدالة التي تشتهر في الدولة شهرةَ النظام الصارم في الجيش، وشهرةَ نظامِ الترفيع في تسلسل الوظائف، والذي يستند إلى الأهلية والجدارة والخبرة في خدمات الدول العثمانية".

ولئن وقعت بعض الانتهاكات للقانون في القرون الستة من عمر الدولة العثمانية، فإنما تكون قد وقعت في الإجراءات والتطبيق، كما يمكن أن يحدث اليوم من المخالفات باسم القانون. غير أن الاستثناءات لا تنقض القواعد، والقانون والعدالة أصلان في الدولة العثمانية.

ومن هذا الباب يمكن القول بأن الدولة العثمانية وإن كانت ملَكيَّة من الناحية السياسية، فإنها لا تنسجم مع الملكية الوراثية كونها نظامًا سياسيًّا أكثر تطورًا من الدول الإقطاعية التي كانت سائدة في الغرب، فلا أحد كان يملك -لا السلطان ولا غيره من حكام المناطق والأرياف- حق إصدار الأحكام الجزائية والمحاكمة.

في المقابل، هذا الحق كان يملكه الأسياد الإقطاعيون في الغرب؛ فكانوا على النقيض من مركزية وسلطان القضاء في النظام العثماني، حيث لم يكن يملك الحكام المحليون في هذا النظام -حتى في

القرن الثامن عشر- صلاحية المحاكمة، وهو ما يشكل علامة فارقة له عن النظام الإقطاعي الملكي، فبينما كان الإقطاعيون واللوردات في النظام الإقطاعي الذي كان سائدًا في أوروبا، يملكون حق التصرف مع رعاياهم وكأنهم قطعان من الأسرى من جملة الممتلكات أو الحيوانات.. لم يكن الولاة وأمراء السناجق وأمراء الإقطاعيات السلطانية (سيباهي)، يملكون سوى إدارة رعاياهم في ظل الحقوق والقوانين، فليس لهم حق المحاكمات وإصدار العقوبات على هواهم.

لقد عرف "ماكس ويبر" جميع الدول التقليدية على أنها دول ملكية وراثية، وقوَّم الدولة العثمانية ضمن هذا الإطار.

ففي الأنظمة الوراثية تكون العلاقات الشخصية هي الفيصل والحكم وليست سيادة الحقوق والقوانين، ويطلق عليها "كارتر ف. فيندلي" لقب "حكم العائلة الموسعة أو الكبيرة".. فالملك أو السلطان في أنظمة الدول الوراثية يقوم بدور الأب في عائلته -يتصرف كيفما يشاء- والموظفون في الدولة خدم أو عبيد له.

وهذا المفهوم للدولة الملكية الوراثية التي خرجت من رحم النظام الإقطاعي الأوروبي؛ لا ينطبق على النظام العثماني.

وكما سبق أنْ أوضحنا في هذا البحث -وهو ما أكده أوزون جارشيلي وخليل إنالجيك- فإن السلطات التي تعاقبت على الدولة العثمانية مارست حكمها بالقوانين من خلال تنظيم بيروقراطي عقلاني نسبيًّا.

وفي هذا الصدد، أشار أيضًا حقوقي هولندي نقلًا عن باحث أمريكي، إلى أن الدولة العثمانية كانت تمتلك نظامًا حقوقيًّا ومفهومًا للعدالة أرقى من دول أخرى.

وما من شك كما أسلفنا في وقوع حالات ظلم في بعض مناطق الإمبراطورية التي امتدت لحقبة طويلة بلغت ستة قرون على بقعة جغرافية واسعة، وضمت في بنيتها شعوبًا وأديانًا كثيرة، غير أنه على العموم روعِيَت القوانين التي ارتقت إلى درجة الإيمان بها في الإمبراطورية العثمانية منذ قيامها وحتى سقوطها، وسادت حاكمية العدالة حتى أقصى بقاعها من خلال نظام حقوقي مركزي.

بصمات عثمانية على الأقصى الشريف(*)

القدس، أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين بعد مكة المكرمة والمدينة المنورة. مسرح النبوات وزهرة المدائن وموضع أنظار البشر منذ أقدم العصور.

تاريخ بناء القدس يعود إلى اسم بانيها وهو إيلياء بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام -إيلياء أحد أسماء القدس- وقيل إن "مليك صادق" أحد ملوك اليبوسيين -وهم أشهر قبائل الكنعانيين- أول من اختط وبنى مدينة القدس وذلك سنة (٣٠٠٠ ق.م) والتي سميت بـ"يبوس". وقد عرف "مليك صادق" بالتقوى وحب السلام حتى أُطلق عليه "ملك السلام"، ومن هنا جاء اسم مدينة "سالم" أو "شالم" أو "أور شالم" بمعنى دع شالم يؤسس، أو مدينة سالم.

وبالتالي فإن أورشليم كان اسمًا معروفا وموجودا قبل أن يغتصب الإسرائيليون هذه المدينة من أيدي أصحابها اليبوسيين. وسماها الإسرائيليون أيضا "صهيون" نسبة لجبل في فلسطين، وقد غلب على المدينة اسم "القدس".

(*) **أحمد مروات** [باحث متخصص بالتاريخ العثماني/فلسطين].

الدور التمهيدي في العمارة العثمانية

وقسَّم العلماء تاريخ العمارة الإسلامية العثمانية إلى أدوار واضحة المعالم أعقبت الدور التمهيدي الذي يعُمّ الفترة الزمنية السابقة على أيام السلطان "أورخان" الذي تسلطن (١٣٢٥م). ويشمل الدور التمهيدي المنشآت التي أنشأها الأمير "أَرطغرل بن سليمان شاه" (١١٩٨-١٢٨١)، حيث امتدت في زمنه رقعة الإمارة العثمانية بالفتوحات من مدينة "أَسْكِيشَهِر" إلى "كُوتَاهْيا"، وبعد وفاته حكم الإمارة ابنه عثمان الأول (١٢٥٨-١٣٢٦)، حيث اتخذ من المدينة الجديدة "يَنِي شَهِرْ" عاصمة للدولة العثمانية.

وتطورت العمارة الإسلامية العثمانية في "يني شهر"، ثم مرّت بأدوار عدة فشكل عهد أرطغرل وخليفته عثمان الأول مرحلة الدور المعماري العثماني التمهيدي الذي استمر حتى نهاية عهد عثمان الأول.

وبعد وفاة السلطان عثمان الأول خلفه ولده السلطان "أورخان". فبدأ دور معماري جديد، فتطورت العمارة الإسلامية العثمانية حين فُتحت مدينة "بورصة"، فاتخذها السلطان أورخان عاصمة للدولة العثمانية بعد العاصمة الأولى في مدينة "يني شهر"، ثم فتح السلطان أورخان مدينة "إِزْنيك" المسماة "نيقيا المقدسة" عند الروم، واستطاع السيطرة على سواحل البحر الأسود وبحر مرمرة.

ومع امتداد السلطنة العثمانية إلى المدن المفتوحة اتسع نطاق العمارة الإسلامية، وازدهرت فنونها، وأصبحت مدينة بورصة نموذجًا رائعًا للمدينة الإسلامية بكل مكوناتها المتطورة، وبعدما

حقق السلطان أورخان انتصاراته في آسيا، قرر التوجه غربًا نحو أوروبا لمتابعة الفتوحات، ونشر الحضارة الإسلامية بكل ما فيها من حسنات تحقق المصالح الإنسانية وتدفع المفاسد، حيث حقق آماله بفتح مدن الضفة الغربية لمضيق الدردنيل الذي يصل بين بحر مرمرة شمالا وبحر إيجة جنوبا.

القدس في ظل الدولة العثمانية

أبدى العثمانيون عناية فائقة بتطوير مدينة القدس، ابتداء بالتعميرات الضخمة التي أنجزها السلطان سليمان القانوني وانتهاء بالمباني التي شُيدت في عصر السلطان عبد الحميد الثاني.

ورغم محاولات بعض المؤرخين طمس هذه الحقيقة فإنّ تلك المنشآت ما زالت قائمة حتى اليوم.

إن أقدم معلم تاريخي في القدس الشريف هو أسوار المدينة التاريخية التي تم بناؤها من قبل السلطان سليمان القانوني عام (١٥٢٦م)، ويليها الأوقاف والمؤسسات الخيرية التي بنيت في أماكن مختلفة من القدس وأبرزها الوقف الخيري "خاصكي سلطان" أو "التكية"، وهي من أعظم المؤسسات الخيرية في القدس والتي قامت بإنشائها زوجة السلطان سليمان القانوني.

والتكية تقدم الطعام لفقراء القدس والمحتاجين إلى يومنا هذا، حيث تقع على طريق الواد وفي الزقاق الممتد بين خان الزيت وعقبة التكية حيث تكية خاصكي سلطان كما عرفها أهالي فلسطين والقدس من مئات السنين.

في أول شهر كانون الأول من عام (١٥١٧م) وصل السلطان العثماني سليم الأول أسوار القدس ولم تكن هناك مقاومة، وخرج العلماء للقاء السلطان وأهدوه مفاتيح الأقصى وقبة الصخرة، فقفز السلطان سليم من على فرسه وسجد سجدتين ثم قال: "الحمد لله الذي جعلني خادما لحرم أولى القبلتين".

وتعتبر فترة السلطان سليمان القانوني نجل السلطان سليم الأول، الفترة الذهبية بالنسبة لأسوار القدس، حيث أمر هذا السلطان بإعادة بناء أسوار المدينة من جديد.

وكانت تلك خطة طموحة استلزمت مهارة عالية ونفقات باهظة، ولم يقم العثمانيون ببناء استحكامات معقدة كتلك سوى في أماكن قليلة أخرى، وبلغ طول السور الذي ما زال موجودًا إلى الآن ميلين بارتفاع قرابة أربعين قدمًا. وأحاط المدينة إحاطة تامة وكان به أربعة وثلاثون برجًا وسبع بوابات، وحينما انتهى بناء السور عام (١٥٤١م) أصبحت القدس محصنة لأول مرة منذ أكثر من ثلاثمائة عام.

وأنفق سليمان القانوني أيضا مبالغ كبيرة في نظام المياه بالمدينة فبنيت ست نافورات جميلة وشقت القنوات والبحيرات، وتم تجديد بحيرة السلطان جنوب غربي المدينة وأصلحت قنواتها، وشهدت المدينة أزدهارًا جديدًا حيث تم تطوير الأسواق وتوسيعها.

وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر تم تحويل القدس إداريًا إلى متصرفية وضمت إليها "نابلس" و"غزة"، لزيادة عدد سكانها ولأهميتها الدينية، وكانت سلطة قاضي القدس ذات مدى متسع يشمل المناطق من غزة إلى حيفا.

لم يهمل السلطان سليمان الحرم فرممه بالفسيفساء خاصة الجزء الأعلى من الحائط الخارجي لقبة الصخرة وغلف الجزء الأسفل بالرخام، وتمت تغطية قبة السلسلة بزخارف جميلة. كما بنى سليمان القانوني نافورة بديعة للوضوء في الفناء الأمامي للمسجد الأقصى وكما أيد بناء أوقاف الحرم وبعض المدارس، وتنازل السلطان عن حقه في رسوم دخول الحجاج لصالح تمويل قراءة القرآن في قبة الصخرة لمدة عام واحد.

وأصبحت الأوقاف التي تم إصلاحها مصدر عمل ودخل للأعمال الخيرية، وأنشأت زوجة السلطان القانوني تكية في القدس عام (١٥٥١م)، ومجمعا كبيرًا يشمل مسجدًا ورباطًا ومدرسة وخانًا ومطبخًا يخدم طلبة العلم والمتصوفين والفقراء ويقدم لهم وجبات طعام مجانية، وقد شملت أوقاف التكية عدة قرى حتى وصلت منطقة رام الله.

فقد تم إعادة ترميم قبة الصخرة في عهد السلطان محمد الثالث والسلطان أحمد الأول والسلطان مصطفى الأول، وأصدر السلاطين فرمانات عديدة خاصة بالأماكن المقدسة.

وكان الباشاوات ملزمين بحفظ النظام في منطقة الحرم والتأكد من سلامة الأماكن الدينية ونظافتها، وكانت الوقف تستغل في عائدات أعمال الصيانة وكانت الحكومة أيضا على استعداد لاقتسام النفقات إذا استدعى الأمر.

وظلت المدينة في القرن السابع عشر تستحوذ على الإعجاب، وساد الأمن والسلام في كل أرجاء بلاد القدس الشريف.

وقد زار الرحالة التركي "أوليا جلبي" القدس عام (١٦٤٨م) ووجد -كما قال- أن هناك ثمانمائة إمام وواعظ يعملون في الحرم والمدارس المجاورة ويتقاضون مرتبات، وكان هناك أيضا خمسون مؤذنًا وعدد كبير من مرتلي القرآن الكريم، كما وجد أن الزائرين المسلمين ما زالوا يسيرون مواكبهم حول الحرم ويؤدون الصلاة في المواقع المختلفة.

وقال إن أروقة الحرم امتلأت بالدراويش من الهند وفارس وآسيا الصغرى، حيث كانوا يرتلون القرآن طوال الليل ويعقدون حلقات الذكر ويتغنون بأسماء الله الحسنى على ضوء مصابيح الزيت الوامضة المتواجدة على طول الممرات ذات الأعمدة، وبعد صلاة الفجر كانت تعقد حلقات الذكر مرة أخرى في مسجد المغاربة في الركن الجنوبي الغربي من الحرم، وكان هناك خمسمائة جندي تحت إمرة باشا القدس وكانت أهم مهامهم الرئيسية مرافقة قافلة الحج الذاهبة من دمشق إلى مكة المكرمة كل عام.

وقد نصّبت الدولة العثمانية على القدس حكامًا من أهلها مما زاد في الاهتمام بتعميرها وترميم ما تلف من مساجدها وخاصة المسجد الأقصى وقد تم تعيين أربعة مفتين.

وحافظت القدس في العهد العثماني على مكانتها المرموقة وظلت مركز جذب للمتصوفين والعلماء.

والجدير بالذكر أنه كان عدد العلماء في المدينة في القرن الثامن عشر أكبر من عددهم في القرن السابع عشر كما اقتنى بعض العلماء مكتبات خاصة مهمة.

القدس وفن العمارة الإسلامية

العمارة الإسلامية في القدس هي امتدادٌ للعمارة الإسلامية العثمانية، والعمارة العثمانية حلقة مهمة من حلقات العمارة الإسلامية عموما، وقد نشأت -زمنيًّا- مع الهجرة النبوية وبناء المسجد النبوي في المدينة المنورة، وتمتد حتى العصر الراهن، كما أن للعمارة الإسلامية امتدادًا جغرافيًّا واسعًا يمتد من بلاد الملايو والبنغال وتايلاند والفيليبين شرقًا إلى الأندلس غربًا وهذا الامتداد قديم.

وفي العصر الراهن تنتشر المنشآت الإسلامية في كافة أنحاء المعمورة. ولكن وجود بعض المنشآت لا ينمّ عن هوية إسلامية ما لم ترافقها العادات والأذواق والثقافات الإسلامية.

بدأ نشوء المدن الإسلامية ببناء المسجد وما يحيط به من مساكن ومنشآت؛ كالقلعة وسبيل الماء والحمام والقناطر والجسور والمدارس والبيمارستانات والخانات والأسواق.

أصبحت المدينة الإسلامية مميزة المعالم، واضحة الهوية بعد الهجرة النبوية، ثم تكاملت في عهود الخلفاء الراشدين، وازدهرت العمارة الإسلامية في عهد الأمويين حيث استفاد البناؤون المسلمون من التطور العمراني الرومي البيزنطي، وتجلى ذلك المزج بين الفنّ المعماري الإسلامي والفن المعماري البيزنطي في الجامع الأموي بمدينة دمشق، والجامع الأموي بمدينة حلب، وقبة الصخرة والمسجد الأقصى في القدس، ثم تطورت الفنون المعمارية الإسلامية في عهد العباسيين حيث انتشرت المدارس النظامية التي شيدها الوزير

نظام الملك السلجوقي، ثم شُيدت المدرسة المستنصرية في بغداد في بداية القرن السابع الهجري، فبلغت بغداد آنذاك درجة رفيعة معبرة عن محتويات العاصمة الإسلامية التي استفادت من المؤثرات المعمارية البيزنطية والساسانية والسلجوقية والهندية.

وبعد ذلك انتقلت عاصمة الخلافة العباسية إلى القاهرة التي أصبحت رمز العاصمة الإسلامية، واستمرت على تلك الحال حتى فتحها السلطان سليم الأول ونقل عاصمة الخلافة الإسلامية إلى مدينة إسطنبول سنة (١٥١٧م)؛ فتطور فن العمارة الإسلامية العثمانية حيث جمع بين فنون العمارة الإفريقية والآسيوية والأوروبية، وتطورت العمارة الإسلامية العثمانية في شكل متلازم مع تطور الدولة العثمانية واتسع نطاقها مع اتساع رقعة الدولة العثمانية.

ثقافة البيت العثماني(*)

إذا ما ألقينا نظرة شاملة إلى المنازل التي عاشت فيها الأسرة العثمانية، نجد معظمها تحتوي على فناء واسع في أحد أركانه، لأن هذه المنازل كانت بمثابة عالَم خاص لسكانها، أول ما يلفت الانتباه في هذه المنازل، هي الأسوار العالية المحيطة بها والخالية من النوافذ، وذلك لحفظ سكان المنزل من الأنظار، وتأمين راحتهم وسلامتهم في الداخل.

أما المدخل الوحيد في هذه المنازل، فيقع في الجهة المطلة على الشارع من السور، وعند تدقيق النظر في الباب الخارجي للمنازل العثمانية، نرى ثقافة تعكس مستوى الأخلاق، وتبين حسن الجوار، ومبادئ العرف والتقاليد لدى الشعب العثماني؛ فهذا الباب الذي يبلغ عرضه وكذلك ارتفاعه ٣-٣,٥٠ مترًا، مغطى بسقف صغير يقي الواقف أمامه من أشعة الشمس وقطرات المطر.

والجدير بالذكر أن الأبواب الخشبية هذه، تنقسم إلى ثلاثة أقسام؛ مصراعان كبيران، وباب صغير مفتوح في أحد هذين المصراعين.

(*) **ممتاز أيدين** [كاتب وباحث تركي]. الترجمة عن التركية: **نور الدين صواش**.

أما المصرعان الكبيران لا يتم فتحهما إلا عند خروج العربات ودخولها إلى فناء المنزل، كما يتم استخدام أحد هذين المصراعين، عند إخراج الحيوانات وإدخالها إلى الفناء، ويظل المصراع الآخر ثابتًا لا يُفتح، أما الباب الصغير المفتوح داخل المصراع المتحرك فهو خاص بالأشخاص، وهو باب ترتفع عتبته عن الأرض بـ٢٥-٣٠ سنتيمترًا، ولهذا الارتفاع فوائد عديدة منها منع الأطفال من الخروج من المنزل دون مراقبة.

وفي ضوء الأخلاق وحرمة المنزل لدى الأسرة العثمانية، كان الزائر لا يدخل المنزل إلا بعد إذن من صاحبه.

ومن الملفت للنظر في هذه المنازل أيضًا، مطرقات الأبواب، وهي -بلا شك- تبيّن مستوى الحضارة والأخلاق الذي وصلت إليه الدولة العثمانية في تلك الأيام؛ كانت المطرقة عبارة عن حلقتين من حديد متداخلة في بعضها البعض، أما الحلقة الكبيرة منهما فتصدر صوتًا خشنًا، والحلقة الصغيرة فصوتها أنعم من الكبيرة.. فإذا كان الزائر رجلًا دقّ الكبيرة فعلم أهل المنزل أنه رجل، أما إذا كان الزائر امرأة دق الحلقة الصغيرة فعلم أهل البيت أنها امرأة، وبذلك يتمكن مَن في الداخل مِن معرفة جنس الزائر، وبناء على ذلك يتم فتح الباب من قِبل النساء أو الرجال؛ وبالتالي يكون الدخول من الباب، إلى الفناء مباشرة وليس إلى غرف المنزل، وذلك لحفظ الحُرمة.

وفضلًا عن غرف المنزل، يوجد أيضًا في إحدى زوايا الفناء -وذلك وفقًا لحاجيات أهل المنزل- إسطبل، وتبّانة، وبيت لصناعة دبْس الفواكه، وورشة للحياكة والنسيج، وفيما تبقّى من المساحة،

يوجد تنّور للخبز، وصخرة لغسيل الملابس، وأشجار، وأزهار، وبئر ماء، إلى غيرها من الحاجيات الأساسية التي يحتاجها أصحاب المنزل.

ومن الأمور الجميلة في هذه المنازل أيضًا، تخصيص مساحة واسعة في فنائها لزرع الخضار، وبذلك يكون المنزل بكل أركانه عالمًا مثاليًا لسيدته؛ حيث تستنشق فيه الهواء النقي، وتروّح عن نفسها، وتعمل براحة بال، وتستضيف جيرانها في فنائه..

وقد تحدثت الرحالة "جوليا باردو" عن هذه الأفنية في ذكرياتها عن إسطنبول عام ١٨٣٥ فقالت: "ليت شكسبير رأى هذه الأفنية قبل أن يكتب مشهد الحديقة لمسرحية روميو وجولييت".

هذا وقد بني السكن في ركن مناسب من أركان الفناء على شكل طابق أو طابقين، وثمة معايير أساسية أُخذت بعين الاعتبار أثناء إنشاء البيت، أهمها تعيين القِبلة، ورعاية الحرمة لمنزل الجار وسلامته من الأنظار.. وأهمّ هذه الأمور لدى الأسرة العثمانية المسلمة هي القِبلة.. ليس من أجل العبادة فقط، بل كانت تراعى القِبلة حتى في النوم والجلوس، وتعتبر جزءًا لا غنى عنه في الحياة.

تطل واجهة المنزل -المكوّن من طابق أو طابقين- إلى الشارع كما ذكرنا آنفًا، أمّا الطابق السفلي فيحتوي على غرفة جلوس، ومطبخ، وبيت للمؤنة، وعنبر، وفرن لطهو الخبز.. ولم يكن لهذا الطابق نوافذ تطل على الشارع، وإن وُضعت فتكون صغيرة جدًّا؛ وذلك لحفظ سكانه من أنظار المارة وتأمين تحركهم بأريحية داخل المنزل.

أما الطابق الثاني فيتم الصعود إليه عن طريق سلّم، ويحتوي على صالة كبيرة تسمى "ديوان خانة"، وعلى جناح للحريم يسمى "حرملك"، وجناح للضيوف يسمى "سلاملك".

وكان يوجد في بعض المنازل صالة صيفية أيضًا؛ وبالتالي زوِّدت إحدى هذه الغرف التي تسمى "كوشك"، بمشربية تطل على الشارع، ولا شك أن هذه المشربيات، أضفتْ جمالًا على المنازل العثمانية، وصبغتْ الشوارع بلون متميز يسر الناظرين.. صُمّمت نوافذ هذه المشربيات بطريقة تمكِّن سكان المنزل من مشاهدة الخارج دون أن يراهم أحد، كما أتاحت لصاحب المنزل أن يعرف طارق الباب دون أن يُرى.

يوجد في كل غرفة مدفأة، وموقد للطبخ، وموقد للإنارة، وأهم ميزة لهذه الغرف، احتواؤها على حجرة تتكون من حمام في إحدى زواياها، ومن خزانات يوضع فيها الفرش والألحفة، والأغراض المنزلية.

ومما يجدر ذكره هنا، أنه لم يخصص في هذه المنازل غرف للجلوس أو للنوم أو للضيوف أو للأطفال كما في يومنا الحالي، بل كان سكان المنزل جميعهم يتناولون الطعام ويقضون ما تبقى من وقتهم في الغرفة نفسها، ثم إذا ما حل المساء بسطوا فرشهم وناموا في نفس الغرفة أيضًا، وفي الصباح يطوون الفرش ويواصلون حياتهم اليومية على نفس هذه الوتيرة..

كانت مفروشات المنازل العثمانية التراثية متواضعة للغاية، فبدلًا من الأثاث والأرائك التي نفرش بها منازلنا اليوم، كان يُجلس على المصاطب التي تبنى في كنار النوافذ، وغالبًا ما كان يُمدّ على الأرض بساط أو حصير، وأحيانًا سجادة مع طرّاحات على الأرض.

إذا أمعنا النظر في الطراز المعماري للمنازل العثمانية هذه؛ سنرى بوضوح تأثير الحياة الترحالية الرعَويّة؛ حيث أنشئت من مواد قصيرة العمر كالخشب، والطين، واللبِن، الأمر الذي يوحي بأن فكرة الهجرة والترحال لدى هؤلاء الناس حاضرة دائمًا.. ولعل هذا الأمر يعكس نظرة المجتمع العثماني إلى الحياة؛ فهم ينشئون منازلهم بمواد سريعة التفتت والاندثار، ولكنهم حين يقيمون المنشآت للدولة أو للأوقاف الخيرية أو يقيمون المساجد.. فإنهم يستعملون موادًا من الصخور والأحجار قويةً تبقى إلى ما شاء الله، وكأنهم يريدون بذلك أن يقولوا: إن منازلنا التي تمثلنا نحن البشر فانية، وإن المنشآت التي تمثل الدولة باقية.. بمعنى أننا نحن الفانون، والله هو الباقي..

واللافت للنظر أيضًا، أن هذه المنازل شبيهة ببعضها البعض بشكلها وطريقة عمارها، لذا يصعب تمييز منازل الأغنياء عن منازل الفقراء، وهذا -بدوره- يعكس لنا القيم المشتركة التي تبناها المجتمع العثماني، والتي لعبت دورًا كبيرًا في تقليل الفوارق بين طبقات المجتمع في الدولة العثمانية.

لم يكن اهتمام الشعب العثماني في منازلهم بالخضرة والنباتات فقط، بل كان للحيوانات أيضًا نصيب في ذلك؛ حيث كانوا يربّون الحيوانات في منازلهم للإفادة من لحومها وألبانها من جانب، ومن

جانب آخر يعتنون بالطيور التي تتخذ المداخن والسقوف مسكنًا لها؛ كطائر اللقلق، وطائر السنونو، بل كانوا يعتبرون هدم أعشاش الطيور هذه ذنبًا كبيرًا.

لا شك أن الاعتناء بداخل هذه المنازل أكثر من خارجها وثيق الصلة بهيكلة الأسرة الإسلامية.. فرغم انغلاق هذه المنازل على العالم الخارجي، فإنها كانت تلبي كل ما تحتاجه الأسر في تلك الآونة.

ولكن مع تحوّل الفهوم حول عالم المنزل، وتبدّل طراز العمارة والهندسة؛ بدأنا نبتعد عن تراث أجدادنا العريق هذا، الذي ركّز بالدرجة الأولى على الإنسان وإصلاحه وبالتالي سعى إلى تأمين راحته وسعادته.. ولكن رغم ذلك تبقى تلك المنازل التراثية واحدة من نماذج هندستنا المعمارية النبيلة، تذكرنا بماضينا العريق، وتدفعنا إلى بناء مستقبلنا المضيء.

دروس الحضرة السلطانية(*)

عندما كان السلاطين العثمانيون منذ قيام الدولة العثمانية ينتشرون في الأرض فاتحين، كانوا يولون اهتمامًا كبيرًا للأنشطة العلمية والثقافية، ففتحوا المدارس، واستقطبوا كبار علماء العصور المتتابعة إلى إسطنبول، وأنشأوا المكتبات، وهيأوا الأوساط التي تخرِّج العلماء وتنتج العلوم.

رتب السلاطين العثمانيون في قصورهم مجالس العلم يتعرفون من خلالها إلى دنيا العلوم، ويظهرون بها احترامهم للعلماء... وبفضل هذه المجالس، تهيأت أرضية حوار جميل بين العلماء والسلاطين، وعلى هذه الأرضية قامت مشروعات إيجابية عظيمة على مستوى الدولة.

فقد أمر السلطان محمد الفاتح -على سبيل المثال- بإنشاء مدارس "الصحن الثماني" -وهي ثمانية مدارس، أربعةٌ في شمال جامع الفاتح، وأربعةٌ في جنوبه- ينتسب إليه الطلاب بعد إتمامهم المراحل الابتدائية والمتوسطة والمرحلة التحضيرية؛ فهي بمثابة التعليم العالي والجامعات في يومنا الحالي.

(*) **متين رئيس** [كاتب وباحث تركي]. الترجمة عن التركية: **مصطفى حمزة**.

وقد استند السلطان الفاتح في ذلك، على أفكار علماء عصره المرموقين "مُلاّ خُسْرَوْ" و"علي قُوشْجُو" اللذين وضعا مفردات مناهجها التعليمية.

وبقيت هذه المؤسسة (الصحن الثماني) من أشهر المراكز العلمية في عصر الفاتح وما تلاه من العصور العثمانية.

التطور التاريخي لدروس الحضرة السلطانية

كانت الدولة العثمانية تقوم بتنظيم فعاليات كثيرة خلال شهر رمضان المبارك؛ لاكتساب المزيد من فيوضات هذا الشهر وبركاته. والسلاطين بدورهم كانوا يستغلون أيام شهر رمضان وينظمون الدروس الخاصة بها للعلماء.

ومن الأمور الطريفة والمثيرة للاهتمام "دروس الحضرة السلطانية" التي عُقِدتْ في شهر رمضان المبارك بشكل خاص بين العلماء والسلاطين، وهذه الدروس -وإن لم يحمل عنها تاريخُنا المعلومات المفصلة والكافية- سواء من حيث محتواها أو من حيث قيمتها المعنوية والروحية، فإنها كانت بلا شك صفحة مهمة في الحياة الثقافية العثمانية.

استمرت دروس الحضرة السلطانية حتى منتصف القرن الثامن عشر عبر مراحل عدة، فلئن كانت هناك بعض المجالس العلمية التي كان يحضرها السلطان محمد الفاتح بنفسه، والدروس التي يحضرها السلطان محمد الرابع بين صلاتي المغرب والعشاء، ويلقيها شيخه "أحمد واني أفندي" وشيخ الإسلام "يحيى أفندي"، فإنها لم تكن

مستمرة بانتظام ولم تكتسب البداية النموذجية المنتظمة لدروس الحضرة حتى عهد السلطان أحمد الثالث، حيث قام الصدر الأعظم "داماد إبراهيم باشا النَّوشَهِرْلي" عام ١٧٢٤م بتنظيمها من جديد، إذ بدأ يدعو في شهر رمضان المبارك إلى قصره العلماء المشهورين لإلقاء الدروس في تفسير القرآن الكريم.

وفي عام ١٧٢٨م حضر إحدى هذه الدروس الرمضانية السلطانُ "أحمد الثالث" ونجله الشاهزادة "مصطفى الثالث"، ويروى أنه جرى إحداث دروس الحضرة بحضورهما وتأثَّرًا بها.

وربما تَزامُن هذه الدروس التي رتبها "إبراهيم باشا" مع "عهد اللالة" له دلالته ومغزاه، فهذا العهد -كما تذكره كتبنا التاريخية- كان عهد ترف وبذخ، إذ بدأت تضعف فيه معنويات رجال الدولة التي كانت عند سابقيهم، ولذلك دخلت دروس الحضرة في بنية البرامج الرسمية للدولة بدءًا من شهر رمضان الثاني (٢٨ نيسان ١٧٥٩) بعد تولي السلطان مصطفى الثالث العرش (١٧٥٧-١٧٧٤).

وكان السلطان مصطفى الثالث مشهورًا بالزهد والورع، كما كان يبدي حساسية شديدة في الأمور التي تخص الدين؛ فإذا أدرك أن قرارًا من القرارات التي اتخِذتْ مخالف للشرع فسرعان ما كان يسحبه ويعدّله وفقًا للأوامر الدينية، أو بعبارة أخرى كان حريصًا على تجسيد الصواب في الحياة.

وتتحدث الوثيقة التي سجلها كاتب سرّه، أن السلطان مصطفى الثالث كان يحرص على صلوات الجماعة وعلى الأخص صلاة الفجر، وكان يحضر دروس التفسير التي تعقد بعدها في قصره بانتظام.

مَن يحضر دروس الحضرة السلطانية؟

العالم الذي يقدم الدرس في دروس الحضرة السلطانية كان يسمى بـ"المقرِّر"، أما العلماء الذين يستمعون الدرس ثم يوجِّهون الأسئلة فكانوا يسمّون بـ "المخاطَب".

انطلقتْ هذه الدروس في عهودها الأولى، بخمسة مخاطبين لكل مقرِّر، وبمرور الأيام والأزمنة بلغ عدد هؤلاء إلى خمسة عشر مخاطبًا. وفي أول درس من دروس الحضرة الذي تم عقده في عهد السلطان مصطفى الثالث في شهر رمضان من عام ١٧٥٩م، كان المقرِّر هو أمين الفتوى "أبو بكر أفندي"، وكان "نبيل محمد أفندي" وشيخ القصر "حميدي محمد أفندي" ومفتش شيخ الإسلام "إدريس أفندي" و"مُزَلَّف محمد أفندي" و"إسماعيل أفندي القونوي" هم المخاطبون.

اختيار أعضاء دروس الحضرة السلطانية

قبل شهر رمضان المبارك كان يجري حصر أسماء العلماء المرشحين للدروس وتوزيعهم في مجموعات، ويتشكل لكل درسٍ هيئة خاصة.

وقد كان عدد العلماء المختارين لدروس الحضرة في عام ١٧٧٥م سبعين عالمًا، بينما وصل هذا العدد في ١٧٧٦م إلى ١٢٦ عالمًا، يتم اختيار هذه الهيئات من قبل شيوخ الإسلام، حيث يتم اختيار المقرِّرين والمخاطَبين بعناية فائقة، ثم تظهر في الأوامر والمذكرات السلطانية المرسلة إلى المشيخة الإسلامية، فيتم التأكيد على اللياقة والمراتب العلمية والمميزات الشخصية، ولا يستطيع السلطان أو

شيخ الإسلام أن يعيّن شخصًا مقرِّرًا أو مخاطَبًا ما لم يكن متمتعًا بهذه الأوصاف.

وبعد اختيار هذه الهيئات يتم تقديمها إلى السلطان من أجل التصديق.

أوقات دروس الحضرة السلطانية وأماكنها

كان السلطان يعيّن بنفسه الأماكن التي ستقام فيها دروس الحضرة. وقد عُقدت هذه الدروس لفترة طويلة في "طوب قابي" في أقسام؛ قصر سَبَتْجِيلار، وقصر صوفا، وقصر روان، وقصر إِنْجِيلي، قصر يالي، وقاعة الختان.

وفيما بعد انتقلت دروس الحضرة السلطانية في عهود السلاطين عبد العزيز، ومحمد رشاد، وعبد المجيد إلى قصر "دولمه بقجه" وفي عهد السلطان عبد الحميد الثاني، إلى قصر "يِلْدِز".

أما أوقات الدروس في شهر رمضان المبارك، فقد اختلفت تبعًا لاختلاف السلاطين؛ فكانت تجري في بعض الأحيان بين الظهر والعصر، وفي بعض الأحيان بين العصر والمغرب، وكانت على العموم تمتد لساعتين، ولا تتوقف إلا يوم الجمعة من العشر الأول.

محتوى دروس الحضرة السلطانية

تحضر الهيئة المختارة إلى الدرس يتقدمهم المقرِّر، ثم المخاطبون حسب القدم، يتم استقبال الهيئة والسلطان مع مرافقيه وقوفًا، وهذا السلوك يبيّن مدى الاحترام والتقدير لأهل العلم في الدولة العثمانية، ويندر رؤيته في دول أخرى.

بعد مراسم الاستقبال يجلس السلطان والحضور جميعًا، كلٌّ في مجلسه المحدد له، يجلس المقرِّر والمخاطَبون والحضور لفرشٍ أعدت لهم خصيصًا، كما يجلس السلاطين كالمستمعين الآخرين على ركبهم لا على عروشهم، وينصتون وأيديهم على ركبهم.

تتم العناية بإعداد دروس الحضرة السلطانية بشكل خاص باعتبارها جزءًا من تقاليد القصر، فالفرش المخيطة من أقمشة خاصة، ومناضد القراءة المحفورة، والألبسة الخاصة للحضور، وكل التفاصيل الدقيقة، يتم الوقوف عندها في عرض رائع للمدنية العثمانية بكل صفائها.

تبدأ دروس الحضرة بدرس التفسير؛ فيبدأ المقرِّر بتلاوة الآيات، ثم يتم تفسير الآيات من قبل المقرِّر، ثم يتناوب المخاطبون بعرض أفكارهم حول الآيات، ويجتنبون الجدال والاستطرادات غير الضرورية في هذه المجالس العلمية والدروس التي تجري في حضرة السلطان.

ومن جانب آخر تتركز العناية لتأمين الوسط الذي يبدي فيه المشاركون آراءهم في راحة تامة، فالسلطان سليم الثالث (١٨٠٧م) كان يتكلم بنفسه مع العلماء المشاركين، ويطلب منهم أن يعبّروا عن آرائهم في حرية تامة، يبلغ الدرس نهايته بإشارة من السلطان، فيتلو المقرِّر دعاء الختام، هذا وقد جرت العادة أن يمنح السلطان عطية للمقرِّر والمخاطبين.

كانت دروس التفسير تقرأ عادة من كتاب "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" لـ"القاضي البيضاوي" (توفي عام ١٢٨٥م)، وتدريس هذا

الكتاب الموجز المتوسط في حجمه لأعوام طويلة في المدارس العثمانية، يدل على قيمة هذا الكتاب.

كان تفسير قوله تعالى من سورة النساء: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾ الدرس الأول في عهد السلطان مصطفى الثالث.

لم تكن دروس الحضرة السلطانية تلتزم في التفسير ترتيبًا معينًا لآيات القرآن الكريم حتى إذا كان شهر رمضان عام ١٧٨٥م، بدأ التفسير بسورة الفاتحة واستمر وفق ترتيب السور في القرآن الكريم. فعلى سبيل المثال بدأ تفسير سورة الإسراء المكونة من ١١١ آية في شهر رمضان المبارك عام ١٧٥٥م واستمر حتى عام ١٧٧٨م، وسورة الفتح المكونة من ٢٩ آية اكتمل تفسيرها ما بين عامي (١٧٧٩-١٧٨٤م)، وسورة الفاتحة في عامي (١٧٨٥م) و(١٧٨٦م)، وابتدأ تفسير سورة البقرة من عام ١٧٨٧م واستمر تفسير ٣٠ آية منها طيلة خمس سنوات حتى رمضان ١٧٩١م.

واستمرت دروس التفسير المرتبة حتى شهر رمضان من ١٩٢٣م، وتوقفت عند تفسير الآية ٣١ من سورة النحل في الجزء الرابع عشر: ﴿**جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ**﴾، وبتفسير هذه الآية توقفت دروس الحضرة السلطانية الرمضانية تمامًا.

لم تقتصر الدروس في المجتمعات العثمانية على قصور السلاطين، فقد استلهم وجهاء المجتمع العثماني دروس الحضرة السلطانية التي يعقدها السلطان في قصره، فنظموا أمثال هذه الدروس في قصورهم وبيوتهم بل وفي المقاهي أيضًا، وأقيمت دروس الفقه، يتعلم الناس فيها أمور دينهم.

وكان الخليفة السلطان عبد المجيد، آخر من نظم دروس الحضرة السلطانية في قصره في "دولمه بقجه" في شهر رمضان عام ١٩٢٣م، وبإزالة الخلافة في ٣ آذار ١٩٢٤م اختفت دروس الحضرة السلطانية وغابت عن مسرح التاريخ.

الثقافة التسامحية لدى العثمانيين(*)

إن أبرز لوحة تُصور موقف الإسلام من غير المسلمين، هي التي نقلها شمس الأئمة أبو بكر محمد بن أبي سهل السرخسي عن الإمام أبي يوسف ﷺ.

فإن أبا يوسف قال في مناجاته عند موته: "اللهم إن كنت تعلم أني ما تركت العدل بين الخصمين إلا في حادثة واحدة فاغفرها لي". قيل وما تلك الحادثة؟ قال: "ادّعى نصراني على أمير المؤمنين دعوى فلم يمكني أن آمر الخليفة بالقيام من مجلسه والمحاباة مع خصمه، ولكن رفعتُ النصراني إلى جانب البساط بقدر ما أمكنني، ثم سمعت الخصومة قبل أن أسوي بينهما في المجلس، فهذا كان جوري". ليُعلَمْ أن هذا من أهم ما ينبغي للقاضي أن ينصرف إليه في العناية لما أشار إليه في الأثر فقال: "...لا يطمعَ شريف في حيفك ولا يخافَ ضعيف من جورك" (رواه البيهقي)، والحيف هو الظلم، فاذا قدّم الشريف طمع في ظلمه وانكسر بهذا التقديم قلب خصمه الضعيف فيخاف الجور".

(*) أ.د. سعاد يلدريم [كلية الإلهيات، جامعة مرمرة، إسطنبول/تركيا].

لنقف قليلًا عند هذه الحادثة.. مواطن عادي مسيحي يجترئ ليرفع شكواه على رئيس دولة المسلمين بكل ثقة واطمئنان.

وأبو يوسف هو قاضي القضاة، أي في أعلى منصب قضائي في الدولة العباسية، والدولة في ذروة ازدهارها، وقاضي القضاة استمع إلى الدعوى دون أن يسوي بين الخصمين في المكان، لأن القاضي استحيا من أن يأمر الخليفة بالقيام والاقتراب من خصمه؛ وهذا خطأ بسيط جدًا، إلا أن قاضي القضاة لم ينسه لدرجة أنه رآه الظلم الوحيد الذي ارتكبه في حياته القضائية واستغفر منه.

ومن جهة أخرى فإن السرخسي بدل أن يصغر هذا الخطأ فإنه يشتد ويقول: "إن هذا من أهم ما ينبغي للقاضي أن ينصرف إليه". ولا ينبغي لنا أن ننسى أن هذه الحادثة نقلت في كتاب "المبسوط" أي في كتابٍ من أمهات مصادر الفقه الإسلامي، ومؤلفه فقيه مشهور، أي رجل قانون، ولم تنقل في كتاب أدب أو مناقب؛ وهذا هو الذي يكسب الحادثة قوة كبيرة؛ ومن ثم نستطيع أن نقول: إن هذه الحادثة الدالة تكفي وحدها لأن تلخص موقف الإسلام تجاه غير المسلمين. نكتفي بهذا وننتقل إلى تأسيس الدولة العثمانية.

استوطنت عشيرة "قايِي" التركية غربي الأناضول في النصف الأخير من القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) بأمر السلطان السلجوقي "غياث الدين كيخسرو" في حدود الدولة السلجوقية البيزنطية، وكان الأمير "أرطغرل" والد الأمير "عثمان" ينتسب إلى هذه العشيرة.

أقطع السلطانُ لـ"أرطغرل" قرية "سُوغوت" في منطقة "بيلاجيك" حيث اتخذها مركزًا لعشيرته، وكان عامة أهل "بيلاجيك" من المسيحيين، وقد أسس الأمير "أرطغرل" علاقات طيبة قائمة على المحبة مع أمراء هؤلاء الأهالي وكسب قلوبهم، وابنه عثمان (ت ١٣٢٤م) أمر القرى التي بجواره، أن ينقادوا لحكمه مع حسن الجوار بالمسيحيين الذين كانوا يعيشون في تلك الناحية.

ونشاهد أن الخط الأساسي في سياسة الدولة العثمانية منذ البداية هو أن أمراءها توجهوا إلى الدولة البيزنطية بدل أن يتقاتلوا مع نظرائهم من أمراء الأتراك المسلمين الذين كانوا يتنافسون فيما بينهم؛ فإنهم توجهوا إلى قلاع البيزنطيين وفتحوها وألحقوها بحكمهم شيئًا فشيئًا، لم يكتفوا باستعمال القوة العسكرية فقط، بل أسسوا علاقات ودية مع السكان غير المسلمين.

فمثلًا عشيرة الأمير عثمان كانت تسكن قرية "سوغوت" في فصل الشتاء وتصعد إلى هضبة "دومانيج" في الصيف ويترك أهاليها بيوتهم وأمتعتهم عند أهالي "بيلاجيك"، وعند رجوعهم في بداية الشتاء كانوا يقدمون إليهم مقابل ذلك الأغنام والأجبانَ والبسطَ والهدايا المختلفةَ لمحافظتهم على أماناتهم، وكانوا يرسلون إليهم هداياهم بواسطة نسائهم حتى يأمنوا من سطوتهم.

وكان الأمير عثمان، يرى أن فتح أي مدينة عنوة يتسبب في خرابها، ولهذا كان يسعى لتأسيس العلاقات الحسنة لكي يفتحها صلحًا، وإذا سئل عن سبب هذه المعاملة كان يقول: "نحن جئنا إلى هذه البلاد غرباء، وهؤلاء هم أهلها لم يمنعونا منها، فعلينا أن نحترم حقوقهم ونكون أمناء في حقهم".

وفي يوم من الأيام اشترى مسلمٌ تركي من سوق "بيلاجيك" عدة أكواب من تاجر مسيحي ولم يدفع له ثمنها، وعندما علم الأمير عثمان بهذا، استدعاهما وأخذ حق التاجر المسيحي من المسلم التركي وأرسل منادين في المنطقة ليعلنوا أن الأهالي كلهم تحت حمايته ورعايته، وأنه سيقف ضد أي تعدٍّ نحوهم.

ومن ثمرات هذه السياسة نرى أن الأمير أورخان بن عثمان (ت ١٣٦٢م) لم يتعرض لأي مقاومة أثناء فتح مدينة "بورصة" (١٣٢٦م)، حيث سلم أمير "بورصة" المدينةَ صلحًا. واتخذ الأمير "أورخان" مدينة "بورصة" عاصمة للدولة العثمانية.

ولم تكن النصارى وحدهم مَن لاقوا الأذى الكثير من الحكام البيزنطيين، بل اليهود الذين كانوا قد سكنوا القرى المختلفة في منطقة "تراقيا" أيضًا فرحوا بفتح المسلمين الأتراك البلاد.

ولما سأل الأمير "أورخان" وزيرَ إمارة "بورصة" -الذي لعب دورًا كبيرًا في تسليم البلد- عن سبب تسليمهم بلدهم إليه قال: "إن هناك عدة أسباب؛ أولًا: إن دولتكم أصبحت تتسع وتقوى بسرعة، بينما دولتنا بدأت تتهاوى يومًا بعد يوم.

وثانيًا: إنكم ألحقتم مزارعنا وقرانا حوالي "بورصة" إلى حكمكم، فرأينا العدل والأمان في ظلكم، ولاحظنا أنكم لا تأخذون أي شيء من أموال هؤلاء الناس، كما شاهدنا أن هؤلاء الناس رضوا عن حكمكم وصاروا وكأنهم لا يعرفوننا ولا يذكروننا؛ فلما رأينا طمأنتهم وراحتهم رغبنا في حكمكم".

ثم واصل سلاطين آل عثمان فتوحاتهم في البلقان، وكان أهالي المنطقة هناك يعانون من الضرائب الباهظة التي فرضتها عليهم الدولة البيزنطية؛ الأمر الذي جعل معظمهم يحتمي بالحكم العثماني، حيث كانت الدولة العثمانية تكتفي بضريبة خفيفة، مما مكّنهم من الاحتفاظ بأموالهم وأنفسهم في الوقت نفسه. ومن جهة أخرى فإن عامة أهالي البلقان كانوا ينتسبون إلى المذهب الأرثوذكسي وكان الأوربيون يجبرونهم على الدخول إلى الكاثوليكية ويهددونهم بالقتل، واعتبر هؤلاء الناسُ العثمانيين منقذين لهم من أيدي هؤلاء الظالمين.

واستغلّ الأوروبيون ضعف البيزنطيين وحاجتهم إلى مؤازرتهم وتأييدهم فاشترطوا قبول مذهبهم الكاثوليكي، وفي يوم ١٢ ديسمبر ١٤٥٢م، صلّوا في الكنيسة الكبرى (آياصوفيا) حسب المذهب الكاثوليكي فكرهَهم أهالي القسطنطينية حتى قال رئيس وزراء الدولة البيزنطية مقولته الشهيرة: "بدل أن أرى في القسطنطينية قبعة الكاثوليك أفضّل أن أرى فيها عمامة الأتراك".

يقول المؤرخون إن توسّع أراضي الدولة العثمانية في الأناضول وفي البلقان يرجع إلى أسباب اجتماعية وأخلاقية بجنب قوتهم العسكرية؛ لأن القوة العسكرية لا تكفي وحدها لإخضاع بلاد تضم أقوامًا من مختلف الأجناس واللغات والعروق والأديان..

فهذه ترجمة فرمان السلطان محمد الفاتح الموجه إلى أهل الذمة بعد الفتح في آخر جمادي الأولى سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣م):

١- أعطيهم حرية العبادة وإجراء طقوسهم وشعائرهم على ما تعارفوا عليه في تاريخهم.

٢- أموالهم وأرزاقهم ومخازنهم وبساتينهم وسفُنهم وجميع أمتعتهم في حمايتنا، وأيضًا نساؤهم وخدامهم وعبيدهم وجواريهم مصونة من تدخلنا.

٣- لهم الحق في أن يزرعوا أراضيهم ويسافروا في البر والبحر دون أي تحديد أو تدخل.

٤- عليهم أن يدفعوا الخراج الشرعي سنويًا، وعلينا أن نحفظ أنفسهم وأموالهم.

٥- لهم حق العبادة وإجراء الطقوس ودراسة كتبهم، وليس لهم ضرب الناقوس، وعلينا أن لا نحوّل كنائسهم إلى مساجد وليس لهم إنشاء كنائس جديدة.

٦- ولتجار أهل الذمة أن يتجروا في البر والبحر، وعليهم أن يدفعوا ضريبة الجمرك حسب العرف، وهم مصونون من أي تدخل.

٧- لا نأخذ أولادهم للجيش ولا نجبر أي شخص منهم للدخول في الإسلام بدون رضاه.

٨- ولهم أن يختاروا رئيس جماعتهم لتمشية مصالحهم.

٩- وهم مصونون من أي عمل إجباري ومن أي عمل دون أجرة.

كما أعطى السلطان محمد الفاتح البطريقَ حقوقًا أكثر مما أعطته الدولة البيزنطية، فإنه دعا البطريق "كناديوس" وسماه "رئيس جماعة الروم"؛ وبذلك منحه منصبًا دنيويًا وإداريًا بجانب منصبه الروحاني. وكان البطريق يتمتع بمنصب "الباشا"، حيث خصص له محافظون لحراسته، وإنه كان من أعضاء الديوان السلطاني ممثلًا عن المسيحيين.

ومن جهة أخرى دعا السلطان بطريق الأرمن في "بورصة" إلى إسطنبول وعينه رئيسًا لجماعات الأقليات من السريان والقبط والغجر إضافة إلى رئاسته لجماعة الأرمن؛ وقد أدى هذا التصرف إلى هجرة الأرمن إلى إسطنبول إلى أن وصل عددهم في القرن التاسع عشر إلى مائة وخمسين ألف نسمة.

واتصل السلطان محمد الفاتح باليهود ضامنًا لهم الحرية الدينية بشرط أن لا يعينوا البيزنطيين، وعندما طرد "لودويج" ملك باويرا سنة ١٤٧٠م و"فارديناند" ملك أراغون سنة ١٤٩٢م اليهودَ، التجأوا إلى الدولة العثمانية ووجدوا فيها المأمن والأمان، كما التجأ قسم من العرب الأندلسيين -في نفس الوقت- إلى إسطنبول حيث عاشوا كأشقاء مع المسلمين العثمانيين، وكان يهود إسبانيا يتكلمون بلهجة "لادينو"، حيث حافظوا على هذه اللغة قرونًا بمسامحة من الدولة العثمانية، وكانت الدولة تريد أن تستفيد من تجربة اليهود التجارية ومن ثرواتهم.

لقد حافظ السلاطين على الكتائب العسكرية المسيحية وأعطتهم "التيمار" (حق تحصيل ضرائب الأراضي المعينة مقابل تجهيز عدد من العسكر)، وبذلك استفادت الدولة من قوتهم في حروبها.

ومما يجدر ذكره أن السلطان محمد الفاتح طبّق الأحكام الإسلامية في أهل الذمة، كما كانت هذه الأحكام معروفة لدى الشعب المسلم، ومع ذلك فإن المجتمعات لا تخلو من الناس المتطرفين؛ فلما اطلع السلطان على تصرف بعض الناس وإجبار غير المسلمين على الإسلام قال: "ما أجْرأ هؤلاء على هذا الفعل! وهل يرون أنفسهم أحرص على الإسلام من الله؟".

وحدث أحيانًا أن بعضهم قدم طلبًا إلى القاضي معلنًا عن رغبته في اعتناق الإسلام، فلما تحقق القاضي من أن هذا الشخص أُكره على الإسلام، رفض دعواه وأبقاه على دينه، وهذا مدون في السجلات الشرعية.. وحدث أن مسلمًا سبّ الدين المسيحي أثناء مناقشته مع مسيحي، فرُفعت قضيته إلى القاضي فحكم القاضي بأن ينفى هذا المسلم من المدينة.

حقوق أهل الذمة

إن الدولة العثمانية طبقت على أهل الذمة أحكام الإسلام كما ذكرنا آنفًا، ويمكننا أن نلخص حقوقهم كالتالي:

١-**الحقوق والحريات الأساسية**: كانوا يتمتعون بكل الحقوق، كحق الحياة والعمل وحرمة المسكن وحق السياحة والاتصالات مثل المسلمين.

وأما الاستثناء الوحيد هو منعهم من الدخول إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، ومنعوا أيضًا في سنة ١٥٨٢م من الدخول إلى منطقة "السلطان أيوب" (المنطقة التي يوجد فيها ضريح الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري ﷺ صحابي رسول الله ﷺ)، حيث اعتبرت هذه المنطقة من أهم المراكز الإسلامية في إسطنبول، وأسكنت الدولة أهل الذمة في ضواحي إسطنبول في الأحياء المخصصة للروم والأرمن واليهود... إلخ. وقد حدد بعض السلاطين ارتفاع بيوت هؤلاء الأهالي واشترطوا أن يكون ارتفاع بيوت غير المسلمين أقل بقليل من بيوت المسلمين.

٢-**الحرية الدينية**: أي حرية العبادة والمعبد وتعليم الدين وفتح المدارس الأهلية، إلا أنه كان هناك بعض التحديدات الخفيفة في الشعائر الدينية؛ مثل إظهار الصليب وضرب الناقوس يبقى في داخل المعبد ولا يظهر في الخارج في الأحياء التي كان معظم سكانها مسلمين.

وحسب الفقه الإسلامي يستطيع أهل الذمة أن يحتفظوا بمعابدهم القديمة إذا فتحت البلدة صلحًا، وأما إذا فتحت عنوة فالسلطان مخير بين الإبقاء عليها أو هدمها.

ورغم هذا الحكم أبقى السلطان محمد الفاتح كنائس إسطنبول كما كانت، وتبعه في هذا الأمر من جاء بعده من السلاطين، وأذن في بعض الأحوال المحددة لإنشاء كنائس وصلوات جديدة (أي معابد اليهود) واشتُرِط إذْن الدولة لترميم المعابد القديمة؛ وقد بلغ عدد الكنائس مائة واثنتى عشرة كنيسة، وعدد الصلوات ستًا وثلاثين في إسطنبول سنة ١٨٨٥م.

٣-**الحرية السياسية والإدارية**: لهم حق الدخول في قطاع الدولة كموظفين بإستثناء الوظائف التي تخص المسلمين، وليس لذمي أن يكون رئيسًا للدولة أو قائدًا للجيش أو رئيسًا للوزراء أو واليًا في الولاية أو قاضيًا، كما كان عليهم أن يراعوا النظام العام والآداب العامة مثل المسلمين تمامًا.

وخلال حكم السلطان سليم الأول تبين للخليفة أن قسمًا من الروم حاولوا أن ينظموا حركة انفصالية، وتعاونوا في ذلك مع نصارى جزيرة "مورا"، فأراد أن يأمر المسيحيين أو يخيرهم بين

الإسلام وبين الخروج من إسطنبول، فاعترض عليه شيخ الإسلام "علي جمالي" (الملقب بزنبللي) قائلًا: "إن جدك أعطاهم الأمن والأمان، فلا يجوز لك شرعًا أن تكرههم على ذلك".

ولما تحققت الدولة أن بطريق الروم تعاون مع أهل جزيرة "مورا" في سنة ١٨٢١م، اعتقلته ثم أعدمته، ثم ضعفت ثقة الدولة في الروم وبدأت تبعدهم عن الوظائف الحكومية ووجهتها إلى الأرمن بدل الروم.

وكانت العلاقات الإسلامية والمسيحية واليهودية حسنة إلى حد كبير منذ بداية الدولة العثمانية، واستمرت هذه الحالة قرونا.

ومنذ بداية القرن التاسع عشر استطاع أهل الذمة أن يتعاقدوا مع شركات وتجار أوروبا ووسعوا ثرواتهم ونفوذهم. وبينما كان المسلمون الأتراك منهمكين بالحروب والإدارة، اشتغل أهل الذمة بالتجارة والصناعة.

ونتيجة لهذا أصبح الأتراك محكومين اقتصاديًّا بعد أن كانوا حكامًا.

واجبات أهل الذمة

وبمقابل هذه الحقوق كان هناك بعض الواجبات على أهل الذمة وهي:

أولًا: الجزية وهي ضريبة يختلف مقدارها حسب الظروف، حيث كانت تؤخذ من الرجال البالغين فقط، ولا تؤخذ من النساء والأطفال والشيوخ ورجال الدين والمرضى، وكانت تؤخذ تعويضًا عن الخدمة العسكرية التي كُلّف بها كل المسلمين، ولذلك غُيّر اسمها إلى "بدل

العسكرية" في سنة ١٨٥٦م، وإذا ما التحق أهل الذمة بالجيش، فإن الدولة العثمانية كانت تعفيهم من الجزية، على سبيل المثال سمحت الدولة العثمانية في القرنين السادس عشر والسابع عشر بدخول المسيحيين في جنوب رومانيا إلى الجيش.

ثانيًا: كان الزّراع مكلفين بالخراج، وكانت الإدارة العثمانية تعتبر أراضي الأناضول و"الروم إيلي"، أي معظم أراضي الدولة العثمانية من الأراضي "الأميرية" (خراجية)، لذلك كان الزراع كلهم من المسلمين ومن غير المسلمين متساوين في هذه الضريبة.

ثالثًا: كل المستوردين كانوا مكلفين بضريبة الجمرك، إلا أن نسبة ضريبة أهل الذمة كانت أكثر بقليل من ضريبة المسلمين، كما كانت البضائع والأموال التي تستعمل في المعابد الدينية معفوّة من ضريبة الجمرك، وقد خففت جدًّا هذه الضريبة بالامتيازات التي نالها غير المسلمين منذ القرن السادس عشر.

وكان هناك بعض التحديدات على أهل الذمة:

فهم كانوا لا يظهرون الصليب ولا يضربون الناقوس إلا في داخل الكنيسة، ولا يكون ارتفاع بيوتهم أكثر من ارتفاع بيوت المسلمين. ولا يقلدون المسلمين في ملابسهم ولا يبيعون الخمر ولحم الخنزير إلا في المناطق التي يسكنها غير المسلمين.

وبجانب أهل الذمة الذين كانوا مواطني الدولة، كان هناك المستأمنون من رعايا الدول الأجنبية، وكانوا يتجرون ويتجولون في داخل الدولة للتنزه والاستطلاع تحت حماية الدولة.

وإذا نظرنا إلى أوروبا في تلك العصور فماذا نجد فيها من هذه الحقوق؟

أرغب في هذا الصدد أن أنقل كلام المستشرق "برنارد لويس"، فعندما زار تركيا قبل عشرين سنة تقريبًا أُجريت معه مقابلة تلفزيونية، وسأله المراسل: "نحن نرى كثيرًا من الأوروبيين قد تجولوا وكتبوا مذكرات سياحية داخل الدولة العثمانية منذ القرن السادس عشر حتى القرن العشرين، في حين لا نجد من الأتراك من كتب عن الأوروبيين؟".

فأجاب "لويس": "لم يكن أي مانع في تلك الآونة من زيارة الأوروبيين الدولة العثمانية، لأن الدولة كانت دولة حقوق وقوانين؛ كانوا يدخلون مستأمنين يتجولون ويتجرون، وكان بإمكانهم أن يجدوا من كل المذاهب من يتكلم بلسانهم، أي ما كان هؤلاء يحسّون بالغربة، أما المسلم فما كان له أن يدخل إلى أيّ بلد أوروبي، إلا إذا رضي بالقتل، بسبب التعصب السائد في تلك العصور في أوروبا".

الحقوق الإنسانية في الدولة العثمانية

والدولة العثمانية كانت رائدة في حقل الحقوق الإنسانية الأساسية، ولا سيما في الحرية الدينية كما قال "غيبون": "لا يستطيع أحد أن يعترض على أن الدولة العثمانية هي الدولة الأولى التي اعتبرت مبدأ حرية الأديان كحجر الأساس في نظامهم".

لندع أوروبا في تلك القرون جانبًا وننظر إلى أوروبا في القرن التاسع عشر والعشرين؛ فرنسا التي تدّعي أنها مهد الحرية والتي استولت على الجزائر في ١٨٣٠م وبقيت فيها ١٣٢ سنة، ماذا قدّمت

للجزائريين من تلك الحقوق؟ فهل يمكن أن نجد وزيرًا بل نائبًا من الجزائر في برلمان فرنسا؟ لا أبدًا.

أما إذا نظرنا إلى الدولة العثمانية فيمكن أن نجد أكثر من خمسين شخصًا من غير المسلمين ما بين وزير ونائب.

وهذه المقارنة توضح لنا كل شيء، إذ نوجزها بأن الدولة العثمانية قصرت صلاحيتها على المجتمع؛ في الحكم والأمور المالية والجيش، وأودعت كل ما وراء ذلك من التعليم والتربية والضمان الاجتماعي والأمور الدينية والأحوال الشخصية وإدارة النفوس والإعلام للمسلمين ولغير المسلمين، إلى الشعب الذين كانوا يديرونها على أساس التنظيمات الدينية والمذهبية، كما أودعت أوقافهم المختلفة. وكان غير المسلمين يُجْرون أمر النكاح والطلاق والنفقة والميراث والوصية داخلَ جماعاتهم في محاكمهم الخاصة. والدولة كانت تنفذ هذه القرارات كما وردت، وكان بإمكانهم أن يفتحوا مدارسهم ويضعوا برامجها ويختاروا مدرسيها بكل حرية.

وبسبب الإهمال في مراقبة تلك المدارس؛ بدأ يدب فيها الفساد اعتبارًا من القرن التاسع عشر، والسبب الأساس يرجع إلى عدم وجود الأشخاص الذين يتقنون اللغات الأجنبية التي كانت لغة التدريس في تلك المدارس والكليات، ولهذا الخلل فإن معظم الأمور الخارجية والدبلوماسية بقيت في أيدي الأقليات غير الإسلامية.

يبدو أن الدولة العثمانية ركزت على وحدة أراضيها وعدم تجزئتها أكثر من الوحدة الثقافية؛ ولما لم تستهدف الدولة سياسة الوحدة في اللغة والثقافة لم تتحقق المواطنة المطلوبة بين المسلمين

وغير المسلمين، ولذلك لم تستطع الدولة أن تحوّل العلاقة بينها وبين رعاياها إلى علاقة مستمرة باقية، والحقيقة أن الإدارة الذاتية في حقل الدين والأحوال الشخصية، لم تكن لتشكل مانعًا أمام الدولة من تحقيق وحدة المواطنة.

فلو كان باستطاعتها تحقيق حقوق المواطنة مثلما تحقق في الولايات المتحدة الأمريكية مثلًا، لربما استمرت الدولة العثمانية وهذه فرضية، ومن زاوية أخرى نستطيع أن نقول إن الدولة العثمانية استمرت ستمائة سنة، وماذا تكون عاقبة النظم الحالية بعد مائة سنة!؟ الله أعلم.

المهم أننا معاشر المسلمين فقدنا قوتنا السياسية والاقتصادية، وليس لنا كلام مسموع في هذه المجالات في الوقت الحاضر. ولكن عندنا ثروة هائلة وقوة عظيمة وهي قوة العقيدة وقوة دين الحق التي لا تنفد.

ولو اتصفنا بالأخلاق الحميدة والاستقامة التي رأيناها عند أبي يوسف وعند السلطان عثمان ومحمد الفاتح، ولو أظهرنا كمالات الإسلام الأخلاقية، لرأينا نتيجة مثمرة مباركة ولحققنا رسالتنا في الحياة والله الموفق.

ذكريات رمضانية من إسطنبول العثمانية(*)

قد حرصت الدولة العثمانية على تأدية كل ما يتعلق بالعقيدة الإسلامية، فأقامت ثقافتها ونظّمتْ قوانينها وفق هذه العقيدة السمحاء، ومن شواهد ذلك شهر رمضان المبارك الذي ما إن يجئ ببركاته حتى تبدو علامات البهجة والسرور على ملامح الناس الخاصة والعامة، وتقام الحفلات والمراسيم في قصر طوب قابي السلطاني احتفاء بهذا الشهر الكريم.

كانت زيارة "الخرقة الشريفة" (أيْ بردة الرسول ﷺ) تتم بعد صلاة الظهر التي كانت تؤدى عادة في جامع آيا صوفيا، وبعد الصلاة ينتقلون إلى مبنى "الخرقة الشريفة".

كان قصر طوب قابي مهمًّا لسببين، الأول أنه كان مركز الحكم والإدارة في الدولة العثمانية التي كانت أقوى دولة في العالم آنذاك، والسبب الثاني أنه كان مقر الأمانات المقدسة[1] التي لم تكن تحوزها أيّ دولة إسلامية أخرى.

(*) محمد بهادير دوردنجي

والجدير بالذكر أن المراسيم والمناسبات الدينية التي كانت تقام في القصور السلطانية، عريقة الأصول راسخة الجذور. وما استقبال شهر رمضان المبارك بالمراسيم، إلا استمداد لهذه التقاليد النبيلة والقيم الفاضلة.

لقد كانت احتفالات هذا الشهر المبارك تنطلق في اليوم الثاني عشر من شهر رجب، وذلك بإرسال كسوة الكعبة المشرفة -وكانت تُنسج في فناء مسجد السلطان أحمد بإسطنبول- مع النقود والهدايا إلى أهل الحرمين الشريفين في موكب كان يدعى "موكب الصرة السلطانية". تبدأ هذه المراسيم بحضور الخليفة السلطان في قصر "طوب قابي"، فيتم خلالها تسليم الكسوة، والنقود، والهدايا إلى "أمين الصرة" بالأدعية والتسبيحات، ثم يُوَدَّع الموكب بالتهليل والتكبيرات إلى الحرمين الشريفين.

كان السلطان يحضر الدروس التي تقام في شهر رمضان، والمذاكرات الدينية التي تعقب هذه الدروس، وفي اليوم الرابع عشر من شهر رمضان، يُدْعا رجال الدولة البارزون، وقوّاد الجيش الإنكشاري، والدفتردار، وغيرهم، إلى حضور مراسيم "الخرقة الشريفة"[٢]. وأما العلماء فيدعوهم شيخ الإسلام، بعد ذلك يقوم السلطان الخليفة أولًا بزيارة "الخرقة الشريفة" والأمانات المقدسة.

مراسيم الخرقة الشريفة

وفي الليلة الخامسة عشرة من شهر رمضان، كانت تقام مراسيم التنظيف التي تجرى في الجناح الذي يحتوي على الأمانات المقدسة، وكان السلطان يحضر هذه المراسيم بنفسه، حيث كان

يتم تنظيف مبنى "خرقة السعادة" بأقداح مملوءة بماء الورد، وبقطع إسفنج نظيفة.

بقي هناك تقليدان؛ أولهما دوام قراءة القرآن في الغرفة التي توجد فيها البردة الشريفة دون انقطاع ليلًا ونهارًا، والثاني فتحها في كل شهر رمضان لتنظيفها ثم غلقها حتى قدوم شهر رمضان في السنة التالية.

كان الخليفة يقوم بغمس قطعة الإسفنج في ماء الورد وينظف مشبك "خرقة السعادة"، ثم يقوم رجال الدولة البارزون بتنظيف جدران المبنى وأبوابه وشبابيكه، وإظهارًا للتوقير الشديد تجاه الأمانات المقدسة، فلم تُرمَ قطع الإسفنج وقطع الأقمشة التي يتم التنظيف بها، في المزبلة، بل كانت تحفظ في مكان مخصص.

وبعد إتمام عملية التنظيف، يبدأ اليوم الثاني بصلاة الفجر جماعةً في مبنى "خرقة السعادة"، وقبل صلاة الظهر بساعتين، يقوم موظفو القصر بإخراج بردة الرسول ﷺ من صندوقها الفضي، ويضعونها فوق وسائد مطرزة باللآلئ، ثم يعرضونها لأنظار الزوار.

كانت زيارة "الخرقة الشريفة" (أيْ بردة الرسول ﷺ) تتم بعد صلاة الظهر التي كانت تؤدى عادة في جامع آيا صوفيا، وبعد الصلاة ينتقلون إلى مبنى "الخرقة الشريفة"، هنا يبدأ رئيس الأئمة بتلاوة القرآن الكريم، وبعده الإمام الثاني، ثم إمام غرفة الخرقة الشريفة، ثم المؤذن، ثم بعض قواد العسكر بالتناوب وهم وقوف احترامًا وتوقيرًا. كما كان الصدر الأعظم، وشيخ الإسلام يشتركان أيضًا في مراسيم هذه الزيارة.

كان السلطان يقف في أثناء هذه الزيارة بجانب صندوق الخرقة الشريفة، والصدر الأعظم على يمينه، ورئيس تشريفات القصر السلطاني على يساره.

وبعد حضور جميع الزوار، يبدأ الإمام بتلاوة القرآن الكريم، ثم يقوم السلطان بفتح قفل الصندوق بمفتاح ذهبي، بعد ذلك يقوم بفتح الصندوق الملفوف بسبع قطع من القطيفة الموشاة باللآلئ وبالخيوط المذهبة، كما يوجد في الصندوق درج ذهبي بمصراعين، فيحتفظ السلطان بالمفتاح الذهبي لهذا الدرج.

ثم يؤخذ الزر الموجود في ياقة البردة الشريفة ويوضع في قدح فيه كمية من الماء، فيسخن قليلًا، ثم يضاف إليه بعض العنبر، ثم يوضع على الموقد، ثم يضاف بعض الماء إلى الماء القليل المتبقي في القدح ويقدَّم هدية باسم "ماء الخرقة الشريفة"[٣].

ويقوم السلطان بمسح وجهه وعينيه بالخرقة الشريفة إظهارًا لحبه للرسول ﷺ. ويروى أن معظم السلاطين كانوا لا يملكون أنفسهم من الإجهاش بالبكاء أثناء هذا المسح، ثم يسمح السلطان للآخرين بالزيارة.

كانت الزيارة تتم والكل وقوف، وذلك إظهارًا للتوقير والاحترام للرسول ﷺ، كان كل زائر يمسح وجهه بالبردة الشريفة، يردد الأدعية ويرجو شفاعة الرسول ﷺ، وبعد انتهاء الزيارة، يخرج الحاضرون؛ يخرج أولًا الأدنى مرتبة، ثم الأعلى منه مرتبة، وهكذا، وفي الأخير يخرج شيخ الإسلام، ثم الصدر الأعظم، ثم السلطان.

بعد زيارة المسؤولين الكبار وأركان الدولة، يبدأ أفراد الشعب بالزيارة، ثم يقوم أحد كبار موظفي القصر بغسل الجناح الذي مُسحت به الوجوه من البردة بماء الورد من طاسة ذهبية، ثم يجفف بعطر العنبر، ثم توضع البردة الشريفة وتلف في سبع قطع من قطيفة جديدة مطرزة باللآلئ، ثم توضع في محلها في الخزينة الذهبية.

كانت هذه المراسيم تقام في خشوع كبير وتوقير عظيم؛ لأن الجميع كانوا يشعرون بسعادة روحية عارمة، ثم يقوم السلطان بقفل الخزينة والصندوق بنفسه.

الجدير بالذكر أن المراسيم والمناسبات الدينية التي كانت تقام في القصور السلطانية عريقة الأصول راسخة الجذور.

كانت هذه المراسيم تجرى في كل عام، ينتشر خبرها في أنحاء العالم الإسلامي ويتردد صداها الواسع، ومع أن هذه المراسيم كانت تجرى سنويًا، إلا أن الصحف كانت تفرد حيزًا كبيرًا في صفحاتها لنشر خبر هذه المراسيم بشكل تفصيلي.

ماذا بقي من هذه المراسيم؟

بقي هناك تقليدان؛ أولهما دوام قراءة القرآن في الغرفة التي توجد فيها البردة الشريفة دون انقطاع ليلًا ونهارًا، والثاني فتحها في كل شهر رمضان لتنظيفها ثم غلقها حتى قدوم شهر رمضان في السنة التالية.

بعد انتهاء هذه المراسيم كان من التقاليد المرعية سابقًا إرسال "البقلاوة"[٤] وتوزيعها على الجنود، يرجع هذا التقليد إلى عهد

السلطان سليمان القانوني؛ حيث كان يتم توزيع الأرز واللحم المقلي مع البصل مع بعض الحلوى، على الجنود في أوقات الخروج إلى الفتوحات لتقوية عزيمتهم، ثم تُرك هذا التقليد وتم الاكتفاء بتقديم الحساء والأرز والحلوى عند توزيع الرواتب والعطايا على الجنود.

اهتمام السلاطين بالعبادة

هناك مصادر ووثائق تاريخية عديدة سجل فيها مدى اهتمام سلاطين آل عثمان بالصلاة والصوم والتزامهم بأدائهما. ولكي يتمكّن السلاطين من سماع صوت مدفع الإفطار، ويروا القناديل في الجوامع ويبدأوا بالإفطار؛ فقد تم إنشاء بناية صغيرة مشرفة على خليج القرن الذهبي حيث كان السلاطين يفطرون فيها.

كان السلاطين يؤدون عبادتهم -عادة- في جامع القصر، فبعد سماع الأذان من جامع آيا صوفيا كان مؤذن القصر يرفع الأذان كذلك، فيأتي السلطان للجامع مع جميع موظفي القصر ويؤدون الصلاة، وقد كان موظفو القصر الكبار، يستقبلون السلطان في مدخل الجامع، حيث يدخل السلطان إلى الجامع ويتوجه إلى المقصورة الخاصة بالسلاطين، ثم تؤدى الصلاة جماعة.

بعد انتقال الخلافة إلى آل عثمان، بدأ السلاطين بأداء هذه الصلوات في الجوامع الكبيرة التي شيدها أجدادهم، لذا بدأت عادة ترتيب مواكب الصلاة.

هذا وقد كان سلاطين آل عثمان يهتمون بعباداتهم في شهر رمضان المبارك اهتمامًا خاصًا، مثلهم في ذلك مثل جميع المسلمين

الآخرين، وعادة ما كانوا يؤدون صلاة التراويح في جامع السليمانية، أو في جامع السلطان أحمد، أو في جامع آيا صوفيا، أو في جامع السلطان فاتح، أو في جامع السلطان بايزيد.

وهناك روايات تقول بأن بعضهم كان يتنكر ثم يتجول في العديد من الجوامع والمساجد.

الهوامش

(١) الأمانات المقدسة: هي الأمانات المحفوظة عن الرسول ﷺ وعن بعض الأنبياء ﷺ، وبعض الصحابة ﷺ. (المترجم)

(٢) الخرقة الشريفة: وهو جناح يحتوي على بردة رسول الله ﷺ محفوظةٍ في خزانة من فضة في "جناح السعادة" في قصر طوب قابي. (المترجم)

(٣) لم يكونوا يستطيعون غسل البردة الشريفة، لذا توسلوا إلى هذه الطريقة للحصول على ما أطلقوا عليه اسم "ماء الخرقة الشريفة" وذلك بوضع زر موضوع في ياقة البردة ثم وضع هذا الزر في الماء وغليه قليلًا. علمًا بأنه تم العدول عن هذه المراسيم بعد عهد السلطان محمود الثاني. (المترجم)

(٤) نوع من الحلوى. (المترجم)

مشاهد كونية في مساجد عثمانية(*)

المسجد في العمارة الإسلامية، هو المبنى الرئيس الذي يتعبد فيه المسلمون، ويقيمون الصلاة، ويذكرون الله بالغدو والآصال.. لذلك حظي بناء المسجد في الحضارة الإسلامية بمكانة كبيرة، فكان أول بناء يبنى في الأمصار والمدن المفتوحة، وظل هو النواة التي يلتف ويطوف حولها المعمار في المجتمعات الإسلامية.

واختلفت أشكال المساجد من حضارة وبيئة لأخرى، فكل طراز له سمات انعكست على عناصره المختلفة، وهو ما يمكن ملاحظته بسهوله في اختلاف أشكال المآذن والقباب والزخارف وغيرها.

ولكن يكمن وراء العديد من تلك العناصر والمفردات المعمارية التي احتوتها المساجد، الكثير من الإشارات والرموز التي تحتاج إلى التأمل والتفكير والمعايشة لإدراك معانيها واستجلاء مراميها.

لقد أثارت زياراتي ومشاهداتي للمساجد القديمة في إسطنبول وبورصة وأنقرة -المرة تلو الأخرى- العديد من الأفكار والتساؤلات والتأملات التي كانت تنمو وتتبلور مع الوقت، مما جعلني أستنتج أن المصمم المعماري الذي قام بإبداع تلك المساجد، كان يتعامل

(*) أ. د. **يحي وزيري** [كلية الآثار، جامعة القاهرة/مصر]

معها وكأنها كون مصغر ينعكس فيه العديد من المشاهد الكونية التي عبّر عنها بمفردات معمارية وبتشكيلات زخرفية وفنية، وربما في بعض الأحيان بآيات قرآنية تنقش على حوائط المسجد، ليبث رسالة مباشرة لمن لم يستطع فهم الرسائل الرمزية الأخرى التي تدعو -كذلك- إلى التأمل والتدبر.

دعونا نبدأ تلك الرحلة التدبرية من خلال المشاهد الكونية التي حوتها العديد من المساجد العثمانية:

١- "السماء-القبة"

سار تصميم المساجد الأولى على نهج المسجد النبوي بالمدينة المنورة، حيث كان الفناء المكشوف هو العنصر الأساس الذي أحيط بالظُّلاّت والمجنبات، ثم تطورت وتنوعت طرز المساجد إلى أن ظهر طراز المسجد ذي القبة المسيطرة، وهو ما امتاز به طراز المساجد العثمانية، والقبة هنا إلى جانب أنها حل وظيفي إنشائي لتغطية أكبر مساحة من قاعة الصلاة بدون أعمدة -اللهم إلا على أطراف القبة نفسها- فإنها من جهة أخرى ترمز إلى قبة السماء التي تعدّ آية من الآيات الكونية الدالة على قدرة الخالق العظيم الذي رفع السماء بغير عمد ترونها.

٢- "الشمس-الثريا"

إن إشارة القبة في عمارة المساجد العثمانية إلى السماء، ربما يؤكده هذا المشهد الذي أثار انتباهي في مسجد السلطان أحمد بإسطنبول وغيره من المساجد الأخرى.

فخلال زياراتي المتعددة لمسجد السلطان أحمد، لفت نظري تصميم الثريات التي تتدلى من سقف القبة بقاعة الصلاة الرئيسة، فأساس تصميمها عبارة عن دائرة متوسطة يخرج منها العديد من الخطوط المتعرجة التي تماثل أشعة الشمس.

وفي مساجد أخرى كـ"المسجد الجديد" (يْنِي جامع)، تأخذ الثريا الرئيسية بقاعة الصلاة الشكلَ الدائري (وربما تتعدد الدوائر)، حيث تتدلى منها المصابيح والقناديل في منظر يوحي إلى مصابيح السماء، فالفكرة والرؤية واحدة، فالثريا إما هي رمز للشمس، أو رمز لمصابيح السماء.

هنا تكتمل الرؤية والفكرة، قبة المسجد ترمز إلى السماء، والثريا ترمز إلى الشمس بأشعتها الدافئة الحنونة (أو مصابيح السماء)، وكلها إشارات كونية رمزية تنسج ملامح الفكرة الرئيسية، وتؤكد أن "المسجد كون صغير" أو صورة مصغرة لهذا الكون الرحيب.

٣- "المجموعة الشمسية-المنبر"

فإذا ما انتقلنا سريعًا إلى المسجد الكبير في مدينة بورصة، رأينا مشهدًا كونيًّا آخر، عبّر عنه الفنان والمصمم في هذه المرة على ريشة المنبر الخشبي للمسجد.

فعندما تنظر لهذا المنبر، لأول وهلة يبدو لك كغيره من منابر المساجد المنتشرة في كل مساجد العالم، ولكن بإمعان النظر يتبيّن أنه منبر غير تقليدي؛ حيث على الجانب الشرقي للمنبر، تم التعبير بطريقة مباشرة عن المجموعة الشمسية عبر أنصاف من الكرات البارزة وضعت خلال الأطباق النجمية التي تزين ريشة

المنبر. والإبداع في ذلك يظهر في أن المسافات بينها تحاكي تمامًا المسافات الحقيقية بين الشمس وكواكب المجموعة الشمسية التي تطوف حولها، وبالطبع بمقياس رسم أصغر.

شواهد وأدلة الفكرة ما زالت تتجمع وتتساند لتؤكد الرؤية المطروحة، والتي تتأكد وتتنوع من مسجد لآخر، ومن مدينة لأخرى، أو حتى من زمن لآخر.. إنه إحساس وعلم الفنان والمصمم المسلم الذي تشكلت عقليته نتيجة الرؤية القرآنية التي تحث دائمًا على الأمر بالنظر في الطبيعة، وملكوت السماوات والأرض.

٤- "الطبيعة-الزخارف النباتية"

تنقسم الزخارف الإسلامية بصفة عامة إلى قسمين أساسيين: الزخارف الهندسية، والزخارف النباتية، ويمثلان معًا ما يعرف بمصطلح "الأرابيسك" أو "العربسة".

ولكن يلاحظ أن الزخارف النباتية هي المسيطرة في تزيين عناصر المساجد العثمانية على اختلافها، تلمح ذلك في حوائط المسجد وعقوده وسقفه وقبابه، حتى النوافذ الملونة وربما البسط والسجاجيد، تلمح دائمًا الزخارف النباتية وزهرة "التوليب" المنتشرة في البيئة التركية.

وكأن المعماري التركي يحاول أن ينقل الطبيعة بأشجارها وأزهارها إلى داخل المسجد، فلا يفتقد تلك الطبيعة التي هي خلق وإبداع المولى ﷻ، فيجمع العابد داخل المسجد بين ذكر اللسان وذكر الأبصار من خلال رؤية تلك الزخارف النباتية.

٥- "الظل-السجود"

الظلال هو أحد الظواهر الطبيعية التي أشار إليها القرآن الكريم في العديد من السور والآيات القرآنية، وقد نبهت العديد من تلك الآيات إلى سجود الظلال كقوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ**﴾ (النحل:٤٨)، أو كقوله تعالى: ﴿**وَلِلهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلاَلُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ**﴾ (الرعد:١٥).

ومن عجائب ما تم رصده بمسجد ديفريجي الكبير في مدينة سيواس التركية، هو ظهور "ظل إنسان يصلّي" على الباب الغربي للمسجد، يبلغ طوله أربعة أمتار، ويبقى قائمًا حتى انقضاء صلاة العصر ثم يغيب ويختفي.. فمن أين أتت تلك الفكرة المدهشة للمصمم؟ وهل هي تطبيق مباشر لما ورد في القرآن الكريم عن سجود الظلال؟

سواء أكانت تلك الفرضية صحيحة أم لا، فما يهمنا هنا أن نسجل احتواء مدخل المسجد على فكرة التعبير عن الصلاة باستخدام الظل كأحد الظواهر الطبيعية، والتي نبه القرآن الكريم على أهمية تأملها وتتبعها وفهمها.

٦- "الأهلة-الإشارة إلى اتجاه القبلة"

ربما لا تنفرد المساجد العثمانية بهذا المشهد الكوني، ونقصد وضع الأهلّة فوق القباب وأعلى نهايات المآذن مواجهة لمكة المكرمة كي تشير إلى اتجاه القبلة، فاستخدام الأهلة النحاسية أو البرونز وغيره من المعادن منتشر تقريبًا في كل المساجد القديمة والحديثة.

ولكن وجود تلك الأهلة، والتي أصبحت رمزًا للإسلام بصفة عامة وللمساجد بصفة خاصة، ربما يؤكد فكر استخدام المشاهد والآيات الكونية في عناصر المساجد بصفة عامة والمساجد العثمانية بصفة خاصة، وهو ما أكدته المشاهد السابقة التي أشرنا إليها.

٧- استخدام الآيات القرآنية

تعتبر كل المشاهد الكونية السابقة والتي استخدمت في عمارة المساجد العثمانية بصفة خاصة تعبيرًا غير مباشر عن فكرة "المسجد كون صغير"، كما توضح تأثر الفنان والمعماري المصمم بما أورده القرآن الكريم من آيات الآفاق والأنفس وأهمية تدبرها وفهمها.

ولكن يلاحظ أيضًا أنه عادة ما يتم التعبير عن هذا المفهوم بطريقة مباشرة، تتمثل في كتابة بعض الآيات القرآنية، والتي تعبّر عن آية كونية معينة على رقبة القبة الرئيسية من الداخل، كقوله تعالى: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ (النور:٣٥) في إشارة إلى أهمية النور بشقيه المعنوي والمادي لحياة الإنسان الروحية والمادية، ونلحظ استخدام هذه الآية في رقبة قبة مسجد السلطان أحمد على سبيل المثال، وهو تقليد انتشر في أغلب المساجد الإسلامية على اختلاف طرزها.

إن ربط القرآن الكريم للعبادة والدعاء والذكر والتسبيح بأوقات معينة كالغداة والعشي كقوله تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ (الكهف:٢٨)، أو الصباح والمساء كقوله تعالى: ﴿**فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ**﴾ (الروم:١٧)، أو ربط مواقيت الصلاة

بظواهر فلكية معينة كقوله تعالى: ﴿**أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا**﴾ (الإسراء:٧٨).. كل هذا، كان الهدف منه ربط الإنسان المؤمن العابد الذاكر، بالعديد من الآيات الكونية الدالة على وجود الله وقدرته، مما أرسى مفهوم العبادة بمفهومها الواسع والذي لا يقتصر فقط على الصلاة أو الحج أو الصوم، ليشمل التفكر في ملكوت السماوات والأرض.

إن وجود العديد من المشاهد والإشارات الكونية في المساجد العثمانية أو في غيرها من مساجد الطرز الأخرى، لا يعتبر بذلك شيئًا غريبًا أو مستبعدًا، لأنه في ذلك الوقت والزمن، كانت الأمة الإسلامية مرتبطة بقرآنها وبسنّة نبيها ﷺ ارتباطًا عميقًا، أدى إلى إفراز تلك الرؤية لدى المعماري والفنان المسلم، والتي انعكست بتلقائية وحِرَفية في تصميم العمران الإسلامي وفي صدارته المسجد بيت الله، أو لو شئت فلتقل صورة مصغرة من الكون الكبير، أو هكذا لابد أن يكون وأن نفهم ونعي.

لمسات الجمال في شواهد القبور العثمانية(*)

إن لم تكن تفهم لغة شواهد القبور العثمانية عند دخولك إلى المقبرة، فلن ترى سوى أعمدة من الرخام متشابهة، ولكن ما إن تتفحص هذه الشواهد بدقة حتى ترى أن لكل منها سمة تميزها عن الأخرى، فإن لكل شاهد غطاء أو قلنسوة مختلفة.

فهناك إشارات عديدة كل منها تدل على صفة من صفات الشخص المتوفى، وهذه القبور وشواهدها -بالنسبة لمن يفهم لسانها- مراقد لأشخاص من مهن ومشارب مختلفة؛ لأنك حيثما التفت رأيت سمات أشخاص مألوفين عندك، فتجد أشخاصًا من جميع المهن والمشارب والطبقات الاجتماعية يرقدون هناك.

الشاهد وجنس الراقد

يدل الشكل الخارجي لشاهد القبر وأنواع الزينة الموجودة عليه على جنس الراقد؛ فبينما يكون على شاهد الرجل ما يشبه القبعة أو العمامة، فإنّ شاهد قبر المرأة مزين بإكليل من الزهر.

(*) **طلحة أوغزلوإيل** [كاتب وباحث تركي]. الترجمة عن التركية: **أورخان محمد علي**.

وهذه الزينات محفورة على شكل "مزهرية" أو على شكل زهور مختلفة كزهور السوسن وزهرة النجمة أو النرجس أو القرنفل أو الشقائق أو الفوشية أو الزنبق أو أزهار الخوخ أو اللوز أو مع شكل أغصان لشجيرات هذه الزهور

وعلى أشكال هذه الزهور نرى فنًّا رفيعًا يهتم بالعديد من التفاصيل، فكأن كل زهرة على هذه النصب والشواهد الحجرية تريد أن تقول شيئًا بلسان حالها لزائر المقبرة؛ فمثلا نرى في كثير من هذه الأماكن نقش زوج من الزنبق بخمس أوراق وكأنها يد ضارعة ممتدة للدعاء. وفي عهد "لَاله" (الزنبق) تحولت هذه الزنابق إلى أشكال مجسمة، فأصبحت تحفر بثلاثة أبعاد، وبمرور الوقت بدأت هذه الزهور ترسم ضمن زهرية أو أصيص الزهور.

ونرى زينة الزهور موجودة إلى حد مّا على شواهد قبور الرجال، إذ كان شيخ الإسلام يضع زهرة أو وردة على طرف عمامته الكبيرة، وكان الكاتب يضع ريشة على عمامته، وبعد انتشار الطربوش استمر تزيين أطراف غطاء الرأس فكان أسفل الطربوش يزين بصور الزهور. فانعكس هذا الاهتمام بالجمال وامتد حتى إلى القبور وإلى شواهدها فنتجت ألوان من الجمال المثير للإعجاب.

الشاهد ومهنة الراحل

وكما أن الأشكال والرموز المنقوشة على القبور تشير إلى جنس الراقد، فإنها تشير إلى مهنته أيضًا، فإن كان بحارًا فلا بد من وجود إشارة أو رمز أو شكل حول مهنته هذه على شاهد قبره، فقد يكون الرمز صورة ساريةٍ أو شراع أو مرساة أو شارة البحرية العثمانية

وهناك لحود بحارين تشبه السفن وتحاط جوانبها بحبال غليظة أو بسلاسل حديدية تستعمل في السفن.

وأما إن كان المتوفى كاتبًا ويعيش على قلمه فلا بد أن تجد إشارة ترمز إلى هذا، مثل شكل لفائف الورق أو ريشة كتابة أو قلم من القصب. وإن كان رسامًا فتجد شارة الريشة أو المَلْوَن

وإن كان عسكريًّا فسترى على شاهد قبره إشارة إلى مهنته إما سيفًا أو مدفعًا أو خنجرًا أو قذيفة مدفع أو منظارًا مقربًا، وأما الضباط الذين وصلوا إلى رتب عالية في الجيش فهناك تفاصيل كثيرة على شواهد قبورهم، من صور لأسلحة، إذ يمكن القول، إنها تشكل مخزن ذخيرة حربية، ولا توضع هذه الصور والأشكال بشكل عشوائي، بل حول شارة الدولة العثمانية وحول طبل الحرب، حيث تتراص حول الشارة صور المدفع والسيف والكنانة وصَوْلجان الحرب والبوق... والأسلحة المختارة في هذا الطراز من التزيين تكون مما كان المتوفى يستعمله عندما كان حيًّا، كما تتم الإشارة إلى رتبته العسكرية على جانبي شاهد القبر.

كثيرًا ما كان العسكري يختار شارة الدولة العثمانية لتزيين شاهد قبره.

وقد وضعت شارة الدولة العثمانية لأول مرة في عهد السلطان سليم الثالث، ونظرًا لكون هذه الشارة تَحمل -إلى جانب الرموز العسكرية- رموزًا دينية ووطنية، فقد أحبها الشعب وتبناها.

لـذا اسـتعملت هذه الشـارة بشـكل كبير فـي تزيين شـواهد القبور وبخاصة في العهود التي تلت عهد السلطان سليم الثالث، ووضعت تحت شـارة الدولة العثمانية الأوسـمة والميداليات التي حصل عليها المتوفى، فالعديد من شـواهد باشـوات الدولة العثمانية مزينة بوسـام المجيدي أو الحميدي.

الشاهد ومشرب المتوفى

وهناك بعض الأشـكال والرموز في شـاهد القبر تشـير إلى مشرب المتوفى، فإن كان مولويًّا يعمل في الزاوية حفر على شاهد قبره شكل عمامـة مولويـة، أمـا المنتسـب الاعتيـادي فيكتفى بحفر سـكة مولوية علـى شـاهد قبـره، وإن كان مـن مريـدي الطريقة القادريـة فنجد على الشاهد زخرفة تسمى "زهرة القادرية".

وتتغيـر الزخـارف المحيطـة بالشـكل الرئيسـي حسـب فـروع هذه الطـرق الصوفيـة، فمثلا يُرمـز للفرع الرومي للقادرية بشـكل تاج ذي ثمانية رؤوس في وسطه زهرة الطريقة القادرية.

وفـي شـاهد مريـد لفـرع آخـر مـن هـذه الطريقـة نجد نجمـة ذات ثماني عشرة زاوية، وقد تحفر هذه النجمة عند شواهد بعضهم ضمن تـاج حولـه عمامـة، أما على شـواهد أتبـاع الطريقـة "البَيرامية" الذين كانوا يلبسـون قلنسـوة سداسية فنجد شـكل هذه القلنسوة، بينما نجد على شواهد أتباع الطريقة النقشبندية تاجًا ذا أهداب.

وأمـا أتبـاع الطريقـة السـنبلية التـي أسسـها الشـيخ "سـنبل سـنان" فتحفر على شـواهد قبورهم شـكل السـنبلة كرمز لطريقتهم الصوفية.

ولا يقتصر التعريف بمشرب الراقد برموز طريقته الصوفية، بل أيضًا بالأشياء التي كان أتباع تلك الطريقة يكثرون من استعمالها؛ فنجد مثلًا في شواهد قبور أتباع الطريقة البكتاشية أشكال الكشكول والفأس وحجر التسليم ذي اثنتي عشرة زاوية.

غربيون تأثروا بالشواهد

عند الولوج إلى مقبرة عثمانية لا يداخل الإنسان أي ضيق أو اكتئاب، لأن الرموز المختلفة والزخارف المتنوعة على كل شاهد من شواهدها، تُطْلع الإنسان على معان عميقة وتبين له الوجه الجميل للموت.

وهذا الجمال المثير جلب انتباه الأجانب مثلما جلب انتباهنا؛ فنرى أن العديد من السياح الأجانب الذين زاروا الدولة العثمانية تأثروا بمنظر قبورها حيث نرى السائح "أدموندو أميك" الذي زار هذه البلاد قبل مئات السنين يقول:

> "حول الجامع، تحت ظلال الأشجار الباسقة، بين الأزهار المتنوعة المتلونة، ارتفعت أضرحة السلاطين والوزراء وكبار رجال القصر، ارتفعت الأضرحة الرخامية التي زُينت بالنقوش البديعة المجسمة. إنها مدينة أضرحة أخاذة، ساد الهدوء فيها واحتضن البياض تربتها وأورف شجرها وأظل.. أو إنها حي أرستقراطي قد لفه جمال أخروي حزين وألقى في قلب الزائر أحاسيس التوقير والاحترام والمهابة.
>
> هنا في حديقة المقبرة ترى الأكاليل الخضراء المتدلية بشكل باقات، والجدران البيضاء التي ترتفع عليها أغصان أشجار

الخرنوب والبلوط والرياحين، وتدخل من مشبّكات الضريح الحديدية المزخرفة ومن نوافذها القوسية الشكل ضمن حُزَم ناعمة من نور الشمس حيث تتلون هذه القبور الرخامية بالظلال الخضراء للأشجار.

لا تجد في أي مكان آخر في إسطنبول مثل هذه الأناقة والرقة للفن الإسلامي الذي يُجمّل صورة الموت ويجعلك تتأمله دون خوف، لذا فهذا الضريح الجميل الأنيق هو في الوقت نفسه حديقة وقصر ومعبد يجعلك تردد الأدعية من جهة، وتبتسم ابتسامة حزن وأسى من جهة أخرى".

ويقول أحد الغربيين المشهورين المختصين بالمقابر العثمانية إن التجول في هذه المقابر يعد من أكثر الأمور إثارة ويضيف: "عندما أتسلق الطريق نحو مقبرة أبي أيوب الأنصاري أحس وكأنني قد اكتشفت قمة لم يكتشفها أحد قبلي في جبال هملايا".

ولم يقتصر هذا الإعجاب على هذين الباحثين، فهناك العديد من الكتاب والسياح الأجانب منهم "بارلت" و"سباتير" و"لوتي" و"باردو" و"نرفال" وغيرهم تأثروا بعمق من هذه المقابر وذكروها بإعجاب في كتبهم.

والحقيقة أن شواهد القبور العثمانية لم تكن أبدًا مجرد أحجار تعطي معلومات عن هوية الشخص المتوفى، بل كانت تشير إلى مستوى الرسم البديع والفن الرفيع اللذين أنجزهما العثمانيون منذ قرون، ولم يكن الغرب هو وحده الذي أوجد هذا الفن كما يدّعي.

الشاهد وأشكال معبرة

ولم يتم الاكتفاء هنا برسم العناصر والمواد فقط، بل تم تحميلها بمعانٍ عميقة، فمثلًا إن أهم شيء يمكن عمله للميت هو الدعاء له. وهذا الدعاء نجده قد تحول إلى شيء مادي ملموس معروض لأنظار جميع زوار المقبرة، وإن أهم دعاء للميت وأكثره شيوعًا هو "جعل الله قبره روضة من رياض الجنة". وإذا ما أمعنا النظر في شواهد القبور العثمانية رأينا أن الدعاء قد انقلب إلى رسوم وأشكال؛ فأصحاب هذا الفن قد نجحوا في ترجمة الدعاء برسمهم فواكه الجنة على الشاهد. فلسان حالهم يقول: "لقد نحتنا هذه الفواكه على شاهد قبر المتوفى داعين الله أن يهبها إياه في الجنة".

ومن ثم نرى أن الفواكه التي ذكرت في القرآن الكريم نحتت على هذه الشواهد، لا سيما التمر، والنخيل المثقلة بهذا التمر

وعادة ما تغطي أشكال ونقوش سعف النخل سطح الشاهد وتنتشر فيه بأكمله. وفي القسم الأسفل من الشاهد تتدلى عذوق النخل وسعفها؛ فنرى في العديد من الشواهد الأشكال والنقوش لعناقيد العنب والنخل والتمر والرمان وأشجار الزيتون.

فأمام هذا الفن وهذه الزخارف لا نملك إلا سؤال الله تعالى أن يرزق صاحب هذا القبر هذه الثمار ويطعمه منها.

ومن أكثرما نحت على الشواهد شجرة السرو؛ وذلك لحكَم دقيقة مثل كونها شجرة دائمة الخضرة في الصيف والشتاء، ولها عطر خاص بها، وبسبب هذا العطر لا تقربها الحشرات ولا تتكاثر فيها، كما أنها بقامتها المستقيمة أصبحت في نظر البعض رمزًا لحرف

الألف الذي هو الحرف الأول من كلمة الجلالة "الله"، كما أنها ترمز إلى التوحيد، وبقامتها المديدة والمستقيمة ترمز إلى الاستقامة والحقيقة أيضًا.

ومن أكثر الأشكال التي تلفت أنظارنا على الشواهد هو القنديل، وقد نحت بأشكال متعددة بلغت الأربعين، وكل هذه القناديل تبدو معلقة بسلسلة حديدية، تُربط هذه السلسلة بفم القنديل تارة، وبالحلقات الثلاث الموجودة في جانبه تارة أخرى.

والمقصود من رسم القنديل على شاهد القبر هو التنوير، أي التنوير الإلهي لقبر المتوفى، وأحيانًا ينقش اسم الجلالة على القنديل.

ومن الأشكال الأخرى التي تجلب النظر في شواهد القبور هي نقش الخنجر

فالخنجر هو السلاح المستعمل في القتال القريب، وله نصل مقوس أو مستقيم، وهو سلاح حاد الطرف يوضع في قراب محمول على جانب الإنسان.

وفي شواهد القبور العثمانية المفتوحة يرسم الخنجر على جانب اللحد. وفي القبور المغلقة يرسم فوق اللحد.

وصور الخنجر وأشكالها واحدة، فرأس قبضة الخنجر يكون مروحي الشكل، أما القبضة نفسها فمنتظمة قليلًا، وترسم الخناجر وهي في جرابها، مما يعني أن صاحب الخنجر قد مات. وينتهي الخنجر بنهاية منحنية، ويتجه الجزء الحاد منه نحو قدم صاحب القبر.

أكثر الرسوم والنقوش والزينات التي تأخذ محلها في شواهد القبور العثمانية، هي القبور التي لها لحود. ففيها نرى أن أوجه اللحد تكون كلها مغطاة بهذه النقوش وكأنها حديقة من الأزهار والورود.

وأحيانًا نجد في القسم الأمامي أو الوسطي من لحد القبر زخرفةَ وردة على جانبيها مزهريتان فيهما الورود وأزهار النجمية أو الزنابق والقرنفل.

وفي بعض اللحود نشاهد نقوش حراشف السمك في إطار يلتف حول الجزء العلوي من اللحد أو نقوش زهرة اللوتس (النيلوفر). وفي اللحود الحجرية نرى في قسم الرأس والقدم نقوشًا لشموس نصفية مقسمة إلى شرائح تقترن بشاهد القبر، وتوجد عادة في داخل نقش الشمس في القسم العلوي بعض الكتابات، ويتصل القسم العلوي للّحد على صورة سقف مثلث الشكل، وعادة ما يتزين القسم العلوي من اللحد بنقوش وأنواع من الزينات، بحيث يبدو وكأنه قماش مزين.

وقد شيدت القبور اللحدية في القرنين التاسع عشر والعشرين، ولكن يمكن مشاهدة قبر قديم ذي لحد في مقبرة أبي أيوب الأنصاري في قبر بنت السلطان أحمد الثالث الأميرة "صالحة"، حيث نرى النقوش على جميع أوجه اللحد بشكل أعمدة صغيرة متصلة بعضها ببعض بالأقواس، وفي وسط كل قوس نرى وجود صدَفة مَحار. وفي بعض لحود القبور نرى نقوشًا لأعمدة على شكل الساعة الرملية. وتغطى الرموز الموجودة على وجوه بعض اللحود بنقوش لأوراق الحرشف البري، كما تغطي أشكال هذه الأوراق جهة القدم وجهة الرأس في بعض اللحود، وتوجد أحيانًا مشكاة في الأوجه الضيقة من اللحد.

أما نقوش القمر والنجمة المجسمة والموجودة فوق كل مشكاة وبين الأعمدة المنقوشة فيها فتعود في معظمها إلى ما بعد عهد المشروطية الثانية.

ولما كان الغرض من شواهد القبور هو تعريف صاحب القبر إلى الأحياء، وطلب قراءة الفاتحة على روحه، فإن أوجه اللحود المتوجهة إلى الطريق تكون أكثر زينة لجلب الأنظار إليها؛ لذا فإن الرموز الخاصة توضع عادة على الجانب المطل على الطريق.

لا يمكن إيفاء حق وصف الزينات والنقوش لهذه المقابر التاريخية التي هي بمثابة متاحف مفتوحة عامة لفن الرخام والتي جلبت أنظار العالم بأكمله، ومن يفهم لغة هذه النقوش والرموز فسيجد في كل شكل وفي كل نقشة معلومة حول صاحب القبر.

إن كل شاهد قبر يقول بلسان حاله "إن الموت ليس عدمًا، وهو يحمل معاني دقيقة وعميقة"، ثم يعرض هذه المعاني بفن رفيع ونقش بديع تتمتع به الأنظار وتستروح القلوب.

المنمنمات العثمانية.. تراث إسلامي مشترك(*)

لقد أعقب فتح القسطنطينية وتحويلها إلى عاصمة الدولة، طفرة في تطور كل الفنون الجميلة ومن بينها فن المنمنمات.

فقد بسط الفاتح جناحي رعايته لكل فروع الفكر والأدب والفن، واستدعى إلى قصره كبار العلماء والشعراء والفنانين ليس من الشرق فقط، بل ومن إيطاليا أيضًا، بل وصل الأمر بالسلطان محمد الفاتح أن افتتح في قصره الجديد "نَقِشْخانَه" (أي بيتًا للرسم)، واستدعى له "بابانقاش" الأوزبكي الأصل.

وفي هذه الورشة أي المرسَم، أمر السلطان بنسخ المخطوطات النادرة لحساب مكتبته. وكان يجزل العطاء للمذهبين الذين يقومون بتذهيب هذه المخطوطات بنفس درجة السخاء التي كان يتعامل بها مع النسّاخ والمجلدين والخطاطين والمترجمين... وقد أبدع هؤلاء النُقّاش في رسوماتهم المنياتورية المنمنمة في هذه المخطوطات التي بدأت تظهر وترى النور، وتتناولها أيدي الباحثين والمهتمين.

(*) **الصفصافي أحمد القطوري** [جامعة عين شمس/مصر]

لـن نجافـي الحقيقـة لو قلنا: إن السـلطان محمـد الفاتـح قد افتتح عمليًّـا فـي قصـره الجديد ما يمكن أن نطلق عليه بلغة اليوم "أكاديمية للفنـون والعلـوم والترجمـة"، فقوائم الكتـب التي بـدأت تظهر، تُقدم لكل مهتم الجديدَ كل يوم في هذا المضمار.

تسـجل كتـب التاريـخ أن السـلطان محمـد الفاتـح قد عيَّن رسـامًا يدعى "سنان بك" كرئيس للنقَّاشين في قصره، كما يقال إن سنان بك هـذا قـد درس فن الرسـم في البندقية، ومـا زالت خزائن متحف قصر طـوب قابـي بإسـطنبول تحتوي على بورتريه للسـلطان محمد الفاتـح من أعمال هذا الفنان.

بالإضافـة إلـى ذلـك فقـد دعـى السـلطان محمـد الفاتـح، الرسـام الإيطالـي "بلّليني" (*Bellini*) إلـى إسـطنبول للعيـش فـي كنفـه سـنة (١٤٨٠م)، حيـث رسـم لـه صـورًا وصمم لـه ميدالياته ونياشـينه التي كان يقدمها لكبار الزوار والمبدعين في كل ميادين العلوم والفنون.

ومن بين محتويات دائرة الخزينة في قصر طوب قابي هناك ألبوم للصور المنياتورية يسمى "ألبوم الفاتح"، وتحمل بعض هذه الرسوم توقيعًـا بالقلـم الأسـود لـ"يعقوب بك الآق قُويُنْلُـو"، فضلًا عن وجود رسوم للآخرين.

إن التطـور الـذي بـدأ مـع السـلطان محمـد الفاتـح فـي المنياتور فـي العصـر العثماني، قد وصل إلى نضجه الكامل في عهد السـلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م).

ومـن الثابـت أن معظـم بلـدان العالـم الإسـلامي -فـي غالبيتهـا العظمـى- قـد خضعـت للنفـوذ العثماني في عصري السـلطان سـليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠م) والسلطان سليمان القانوني، وامتدت حدود

الدولة في العالم الإسلامي إلى تلمسان غربًا وإلى تبريز وإيران وتفليس شرقًا.

وقد شهد العالم الإسلامي امتزاجًا وانصهارًا بين أقوامه وأجناسه في هذه الفترة، بحيث يصعب أن نجد له مثيلًا في أي عصر آخر.

وكما أن عهد "القانوني" كان بمثابة العصر الذهبي في كل نواحي الحياة في البلاد العثمانية؛ فإن فن المنمنمات هو الآخر قد تطور وازدهر في هذا العصر ازدهارًا ملموسًا، ونشأ في كنفه العديد من المبدعين؛ أمثال "قينجي محمود" و"إبراهيم شلبي" و"نيكارى" و"حيدر رئيس" و"النقاش عثمان" و"محمد بك" و"كفلي محمد شلبي"... وهؤلاء جميعًا كانوا من الأساتذة والرواد الكبار في الفن.

أسماء لامعة وأعمال خالدة

ومن أكبر الأسماء التي لمعت في هذا الفن خلال القرن السابع عشر؛ النقّاش أحمد مصطفى، أما الذي لوّن القرن الثامن عشر بزخارفه ورسوماته فهو "لوني" (عبد الجليل شلبي الأدِرْنَوي).

وقد عُيّن "لوني" رئيسًا لفناني السراي العثماني في عصر أحمد الثالث (١٧٠٣-١٧٣٠م)، وأعماله تستحق الإعجاب والتقدير، حيث قام برسم (١٣٧) لوحة منمنمات زيَّن بها "ديوان" الشاعر "وهبي" الذي نظمه بمناسبة حفلة ختان الأمير سليمان نجل السلطان أحمد الثالث، ولقد خط "لوني" لنفسه مدرسة خاصة به في فن المنياتور العثماني، وظل هو أستاذها الأمثل.

إن أهم الموضوعات التي تطرق إليها فن المنمنمات العثماني؛ "الشبيه" (البورتريهات) أيْ الصور الشخصية، والموضوعات

التاريخية، وحياة السراي، والحروب التي خاضتها الدولة، وحصار السلاطين لمواقع الأعداء وقلاعهم...

وأهم الخصائص التي تميز بها فن الرسم المنياتوري في العصر العثماني، إتقانه لرسم الموضوعات التي توضح المعارك التاريخية، وتزيين الكتب التي تقدم إلى السلاطين.

كما أن "السورنامه"؛ أي كتب الاحتفالات والمهرجانات والمواكب واستعراض الجيش والأسطول، والـ"هُنَرْنامه"؛ أي كتب الحرف والمهن ومهارات الحرفيين كانت من أهم الميادين التي أبدع فيها الفنانون العثمانيون حتى القرن السابع عشر الميلادي.

ويُعتبر "لوني" الذي نشأ وتربى في القرن الثامن عشر، هو أول مَن غيّر النمط التقليدي الكلاسيكي للمنمنمات العثمانية.

وإذا كان فن رسم المنمنمات العثمانية قد خط لنفسه أسلوبًا خاصًا به في الرسم والتلوين والتكوينات الفنية، إلا أنه أعطى أهمية عظمى للأسلوب؛ فلم يلتفت للأبعاد الثلاثة كما كان متبعًا، بل جعل الشخوص تصطف فوق بعضها البعض، ويدلل الفنان بالحجم على عظمة الشخصية المقصودة.

إن تصغير رسم الشخوص في خلفية الصورة لم يقلل بأي شكل من الأشكال من جمال اللون ودقة الخطوط، وبدلًا من فوران الرومانسية وسيطرتها على موضوع الصورة والطبيعة التي تحيط بالموضوع، فقد سادت الخطوط البسيطة والمريحة والمرحة في نفس الوقت.

ولقد أشاع اللون البرّاق نوعًا من الرونق والبهجة على اللوحة، وحلَّت الألوان الأحمر والأزرق والأخضر والأصفر والبنفسجي والبرتقالي والبَمْبَه والبني في منمنمات العصر العثماني محل اللون الأحمر الكراميدي لرسومات الجدران في أواسط آسيا.

مرآة العصر العثماني

إن المنمنمات هي في العادة ترجمة حيّة ومتحركة للتاريخ والشعر والحكايات، قد تكون أشبه بفن السينما في عصرنا الحالي؛ فمجرد إمعان النظر في إحدى المنمنمات يجعلنا نستحضر أمام أعيننا حياةَ المجتمع الذي عاش فيه الفنان الذي أبدعها، وفلسفاته الحياتية ونظام أخلاقياته وأعراف وعادات ذلك العصر.

كما تجسد لنا ملبوساته وأفراحه ومباهجه، وتضع أحداثه التاريخية حيّة ومتحركة أمام أعيننا.

فقد بيَّن الفنان في "بيان منازل سفر عراقين" المواقع المتعددة التي توقفت بها قوات السلطان سليمان القانوني عند توجهه لفتح العراق وفارس في عامي (١٥٣٤-١٥٣٥م)، والصور تبيّن هذه المراحل على امتداد المسافة بين إسطنبول وتبريز ثم العودة عن طريق العراق، وجاء ذلك في ١٢٨ منمنمة.

كما نجد في هذا العمل صورًا لعدد من المدن الكبيرة بالأوصاف التي كانت عليها تلك المدن، وجاء ذلك كله بمهارة فائقة، كذلك صورت الأماكن التي توقفت بها الحملة أو مرت عليها، وتم هذا خلال خطوط بسيطة وبحيوية ظاهرة تجلت في أسوار المدن

والقلاع، هذا إلى جانب رسم الجبال والأشجار والحيوانات؛ ومنها الأرانب والغزلان والأيائل وأنواع البط، وكلها بألوان زاهية تنم عن حب غامر للطبيعة.

ويضم كتاب تاريخ السلطان "بايزيد" عشرة منمنمات تحكي قصة الصراع بين "بايزيد الثاني" و"جَمْ سلطان".

إنها تحوي عددًا من الموانئ إلى جانب الحصون والقلاع بطريقة دقيقة ومنظمة، بينما تحوي "سليمان نامه" على ٣٢ منمنمة تصور هي الأخرى مدنًا وقلاعًا وموانيًا تتصل كلها بحملات السلطان سليمان القانوني على بلاد المجر عام (١٥٤٣م)، وكذا غارات "خير الدين بربروس باشا" في البحر المتوسط.

ولم يمنع هذا من تصوير الكثير من أنواع الأشجار والأزهار والجبال والتلال وشتى أنواع التضاريس الطبوغرافية، وهناك شبه، بل يمكن القول إنها متطابقة مع ما ورد في منازل سفر عراقين.

وهناك عمل عظيم الأهمية، ثنائي أو مثنوي المقاطع، مكتوب بالفارسية على يد الخطاط الأذربيجاني "علي بن أمير بك الشرواني"، وتضم المخطوطة ٦٩ منمنمة، وتصور أحداثًا مختلفة في عصر سليمان القانوني؛ حيث تبدو فيها أبهة حفلات الاستقبال ببلاطه، وخروجه للصيد، ومعاركه وانتصاراته...

وجاءت المنمنمات كلها رائعة، سواء تلك التي رسمها الفنانون المحليّون بأساليبهم المختلفة، أو تلك التي رسمها الفنانون الأجانب، وامتزجت في هذا العمل المؤثرات الشرقية بالمؤثرات الغربية، وظهر

أسلوب وطراز يفيض بالحيوية وينطق بالواقعية، وتعطينا المناظر المتنوعة التي جمعت بين ترك وفرس وعرب ومجر... الكثيرَ من الملاحظات والمعلومات عن أنواع الملابس والأسلحة؛ فأشكال الدروع ومختلف الأسلحة والأعلام والملابس... كلها قد رسمت بدقة فائقة وواقعية تُظهر هيئة الفرسان الثقيلة التسليح، وما هناك من فوارق بينها وبين رجال الخيَّالة وحركتهم الخفيفة السريعة.

أما كتاب "هُنَرْنامه"؛ أي المهارات والحرف -وهو من رسومات الفنان "لقمان"- فيغطي الجزء الأول منه حياة ومعارك السلاطين من عثمان غازي إلى سليم الأول، وبه ٤٥ منمنمة، كما خُصصت منمنمات الجزء الثاني كلها للسلطان سليمان القانوني، وعددها ٩٥ منمنمة.

ومن الأعمال الأخرى الهامة والتي سبق الإشارة إليها "السُوزْنامه"، تضم ٤٣٧ منمنمة، وتصور احتفالات السلطان مراد الثالث بختان ولده شاه زاده.

وتمتاز صور هذه المرحلة بتوزيعات واضحة؛ حيث تنقسم الصورة إلى ساحات منفصلة، ومجموعات متجانسة، وصور لآدميين موزعة على جوانب اللوحات تاركة المجال للمنظر الطبيعي الخَلَوي، ولكنها تنم عن أن المنظر الخَلَوي وحركات الفرسان والحيوانات قد درست دراسة دقيقة ومتأنية.

ومن صور "السُوزْنامه" التي تتناول المهارات والحرف، نتعرف على مجموعاتٍ تناولها الفنان في تكوينات مستقلة، وعالج كل واحد من هذه التجمعات بأعلى درجات المهارة، وبالتالي أظهرت

هـذه الصـور دقة وانضباطاً كبيريـن لحياة وأعمال صناع وحرفيّي هذا العصر.

ومـن منمنمـات الصفحـات المتقابلـة، نجـد صـورًا للمهرجانـات التي كانت تُقيمها نقابات الحرفيين لإظهار مهاراتهم... ومنها نتعرف على الولائم وحفلات المرح والترفيه التي كانت تستمر ما يزيد عن أربعيـن يومًـا فـي "آت ميدانـي"؛ أي منطقـة مضمـار سـباق الخيل... وظهـرت فـي خلفية الصور قصر إبراهيم باشـا مـع مقاصير السـلطان وعلية القوم.

المهـم أننـا نتعرف مـن هذه الصور على طبقـات المجتمـع وحياة النـاس فـي إسـطنبول، وأحـوال التجـار والصنّـاع، وأنـواع المهـن السـائدة... كما تبيّن هذه الصـور ملابس العصر، وأدوات الصناعات السائدة.

فمشـاهدة هـذه الصور إلـى جانب أنها تبعث في المشـاهد المرح والبهجة اللذين تُشيعهما تلك الاحتفالات، فإنها تجعله يستعير صورًا من أحاسيس الناس ومشاعرهم في تلك المرحلة، وتعطيه معلومات وافية عن شتى مناحي العصر الذي يشاهده.

مرحلة النضج الفني

والصور التي ظهرت في عصر زهرة "اللاله" والتي أبدعها المصور "لونى" في "سـرنامه وهبي" أحسـن وثيقة لذلك العصر؛ إذ إنها تمثل مميـزات التصويـر في تلك الفترة أصدق تمثيل، فهي تمتاز من حيث الموضوع بالدقة والحرص على النِّسـب والأشـكال، وخلفية الصور

كانت بسيطة وغير مزدحمة بالتفاصيل، مما أعطى الفنان فرصة إظهار الرسوم الآدمية والتمييز بينها، كما مكّنه من وضعها في موضع مناسب للموضوع ولمركز الشخصية.

كذلك حرص المصور العثماني على إظهار الأبعاد الثلاثة للرسوم الآدمية عن طريق الظل وطريقة معالجة المنسوجات والملابس، مما يدل على أن فنان ذلك العصر كان على علم ودراية واسعة بالفنون والتأثيرات، سواء أكانت شرقية أم غربية، مع محافظته التامة على التقاليد والأصول والأساليب القديمة.

كذلك استمرت الصور الشخصية في التصوير العثماني دون انقطاع ولم تكن قاصرة على السلاطين وعلية القوم، بل امتدت حتى شملت عامة الناس والحرفيين وأرباب الفنون وجنود الإنكشارية، وكذا السفراء الأجانب.

ويمكن اختصار القول بأن عصر "اللاله" في تاريخ الفن المنياتوري العثماني، يعبّر عن مرحلة نضوج تام لشخصية التصوير العثماني جمعت بين الفهم الكامل للتأثيرات والتيارات الغربية المعاصرة مع الإبقاء والحفاظ على الشخصية والهوية العثمانية التراثية الأصيلة.

وتوجد أروع النماذج الفنية التي تعبّر عن فن المنياتور العثماني المشترك في متحف "طوب قابي" بمدينة إسطنبول، ومكتبة جامعة إسطنبول، والمكتبة القومية بها، إلى جانب مكتبة المتحف البريطاني في لندن، والمكتبة القومية في باريس، وكذا المكتبات العامة في برلين وفينا ومعظم دول أوربا وأمريكا... والذي يُقلّب صفحات

فهارس المخطوطات وما بها من صور نمنمية، يرى مدى الثراء الإسلامي في هذا الصدد.

ويكفي أن نعرف أن هناك ١٣,٥٣٣ لوحة منياتورية داخل الكتب والمخطوطات والألبومات الموجودة في متحف "طوب قابي" وحده، وأن هذه الكتب والمخطوطات والألبومات تبلغ ٤٥١ مجلدًا تعود إلى الفترة المحصورة فيما بين القرن الثاني عشر والقرن الثامن عشر فقط.

إذا ما عرفنا ذلك وفهمناه وأدركنا مغزاه، عرفنا أهمية الثروة والكنوز التي يمتلكها العالم الإسلامي، كتراث مشترك يصعب على كل الدسائس أن تنسبه إلى قوم دون آخر من الشعوب الإسلامية بقصد الوقيعة وإبعاد بعضها عن بعض.

العثمانيون والأماكن المقدسة في القدس الشريف(*)

ما بين حِرَاء والأَقْصى، ما بين مكة والقدس علاقات روحانية حَمِيمَة وطيدة في بناء صرح الحضارة الإسلامية.

ففي الأولى كان التَّعَبُّد وكان الوحي، وفي الثانية كان مهبط موكب الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

في الأقصى كانت محطة الانطلاق نحو "سدرة المنتهى" في العروج إلى السماوات العُلاَ، فالأقصى أُولى القبلتين وفيه كانت إمامة محمد ﷺ لكل الأنبياء.

في مكة أول الحرمين، وأول ما يُشد إليه الرحال، وفيها حراء أول مهابط الوحي؛ من هنا كان الربط عند المسلمين بين كل هذه الأماكن المقدَّسة والاهتمام بها كلها على حد سواء.

الفتح العثماني

والقدس ظلت عَرَبِيَّة حتى إبان العهد العثماني الذي استمر منذ سنة ٩٢٣هـ - ١٥١٧م إلى انهيار الدولة العثمانية نهائيًا في بدايات

(*) **الصفصافي أحمد القطوري** [جامعة عين شمس/مصر].

القرن العشرين؛ فقد كانت خاضعة للحكم المملوكي ولما أنهى السلطان سليم الأول حكم المماليك في مصر سنة ٩٢٣هـ - ١٥١٧م دخلت القدس بدورها تحت إدارة العثمانيين، وما أن استقرت الأمور للسلطان سليم في كل من سوريا ومصر ومعهما الحرمين الشريفين والقدس الشريف حتى أصدر فرماناته وأوامره بألا تُبْنَى كنائس أو معابد جديدة في المدن والقَصَبات والقرى التابعة لهذه المناطق، بل يُحَافظ على القائم منها فعلًا، وتُمْنَح الرعاية والصيانة اللازمة لتأمين قيامها بالمهام المنوطة بها.

وكان يُسمح بهدم القديم القائم منها وإعادة البناء في نفس المكان وبنفس الطراز المعماري المستخدم. وقد تمثل في ذلك بما فَعلَه سيدنا عمر الفاروق بن الخطاب في السنة الخامسة عشرة الهجرية حيث اعترف بكل الحقوق المَرْعِيَّة لكل الرعايا غير المسلمين بتعهد مكتوب.

وما كان من السلطان العثماني إلا أن فعل نفس الشيء حيث أصدر فرمانًا عقب ضم القدس يَحْفَظ لكل الرعايا من المسيحيين واليهود حقوقهم الدينية، وأَمَّن لهم بكل مذاهبهم وطوائفهم حق ممارسة الشعائر بدون أية عوائق.

وقد حدد في هذا الفرمان الذي سَطَّره قاضي القدس بخطه كل حقوقهم وطُرُق حماية هذه الحقوق ومنع أي تجاوز عليها، وهذا الفرمان موجود في "خزينة أوراق" البطريركية الأرمنية في القدس الشريف، وقد قام سركيز قاراقو الأرمني بنسخه عن الأصل الموجود في مكتبة البطريركية الأرمنية في القدس.

وفيما يلي نص الترجمة عن النص التركي حيث تعذر الحصول على نصِّه العربي:

فرمان القدس الشريف

"فليعمل بموجب النيشان الهمايوني...

إن النيشان الشريف، عالي الشأن للسلطان السامي، حامل الطغراء الخاص بخاقان العالم، وبالعون الرباني والمن السبحاني، فالحكم بما يلي:

بعون الله تعالى ورسوله قد جئنا إلى القدس الشريف، وفُتح بابها في يوم ٥٢ من شهر صفر الخير، وقد قَدِم الراهب المسمى سركيز الذي هو بطريرك الطائفة الأرمنية وفي مَعِيَّتِه سائر الرهبان والرعايا والبرايا. وقد سألنا العطايا وتمنى الإنعامات، وأن تظل تحت تصرفهم ورعايتهم كما هو سابق وسائد لبطارقة طائفة الأرمن الذين تولوا الضبط والإشراف من القديم لما هو تحت عُهْدَتهم من الكنائس والأَدْيِرَة وأماكن الزيارة وكذا الكنائس الأخرى الواقعة في الداخل والضواحي وكذا المعابد، ومنذ العهد العمري رضي الله عنه، وكذا معاهدة حضرة السلطان المرحوم الملك صلاح الدين والأوامر الشريفة المعطاة تجعل الضبط والتصرف على كنيسة القيامة، ومغارة بيت لحم، وبابها الواقع في الجهة الشمالية، والكنائس الكبرى، وماريعقوب وديرِ الزيتون، وحبس المسيح ونابلس بما فيهما من كنائس تخص سائر الأمم كالحبش والقبط والسريان للبطريرك الأرمني القائم والقاطن في كنائس ماريعقوب.

وينص النيشان الهمايوني على عدم تدخل أي فرد من الملل الأخرى، وقد مَنَحْتُ هذا النيشان الهمايوني مقرونا بالسعادة

وأَمرت بما هو آت يعمل بموجبه: أن تكون السيطرة والتصرف في الكنائس الكبرى المذكورة، والكنائس الواقعة في ضواحي وداخل البطريركية الأرمنية الكائنة في ماريعقوب، وكذا المعابد وسائر أماكن الزيارة والأديرة التي تتبع طوائف أخرى كالحبش والقبط والسريان.

فلهم ممارسة مراسمهم الدينية فيها، وضبطها ورعايتها بأنفسهم، ولا يحق لأي مَنْ كان أن يتدخل في تنصيب أو تعيين أو عزل من يقومون بالشؤون الدينية والإشراف على الرهبان والقساوسة، والميتروبوليد، والبيسكوبوس وسائر الأمور الدينية متروكة لهم ممثلة في البطريركية الأرمنية وما يتبعها من كنائس ومعابد وأديرة وسائر أماكن الزيارة عندهم، ولا يحق لأي فرد من غيرهم التدخل في أمورهم.

ويحق لسائر الأمم أن يدخلوا إلى كنيسة القيامة والتربة الواقعة وسطها، وإلى مقبرة السيدة العذراء الأم مريم الواقعة في ضواحي القدس الشريف، وإلى المغارة التي ولد فيها السيد المسيح عليه السلام في بيت لحم، وحفظ مفتاح بابها الشمالي، والشمعدانان الموجودان في داخل كنيسة القيامة والقناديل، وكذا القناديل الموجودة في داخل المقبرة وعلى بابها، والشموع التي توقد، والبخور، والحفاظ على المراسم والعبادات التي تتم داخل كنيسة القيامة وفقًا للعنعنات والمعتقدات حتى ظهور نار الشمع المقدَّس.

فيحق لجميع الأمم الدخول والدوران حولها، وزيارة الباب، ورؤية الذهب والأحجار الغالية على نافذتيها، ورؤية وزيارة المعبد الكائن بالداخل، وزيارة كل آبار الماء ومزارات ماريوحنا الكائنة في فناء

كنيسة القيامة، وزيارة حبس المسيح الواقع بالقرب من مار يعقوب في الضواحي، وزيارة غرف يعقوب في الضواحي، وزيارة الغرف والمضيفات الواقعة بالقرب من مغارة بيت لحم وأضرحتها.

كما يحق للبطريركية المذكورة لطائفة الأرمن الإشراف ورعاية كافة الحدائق والبساتين ومزارع الزيتون، وبالجملة جميع الكنائس والمعابد والأديرة والمزارات التابعة لهم، وكل الأملاك والأوقاف الخاصة بهم، وكل توابعهم وما يتبعهم.

ولا يتم التعرض لأي شخص من الطائفة الأرمنية قادمًا لزيارة الكنيسة أو بئر المياه المسمى زمزم، ولا يتعرض أي أحد لمزارعهم أو معابدهم أو مزاراتهم ولا يمنعهم عن ذلك أي أحد.

ويعمل وفقًا لهذا النيشان السلطاني من بعد اليوم على الوجهة المشروحة، ولا يُسمح لأي شخص من ملة أخرى التدخل في شأنهم، وعلى أولادي الأماجد أو وزرائي الأعاظم ومشايخي الكرام والقضاة والقادة وأمراء الإمارات وقادة السناجق وأمير الأمراء وضباط الانضباط والأمن ورجال بيت المال والقسَّام ومديري البلدية والزعماء وأرباب التيمار والمتصرفين وسائر حرس بابي وغيرهم، والخلاصة على الجميع كائنًا من كان ألا يتعرض لأي فرد منهم كائنًا من كان ومهما كانت الأسباب، ولا يتم التبديل أو التغيير في أي مما ذكر، وإذا ما قام أحد ما بالتدخل أو التعرض أو التبديل أو التغيير فإنه يُعَد عند الله من زمرة المجرمين والعصاة.

وليعلموا أن أوامري ونيشاني الحامل لطغرائي أنا فاتح العالم ستكون مصدَّقة، وليعمل بفحوى ما جاء بها، وليكن هذا علامة شريفة معتمدة. كتب في سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة".

هـا هو السـلطان سـليم الأول الـذي وصل إلى بيـت المقدس في القدس الشـريف في اليوم الخامس والشـعرين من صفر سـنة ٩٢٣هـ - ١٥١٧م، مـا أن مثـل بيـن يديـه البطريـرك الأرمني ومرافقـوه مـن القساوسـة والرعيّـة حتـى أمَّنهـم وأحسـن إليهـم وأجـزل العطـاء لهم وجدد لهم العهد العُمَري ومعاهدة القائد الفذ صلاح الدين الأيوبي.

ولـم يكـن هذا وقفًا علـى القدس وحدها لقدسـيتها ومكانتها، بل امتـدت هـذه الرعايـة والعنايـة إلـى غيرها مـن الأماكن، فهـا هو نفس السـلطان، سـليم الأول يصدر نفس الفرمان تقريبًا لرهبان دير سـانت كتريـن فـي سـيناء المصرية، فما أن اسـتقر به المقام فـي القاهرة حتى أصـدر لهـم فـي أواخر شـهر جمادى الآخر سـنة ٩٢٣ هـ - ١٥١٧م فرمانًا يعطيهم نفس الحقوق التي منحها للبطريركية الأرمنية وللحبش والأقباط السريان في القدس. ولما كان هذا الفرمان يخرج من نطاق القدس فقد اكتفيت بالإشارة إليه.

لـم يثبـت التاريـخ ولـو لمـرة واحدة أن حَاصر قائد مسـلم كنيسـة أو معبـدًا، أو أطلـق نـارًا، أو منـع مـاءًا أو طعامًـا عمن هـو في داخل الكنيسة أو المعبد، ولم تطارد قوات الجيش أو الشرطة أو الأمن من يلجأ إلى بيت من بيوت الله.

إن هـذه الوثيقـة وغيرهـا ظـل مَعْمُـولًا بها طـوال فتـرات التاريـخ، وما زال فرمان سليم الأول محفوظًا في دير سانت كترين في سيناء، وكان ذلـك قبـل الإحتلال الإسـرائيلي لسـيناء، ولسـت أدري مصيره الآن.

العهد الذهبي سليمان القانوني

وما أن اعتلى السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م) عرش السلطنة العثمانية حتى أبدى تفوقًا ملحوظًا في ميادين البناء والتشييد بنفس القدر من المهارة في ميادين سن القوانين، فما هي إلاَّ خمس وخمسون سنة حتى كانت البلاد العربية كلها حتى تلمسان المغربية ضمن حدود الدولة العثمانية.

وقد أغدق من غنائمه على الحرمين الشريفين والقدس الشريف الشيء الكثير، فغطى الجدران الخارجية لجامع قُبَّة الصخرة من جديد بالبلاطات الخزفية الفاخرة بدلًا من الموزاييق الذي كان يحتاج إلى الترميم من حين لآخر، وكانت هذه التغيطة الخزفية الزرقاء بدلًا من الخليط بين الأخضر والأصفر، مما أعطى الجامع رونقًا وبهاء ظل قرونًا عديدة، وكسا القسم الأسفل من الجدران بالرخام بدلًا من الموزاييق أيضًا، وأحاط المبنى من أعلى بحزام من الخزف الأزرق الغامق الذي تتخلله كتابات بالحروف البيضاء، وأمر بتركيب زجاج ملوَّن على النوافذ التي استقرت داخل تجاويف من الجبس والجص الأبيض الناصع.

كما أمر سليمان القانوني بترميم كل أسوار المدينة، وأعطاها الشكل الذي ما زال هو السائد حتى العهد القريب، وبهذا فقد ترك قسمًا من التبة الغربية خارج الأسوار.

ولقد كانت كنيسة مرقد عيسى عليه السلام تخلو من الأجراس حتى سنة ٩٥٢هـ - ١٥٤٥م، فأمر السلطان سليمان بأن تُعلق بها الأجراس، وفي سنة ٩٦٣هـ - ١٥٥٥م كان هناك بناء صغير فوق

الضريح في القسم الدائري من كنيسة القيامة، فأمر بإقامة مبنى آخر منتظم ويليق بالمقام بدلًا من القديم.

وكانت الكنيسة مقسمة فيما بين المذاهب المسيحية التي لم تكن على اتفاق أو وفاق فيما بينها، وكانت هذه التقسيمات تحول دون إجراء الترميمات والدعامات اللازمة التي تمكن من إقامة برج للأجراس فوق قبة المبنى، ولم يتم ذلك إلا سنة ١١٣٢هـ - ١٧١٩م، وبأمر من الحكومة تم الحفاظ على الرسوم والأشكال والطرز الموجودة على ما هي عليه أثناء أعمال بناء البرج والترميمات اللازمة، وخوفًا من التشويه تم صرف النظر عن التجديدات التي كانت ستجرى في كنيسة القيامة.

وفي سنة ١٢٢٣هـ - ١٨٠٨م اندلع حريق في الكنيسة الأرمنية مما أدى إلى تخريب القسم الغربي من الكنيسة بالكامل، وتمت الموافقة على أن يقوم الأرمن بأنفسهم بأعمال الترميم والتجديد اللازم.

وقد أصدر السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩م) فرمانًا للأرمن بهذا الصدد، وطبقًا لكتابات موجودة، فقد تم تجديد التذهيب الموجود في جامع قبة الصخرة، وأمر السلطان بترميم الجامع من الخارج، ولولا الخلافات المذهبية بين الطوائف المسيحية لتم تجديد كنيسة مرقد عيسى، ولتم إزالة المباني العشوائية، ولجددت الزخارف التي على جدرانها منذ أمد بعيد، ولأمكن استخدام الأجزاء المتبقية وأعيدت الكنيسة إلى ما كانت عليه أثناء الحروب الصليبية.

لقد شهد القرن التاسع عشر أحداثًا وقلاقل أخرجت فلسطين عامة والقدس خاصة من الهدوء والسكون الذي كان يعمها.

فإن نابليون بونابرت (١٧٦٩ - ١٢٨١م) الذي ظل محاصرًا في مصر، قام بالهجوم على فلسطين. وكما أنه حاصر عكا فقد زج ببعض من القوات الفرنسية لمهاجمة القدس، وتقاتلت القوات العثمانية والفرنسية أمام يزرائيل، أي أمام مرج بن عامر، واضطرت القوات الفرنسية إلى التراجع.

ثم تعرضت فلسطين عامة والقدس خاصة إلى استيلاء جيوش محمد على باشا سنة ١٨٣١م، ودخلت هذه المدينة تحت الحكم المصري حتى تم حل المسألة المصرية.

وعقب جلوس السلطان عبد الحميد الأول على العرش، مارست الدول العظمى آنذاك ضغوطًا؛ وفي النهاية انضمت فرنسا إلى هذه الدول، وتم عقد معاهدة سنة ١٢٥٦هـ - ١٨٤٠م أجبرت مصر بموجبها على إخلاء فلسطين.

ومارست إنجلترا والنمسا ضغوطًا ملموسة لإعادة القدس تحت الحكم العثماني، واستمر الوضع على هذا المنوال حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.

ولكن خلال المرحلة الأخيرة من هذه الحرب أي في الثامن من كانون الأول سنة ١٣٣٣هـ - نهاية ١٩١٧م احتُلَّت القدس من قبل الإنجليز.

وهكذا انتقلت هذه المدينة المقدسة التي كانت مركزًا لمتصرفية مستقلة خلال العصر العثماني إلى الإدارة الإنجليزية، وظلت هكذا حتى سنة ١٣٦٨هـ - ١٩٤٨م.

سكة حديد الحجاز(*)

قبل قرن كامل مضى، وبالتحديد عام ١٩٠٨م، كانت القطارات البخارية تنطلق من محطة قطار "حيدر باشا" بإسطنبول إلى المدينة المنورة، معلنة أن حلمًا صعب المنال قد أضحى حقيقة تدركها الأبصار والأسماع.

فقد كان الأول من سبتمبر عام ١٩٠٨م، هو يوم اكتمال خط حديد الحجاز وانطلاق رحلته الأولى بعد ثمانية أعوام من عمل شاق متواصل أسفر عن خط سكة حديدية تجاوز طوله ١٤٠٠ كم؛ فاستحال به خريف عام ١٩٠٨م -مع ما فيه من الأزمات والمشكلات- مسرحًا تزاحمت فيه آمال المسلمين وطموحاتهم في شتى ربوع الأرض مستبشرين ببعث جديد، وأضحى حلم مشاهدة سحب الدخان الكثيفة وهي تنبعث من القطار البخاري المنطلق من إسطنبول إلى الأراضي الحجازية، حقيقة قد تجسدت على أرض الواقع بعد أن كان ضربًا من الخيال.

(*) **صالح كولن** [كاتب وباحث تركي]. الترجمة عن التركية: د. **طارق عبد الجليل**.

فكرة المشروع

عُرف خط حديد الحجاز في السجلات العثمانية باسم "خط شمندفر الحجاز"، أو "خط حديد الحجاز الحميدي"، وامتد بين الشام (دمشق) والمدينة المنورة، حيث ينطلق الخط من الشام مارًا بعمَّان ومعان ثم بتبوك ومدائن صالح وصولًا إلى المدينة المنورة. وكان في خطة المشروع الحجازي أن يمتد بعد ذلك إلى مكة المكرمة ومن هناك إلى جدة، بيد أن أيًّا من ذلك لم يتحقق.

وإن تكن فكرة إنشاء الخط الحجازي قد طُرحت أول ما طُرحت في عهد السلطان عبد العزيز، إلا أنها تحققت في عهد السلطان عبد الحميد الثاني الذي كانت جهوده منصبة على العمل من أجل إيقاف تمزق الدولة العثمانية وانهيارها، وقد أخذ على عاتقه إنجاز مشروع الخط الحجازي.

أوكل السلطان عبد الحميد الثاني مهمة تنفيذ هذا المشروع العملاق لـ"أحمد عزت باشا العابد" والمعروف في التاريخ باسم "عزت باشا العربي"، ويتضمن المشروع، إنشاء خط سكة حديد الحجاز ليربط بين خط سكة حديد الأناضول وخط سكة حديد بغداد، وكذلك تأسيس شبكة اتصال تلغرافية بمحاذاة ذلك الخط الحديدي؛ حيث كان السلطان عبد الحميد الثاني يؤمن بأن هذا سيحقق له سهولة وسرعة في عمليات الاتصال والمتابعة بين مركز الدولة العثمانية وولاياتها في الشام والحجاز.

البواعث والأهداف

ثمة مجموعة من البواعث والأهداف دفعت السلطان عبد الحميد الثاني لإنشاء الخط الحجازي والشبكة التلغرافية، وتنوعت هذه الأهداف بين دينية وعسكرية واقتصادية وحضارية وسياسية.

ويأتي الهدف الديني في مقدمة هذه الأهداف، حيث استهدف مشروع الخط الحجازي خدمة حجاج بيت الله الحرام من خلال توفير وسيلة سفر يتوفر فيها الأمن والسرعة والراحة، وحماية الحجاج من غارات البدو ومخاطر الصحراء التي كانوا يتعرضون لها في الطريق البري ومن هجمات القراصنة في الطريق البحري، إضافة إلى توفير إمكانات وفرص أكبر للراغبين في أداء فريضة الحج نتيجة انخفاض تكلفة الحج الذي سيحققها ذلك المشروع، مما سيزيد من عدد حجاج بيت الله الحرام.

ويحتل الهدف العسكري مكانة متميزة بين أهداف الخط الحجازي، إذ كان يستهدف تسهيل التحركات العسكرية وحشد الجيوش بُغية التصدي لأية هجمات خارجية قد تتعرض لها مناطق الحجاز والبحر الأحمر واليمن، وإحكام السيطرة على البقاع الجغرافية ذات التوتر السياسي الدائم؛ وبهذه الكيفية تشعر المنطقة بقوة الإدارة المركزية للدولة العثمانية.

أما الهدف التجاري فتمثل في إنعاش الاقتصاد الراكد بالمنطقة من خلال تحقيق نهضة تجارية واقتصادية لمدن الحجاز وكافة المدن الواقعة على امتداد الخط، وإحداث عملية رواج للمنتجات التجارية

والزراعية من خلال نقلها نقلًا سريعا بالقطار إلى المناطق الأخرى، بل وكان من المخطط له مد الخط الحديدي تجاه أحد موانئ البحر الأحمر؛ ما يؤدي إلى زيادة الأهمية الاقتصادية والتجارية للخط زيادة واضحة؛ وبهذه الكيفية كانت طرق التجارة ستنتقل من قناة السويس إلى خط حديد الحجاز.

ومع إنجاز هذا المشروع العملاق بتمويل وكوادر عثمانية، كان سيثبت للدول التي تطمع إلى تفريق الدولة العثمانية وتريد التهامها وعلى رأسها الدول الأوربية، أن ثمة منجزات حضارية عظيمة يمكن للعثمانيين تحقيقها دون الحاجة إلى اللجوء إليها.

وكان للسلطان عبد الحميد الثاني أهدافٌ سياسية مهمة وراء إنشاء الخط الحجازي، إذ اعتقد بأن إنجاز هذا المشروع يعني تحقيق قدر من الاستقلالية للدولة العثمانية عن أوربا، عسكريًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا وتقنيًا.

فالسلطان عبد الحميد الثاني والذي عُرف بتميزه عن سابقيه بحرصه على بقاء الخلافة العثمانية وحمايته لها، كان يبذل ما بوسعه بُغية توحيد صفوف المسلمين وتشكيل "اتحاد إسلامي" لمواجهة الأطماع الأوربية الاستعمارية وهجماتها الغاشمة على الدولة العثمانية، إضافة إلى دعمه لحركة "الجامعة الإسلامية" التي دعت إلى تكتيل جميع المسلمين داخل الدولة العثمانية والمناطق المختلفة من العالم خلف راية الخلافة العثمانية.

ولعل خط حديد الحجاز يعتبر من أروع إنجازات السلطان عبد الحميد الثاني الرامية إلى الحفاظ على وحدة أراضي الدولة العثمانية.

الإنشاء والتنفيذ

يتحدث السلطان عبد الحميد الثاني عن الخط الحجازي في مذكراته بقوله: "أخيرًا تحقق الخط الحجازي؛ ذلك الحلم الذي طالما راود مخيلتي، فذلك الخط الحديدي لم يكن فقط مصدرًا اقتصاديًا للدولة العثمانية، بل كان في الآن ذاته يمثل مصدرًا بالغ الأهمية من الناحية العسكرية من شأنه تعزيز قدرتنا العسكرية على امتداده".

وقد أصدرت الإدارة السلطانية الخاصة قرارًا بالبدء في إنشاء خط حديد الحجاز في الثاني من مايو عام ١٩٠٠م، وفي الأول من سبتمبر عام ١٩٠٠م، والذي يوافق العام الخامس والعشرين لجلوس السلطان عبد الحميد الثاني على عرش الدولة العثمانية، تم تدشين العمل في خط الحديد بين الشام ودرعا في احتفال رسمي مهيب.

ووصل خط الحجاز إلى عمّان عام ١٩٠٣م، وإلى معان عام ١٩٠٤م، وفي الأول من سبتمبر عام ١٩٠٥م اكتملت المرحلة الأولى من خط الحجاز، وانطلقت أولى رحلات القطار بين الشام ومعان لنقل الركاب والبضائع.

وفي الأول من سبتمبر ١٩٠٦م وصل الخط إلى مدائن صالح، ثم في ٣١ أغسطس ١٩٠٨م وصل إلى المدينة المنورة.

وخلال الثمانية أعوام التي جرى فيها تنفيذ خط الحجاز وصل طول الخط إلى ١٤٦٤ كم، ومع إضافة الخطوط الفرعية الأخرى في المراحل اللاحقة بلغ طول الخط ١٩٠٠ كم عام ١٩١٨م.

وكان الجيش العثماني هو المصدر الرئيسي للقوة العاملة في إنشاء خط حديد الحجاز، وساهم أيضًا في إنشاء هذا الخط عمال توافدوا من مناطق جغرافية مختلفة من العالم الإسلامي في مقدمتها سوريا والعراق، ولما كانت أعداد أولئك العمال الوافدين محدودة، فقد تحمل الجنود العثمانيين معظم أعباء ذلك المشروع، وكان الجنود يتقاضون أجورًا ضئيلة خلال فترة عملهم في المشروع، في مقابل السماح لهم بالانتهاء من الخدمة العسكرية قبل عام من موعدها المحدد.

تولى منصب كبير مهندسي الأعمال الفنية مهندس ألماني يُدعى "مايسنر باشا"، وعمل تحت قيادته أربعة وثلاثون مهندسا، سبعة عشر منهم عثمانيون والآخرون كان معظمهم من الألمان، بالإضافة إلى مهندسين من إيطاليا وفرنسا والنمسا وبلجيكا واليونان.

وبعد وصول الخط الحديدي إلى محطة مدائن صالح أصبح الجزء المتبقي من الخط داخل حيز المنطقة الحرام، ولما كان من المحظور شرعًا دخول غير المسلمين إلى هذه المنطقة، فقد جرى إنشاء الخط الواقع بين مدائن صالح والمدينة المنورة كله بأيدي مهندسين وعمال مسلمين.

ومع تقدم العمل في المشروع ازدادت خبرة العثمانيين، وعليه قلت أعداد المهندسين الأجانب في المراحل المتقدمة منه أمام أعداد

المهندسين المسلمين التي كانت تزداد يوما بعد يوم، ومن ثم تميز خط حديد الحجاز بوصفه مشروعًا عمل فيه الكثير من المهندسين المسلمين، قياسًا بخط حديد الأناضول وخط حديد بغداد.

تضحيات بطولية

استغرق إنشاء الخط الرئيسي لطريق الحجاز ثمانية أعوام، وعمل فيه نحو خمسة آلاف عامل معظمهم من الأتراك وبعضهم من العرب وبعضهم من أجناس مسلمة أخرى.

ولا شك أن قيام الجنود العثمانيين بالعمل في هذا المشروع قد خفض كثيرًا من النفقات، وهو ما يأتي في مقدمة العوامل المهمة في إنجاز هذا الخط الحديدي، كما كان لتدين الجنود العثمانيين وحبهم للنبي ﷺ دوره البالغ في إنجاز هذا العمل في فترة تُعد قصيرة، حيث قاموا بشق الطرق عبر الفيافي والقفار والجداول والوديان، ولعل الفضل في إنشاء هذا الخط الحديدي يرجع إلى أولئك الشجعان البواسل الذين قدموا من الأناضول لإنشاء وتركيب تلك الخطوط الحديدية في صحاري شبه الجزيرة العربية.

وإذ يقوم أولئك البواسل بنصب قضبان السكك الحديدية وأعمدتها وتشييد محطاته، كانوا ينصبون أيضًا الشواهد لقبور شهدائهم؛ حيث استشهد خلال إنشاء خط السكة الحديدية الكثير من الجنود العثمانيين، إما عطشًا تحت نيران الشمس الحارقة بسبب نقص المياه، وإما من سوء التغذية، فضلًا عمن استشهدوا بسبب حوادث العمل أو غارات البدو، ولقد انتشرت شواهد قبور هؤلاء الشهداء العثمانيين البواسل على امتداد خط السكة الحديدية حتى

المدينة المنورة جنبًا إلى جنب مع محطات القطار. وإن تكن آثار وبقايا هذا الخط الحديدي لا تزال موجودة إلى اليوم، فإن قبور معظم أولئك البواسل وأسماءهم قد طوتها صفحة النسيان ولم يعد لها وجود. فيكفي أن نعلم أن عام ١٩٠٨م وحده قد شهد أكثر من ١٢٦ غارة من غارات البدو على خط حديد الحجاز، فضلًا عن مشكلات نقص المياه وظهور بعض الأمراض وتدخلات الدول الأجنبية.. وهو ما يعطي لنا مؤشرًا مهمًا لفهم أسباب البطء في تنفيذ المشروع.

الموقف الأوربي

تلقت أوربا الإعلان عن الخط الحجازي بدهشة بالغة، واعتبرت إقدام الدولة العثمانية على مشروع مثل هذا ضربًا من الخيال، حيث كانت الدولة العثمانية آنذاك في وضع اقتصادي متدهور أوشكت فيه على الإفلاس بسبب ديونها الخارجية والداخلية؛ حتى إن بعض الصحف الأوربية آنذاك قد تطاولت عبر صفحاتها على المشروع والسلطان عبد الحميد الثاني بالاستهزاء والسخرية، وخصصت لذلك أخبارًا مطولة ورسومًا كاريكاتيرية بذيئة.

ومع التقدم في إنشاء الخط وإظهار القائمين عليه لتضحيات كبيرة، أخذت الدول الأوربية تضع العراقيل للحيلولة دون إكمال العثمانيين لهذا المشروع، وكانت بريطانيا وفرنسا في مقدمة هذه الدول؛ فأسرعت تلك الدول ولا سيما بريطانيا للحيلولة دون مساندة الشعوب التي تخضع للاستعمار البريطاني لهذا المشروع، حيث قامت بنشر الشائعات بين المسلمين الهنود الذين يقومون بالتبرع لإقامة الخط الحجازي، وأطلقت شائعات مثل أن "التبرعات لا

تُستخدم في إنشاء الخط الحجازي"، بيد أن هذه المحاولات قد باءت بالفشل التام، واستمر المسلمون الهنود في جمع التبرعات وإرسالها إلى الدولة العثمانية، كما حظر الاستعمار البريطاني على مسلمي الهند تعليق "وسام خط حديد الحجاز" الذي يُمنح لكبار المتبرعين.

وقد سعت بريطانيا إلى استعمال شتى الطرق من أجل انسحاب العثمانيين من الأراضي المقدسة بعد الحرب العالمية الأولى، ومما يلفت النظر هنا أن تعطيل خط حديد الحجاز كان أول ما قامت به بريطانيا بعد انسحاب العثمانيين من مكة والمدينة المنورة؛ إذ كانت تنظر إلى الخلافة العثمانية باعتبارها التهديد الأكبر ضد طموحاتها الإمبريالية في الشرق الأوسط والشرق الأقصى، ومن ثم فقد شعرت بارتياح شديد بعد أن قامت بقطع الروابط بين الأناضول وشبه الجزيرة العربية من خلال تعطيل الخط الحجازي.

أما فرنسا فقد سعت لفرض القيود والعقبات أمام إنشاء خط حديد الحجاز من خلال الموانئ التابعة لإدارتها؛ حيث فرضت ضرائب جمركية باهظة على مستلزمات خط الحديد، وعطلتها داخل الموانئ فترات طويلة.

وإن تكن كل هذه العقبات قد أبطأت من معدل إنجاز الخط، إلا أنها لم تستطع أبدًا إيقاف عجلة التقدم نحو الانتهاء من تنفيذ المشروع، واكتمل خط حديد الحجاز رافعًا راية العصيان والتحدي في وجه الاستعمار الأوربي، ومعلنًا أن قلب "الرجل المريض" لا يزال ينبض بالحياة.

المصادر المالية

كان فترة سلطنة السلطان عبد الحميد الثاني من أصعب فترات الدولة العثمانية من الناحية الاقتصادية، ولم يألُ السلطان عبد الحميد جهدًا من أجل سداد الديون الخارجية الضخمة التي ورثها عن أسلافه، ورغم أنه قد اضطر للحصول على قروض خارجية ضئيلة في بعض الأوقات، إلا أن ما قام بسداده كان يفوق بكثير ما اقترضه، وكان يدرك أن الديون الخارجية تزعزع هيمنة الدولة، والديون الداخلية تزعزع سلطتها؛ ومن ثم لم يفكر في الحصول على أي قروض خارجية لتمويل إنشاء خط حديد الحجاز.

وكانت التبرعات -وللمرة الأولى في تاريخ الدولة العثمانية- هي المصدر الأول لتمويل هذا المشروع الضخم؛ فكان تمويل خط حديد الحجاز من تبرعات المسلمين في شتى أنحاء العالم دون أن تشوبه أي مساهمة من الدول الأجنبية على النقيض من خطي سكة حديد الأناضول وبغداد اللذين أقيما بتمويل أجنبي.

وكانت الدولة العثمانية قد خصصت ١٨٪ من ميزانيتها لإنشاء هذا الخط، بيد أن تلك النسبة اعتُبرت ضئيلة للغاية عندما تم الإعلان عن أن إنشاء الخط سيتكلف نحو ثمانية مليون ليرة عثمانية، ومن ثم برز الاحتياج الشديد للأموال اللازمة لتنفيذ المشروع.

ذلك المشروع الذي اعتبره المسلمون بمثابة "مسألة عزة وكرامة" أمام أوروبا، وأراد السلطان عبد الحميد أن يجنب دولته المزيد من الاستدانة، وأن يكون تمويل المشروع الحجازي بأموال إسلامية

تمامًا؛ فوجه نداءً إلى العالم الإسلامي من أجل التبرع للمشروع، ليدشن بذلك حملة تبرعات قلّ أن نجد لها نظيرًا في تاريخ العالم.

وبدأت حملة التبرعات الأولى في مايو عام ١٩٠٠م، بأن تبرع السلطان عبد الحميد الثاني من جيبه الخاص بخمسين ألف ليرة عثمانية، ودعا المسلمين كافة للمشاركة في هذه الحملة، سواءً كانوا ممن يعيشون في الأراضي العثمانية أو في غيرها، ومن بعد السلطان تبرع الباشاوات العثمانيون، ثم أقبل موظفو الدولة والتجار والبائعون والجنود والشعب على المشاركة في هذا التنافس الخيري؛ ولقي نداء السلطان عبد الحميد استجابة تلقائية وفورية بين كافة المسلمين في شتى بقاع العالم، حيث اقتطع المسلمون من أقواتهم ومدخراتهم للمساهمة في تمويل الخط الحجازي.

بل إن دولة ذات صراع تاريخي مع الدولة العثمانية مثل إيران قد جمعت أيضًا مقدارًا من التبرعات -وإن كان ضئيلًا- وأرسلته إلى إسطنبول، وانهالت التبرعات التي جاءت من مناطق مترامية الأطراف مثل الهند وأفغانستان، ومن دول أخرى مثل الجزائر والسودان وتونس وليبيا وإندونيسيا وماليزيا، وتدفقت التبرعات من كافة أرجاء العالم؛ فجاءت التبرعات من الشعوب التركية في آسيا الوسطى، ومن مسلمي أوربا وأفريقيا وأمريكا، وذلك رغم كل المحاولات التي قامت بها الدول الأوربية لصرف هذه الشعوب المسلمة عن هذا المشروع وإقناعهم بعدم جديته؛ وأصبحت التبرعات التي تم جمعها من الضخامة ما تكفي لإنشاء ثلث الخط الحجازي.

وحرصت الدولة العثمانية على تكريم المتبرعين من خلال منحهم نياشين وأوسمة مصنوعة من الذهب والفضة تخليدًا لذكرى الخط الحجازي، وإضافة إلى ما تم جمعه من تبرعات، فقد اضطرت الدولة العثمانية إلى الاقتطاع الإجباري من مرتبات موظفي الدولة من أجل الإسهام في إنشاء الخط.

وجدير بالذكر هنا أننا لا نكاد نجد شكوى واحدة من أولئك الموظفين بسبب هذا الاقتطاع الإجباري من رواتبهم، وهو ما يُعد إشارة واضحة على أن الأمة التي تلتف حول هدف واحد، قادرة على التضحية بكل غالٍ ونفيس في سبيل تحقيق ذلك الهدف. وتاريخ الأتراك في الفترات اللاحقة يشهد على أحداث مشابهة لتلك التضحيات، تجلت فيها هذه الروح والفكرة والعقدية دون أن يعتريها خلل أو عطب.

كما حرصت الدولة أيضًا على اقتطاع جزء من دخلها العام لتمويل المشروع الحجازي، فأصدرت طوابع تمغات متعددة الفئات المالية في كافة دوائرها الحكومية والبيروقراطية، وجمعت جلود الأضاحي وباعتها وحملت عائداتها إلى ميزانية المشروع، إضافة إلى أن نظام البدء الفوري في تشغيل رحلات الركاب والبضائع في الأجزاء التي اكتملت من الخط الحديدي، كانت مصدرًا آخر من مصادر التمويل.

ورغم الانتهاء من إنشاء المشروع الحجازي، وانسحاب العثمانيين من المنطقة مع حلول عام ١٩١٨م، وتخريب الخط ونسف جسوره وانتزاع قضبانه مع نشوب الثورة، إلا أن التبرعات لم تتوقف وظلت تتدفق من مختلف أنحاء العالم.

ولا ريب أن هذه الهمة العالية والتنافس في فعل الخيرات قد أظهر للعالم كله مدى عمق الأخوة الإسلامية وقوتها ورحابتها.

حركة القطار

في الأول من سبتمبر عام ١٩٠٨م والموافق للعام الثاني والثلاثين من جلوس السلطان عبد الحميد الثاني على عرش الدولة العثمانية، قام بافتتاح خط حديد الحجاز وسط مراسم رسمية مهيبة، وكانت قبل ذلك "لجنة خط حديد الحجاز" قد قامت نيابة عن السلطان بافتتاح المحطات الممتدة على خط سكة الحديد في احتفالات رسمية أيضًا.

وكان لغير المسلمين أيضًا الحق في استخدام المحطات البينية الموجودة على خط حديد الحجاز، غير أنه لم يكن من المسموح لهم الوصول بالقطار إلى المدينة المنورة، وكان للخط دور في نقل الأموال، وأسدى قطار الحجاز خدمات جليلة لحجاج بيت الله الحرام، واستُخدم أيضًا في بعض الأغراض العسكرية مثل نقل الجنود من منطقة إلى أخرى، كما قام القطار بنقل البضائع بين المناطق المختلفة، وهو ما أحدث انتعاشة في الحياة الاقتصادية والتجارية.

وتحددت أوقات تحرك القطارات وفقًا لمواقيت الصلاة. فكانت القطارات تتحرك على نحو لا يخل بأوقات الصلاة، فإذا ما دخل وقت الصلاة توقف القطار وتوجه الركاب لأداء الصلاة في العربة المخصصة لذلك.

الدلالة الدينية

قد تكون نظرتنا قاصرة إذا نظرنا إلى البعد الديني للخط الحجازي في نقله للحجاج فحسب، فالقطار الحجازي كان يؤدي في الوقت ذاته مهمة عريقة، ويحافظ على تقليد يضرب بجذوره في التاريخ وهو إرسال "الصرة السلطانية" إلى الحجاز، وكان السلاطين العثمانيون كلهم تقريبًا يقومون بتجهيز قدر كبير من الأموال عُرف بـ"الصرة السلطانية" وإرسالها إلى الحجاز، وهو تقليد يرجع بجذوره إلى العباسيين ثم إلى العثمانيين اعتبارًا من السلطان العثماني "يلديرم بايزيد".

وكانت "الصرة السلطانية" قديما تبدأ رحلتها في بداية كل ثلاثة أشهر عبر الطريق البري، وعرفت الطريق البحري مع استخدام السفن البخارية منذ عام ١٨٦٤م، ثم أصبح لها مكانها الخاص في القطار الحجازي بعد عام ١٩٠٨م، وكانت أموال "الصرة السلطانية" مخصصة للإنفاق على كافة الخدمات في مكة المكرمة والمدينة المنورة، مثل شؤون الإعمار والإصلاح وغيرهما، ودفع رواتب العاملين هناك، كما كانت أيضًا مصدرًا من مصادر توفير الراحة وتيسير مناسك الحج لزوار بيت الله الحرام، إضافة إلى أن القطار الحجازي قد وفر لوفد "الصرة السلطانية" رحلة سريعة ومريحة وآمنة.

وأخيرًا وبهذه المناسبة نتوجه بخالص العرفان بالفضل والدعاء بالرحمة لأولئك الذين عملوا على إنشاء خط سكة حديدية الحجاز، وأولئك الذين سقطوا شهداء خلال أداء واجبهم فيه، وأولئك الذين اقتطعوا من أقواتهم ومدخراتهم للمساهمة فيه، وأولئك الذين بذلوا النفس والنفيس بكل تجرد وإخلاص لذلك المشروع.

قوافل الحج في العصر العثماني(*)

لقد كانت السمة الدينية من أهم السمات التي اتسمت بها تشريعات الدولة العثمانية؛ فقد كان للهيئة الإسلامية وضع معترف به، وكان يطلق على رئيسها لقب المفتي أو مفتي إسطنبول، ثم تَغير هذا اللقب إلى "شيخ الإسلام" الذي كان يشرف على الهيئات القضائية والهيئات ذات الطابع والنشاط الديني، وكان السلاطين أنفسهم حريصين على تدعيم سلطته، فقد كان شيخ الإسلام يصدر فتوى تجيز الحرب، دفاعًا، أو هجومًا، وعقد الصلح، وغير ذلك من الأحداث الجسام.

وقد كان من مظاهر اهتمام الدولة العثمانية بالدين والعالم الإسلامي اهتمامها بمنصب نقيب الأشراف.

الحجاز في العهد العثماني

كما كان الاهتمام الكبير بالحجاز من السمات التي حافظ عليها كل السلاطين العثمانيين؛ فقد كان الحجاز وما يحويه من أماكن إسلامية مقدسة تابعًا للدولة العثمانية، مما أضفى عليه مركزًا دينيًّا مرموقًا في جميع أرجاء العالم الإسلامي، وقد أعفت الدولة

(*) **الصفصافي أحمد القطوري** [جامعة عين شمس، كلية الأداب/مصر].

العثمانية منطقة الحجاز من أداء الضرائب، بل أقر لها سليم الأول ثلث ما كان يجبى من مصر، كما أوقف خراج اليونان عند فتحه على الحرمين الشريفين. ولم يكن الاهتمام وقفا على الأماكن، بل تعدّاها إلى المواطن، فقد أُعفِي سكان الحجاز من التجنيد، وأبقت الدولة على الحكم الذاتي المتمثل في نظام الشرافة؛ وكل ما كانت تفعله أن ترسل فرمانًا تحدد فيه إمكانات واختصاصات وواجبات الشريف الجديد عند تعيينه، وتوصيته ببعض الوصايا التي كانت تنصب في أغلبها على حماية الحجاج في أموالهم وأرواحهم، وأن يقسم بالعدل الصرة الهمايونية بين الأهالي، وكذلك المؤن القادمة من مصر، وأن يسعى لبسط الأمن على الطرق.

وكان أمير مكة المكرمة يتمتع -في التشريفات- بأسمى مقام في صف الصدر الأعظم في الآسِتانة والخديوي في مصر وترتب له العطايا من قبل السلطان.

ولكن الشيء الذي أولته الدولة العثمانية جل اهتمامها، هو قوافل الحج والإشراف المباشر والفعلي على الحج، واعتبرت هذا العمل واجبًا يقع على عاتقها، باعتباره الركن الخامس من أركان الإسلام، وأن عليها تيسير الحج أمام الراغبين فيه، فأنشأت قوافل الحج، واهتمت بالطرق؛ فأقامت الحصون، وحفرت الآبار على طول طرق الحج، وشجعت على إقامة الخانات، وأقامت المخافر، وكانت تشرف على قوافل الحج الرئيسية التي كانت تخرج من أنحاء الدولة كافة في مواعيد محددة كل عام، وتضع لها قوة تحرسها، يقودها أحد كبار العسكريين، الذي كان يسمى "سَرْدَارُ الحج"، وكان على

رأس كل قافلة أمير للحج، وكثيرًا ما كان أمير الحج يتولى قيادة الجيش المرافق للقافلة، وخاصة قافلة الحج الشامي.

أهم قوافل الحج

وكانت أهم قوافل الحج في العهد العثماني:

أ. **قافلة الحج الشامي**: وتضم حجاج بلاد الشام والجزيرة وأذربيجان والقوقاز والقرم والأناضول والبلقان، وحجاج إسطنبول نفسها، وكان عددها يتراوح ما بين ثلاثين وخمسين ألفًا.

وقد كان السلطان العثماني يشرف بنفسه على ترتيب وإعداد هذه القافلة وخروجها من مدينة إستانبول، وكانت القافلة تقطع الطريق التجاري حتى تصل إلى دمشق، ومنها إلى أراضي الموآبيين القدماء، ومن بلاد معن عبر صحراء مزريب إلى مدائن صالح حتى تصل القافلة إلى المدينة المنورة.

وكان السلطان العثماني يصدر أوامره إلى الولاة لتسهيل مهمة مرور القافلة، وأن يتولوا مهام حراستها حتى تصل إلى حدود الولاية المجاورة، فيتولى الوالي الجديد استقبالها وتأمين مسيرتها عبر ولايته، حتى تصل سالمة إلى نهاية ولايته وهكذا.

وقد كانت القافلة وعلى رأسها أمير الحج تعبر هذه الولايات وسط حفاوة واهتمام بالغ، ويتسلم أمير الحج بصك شرعي أموال الأوقاف والهدايا المرسلة إلى أهالي الحرمين الشريفين، وإلى الحرمين الشريفين ذاتهما، من بسط وتحَف ومصابيح وشمعدانات ومواد غذائية وما شابه ذلك.

ب. **قافلة الحج المصري**: وتضم حجيج مصر وشمال إفريقيا، وكانت من أهم القوافل خلال العصر العثماني، حيث كانت تضم المحمل المصري وكسوة الكعبة المشرفة الجديدة، وكانت تتحرك من القاهرة خلال الأسبوع الأخير من شوال من كل عام، وسط احتفالات عظيمة تتم تحت إشراف الوالي نفسه، وتقطع المسافة في ٣٧ يوما، سالكة طريق السويس وسيناء والعقبة ثم تلتقي في بعض الطرق مع قوافل الحج الشامي، وفي بعض السنوات كانت تستقل السفن من السويس إلى جدة، أو من الموانيء المصرية الأخرى المواجهة لجدة.

ج. **قافلة الحج العراقي**: وتضم حجاج العراق وفارس، وتسلك الطريق الذي يعبر جزيرة العرب نفسها، وكان كثير من حجاج فارس والخليج العربي واليمن يفضلون طريق البحر والسفن البحرية.

د. **قافلة الحج اليمني**: وتضم حجيج اليمن والهند وماليزيا وإندونيسيا، وينضم إليهم حجاج الحبشة والصومال والأفارقة الذين يصلون إلى مصوع وسواكن وموانيء اليمن.

كانت القوافل تضم عناصر مختلفة؛ ففيها الأمراء، والأثرياء، والتجار ومعهم تجاراتهم، والفقراء والمعدمون، وكان كلٌّ حسب قدرته يرافق القافلة، ففيها الهودج وفيها الجمال والخيول، وفيها الرجالة من البدو والفقراء.

وقد كان الولاة يقومون باستئجار الجمال والخيول لحمل مهمات القافلة، ويتعاقدون على ذلك قبل موسم الحج بوقت كافٍ، ويتفقون

على ذلك مع مشايخ الأعراب والبدو الذين يعيشون في المناطق التي تسلكها القوافل.

أهم طرق القوافل

وأهم الطرق التي كانت تسلكها القوافل بين الحرمين الشريفين هي:

١. **الطريق السلطاني**: أي الطريق الرئيسي، وكان على حجاج القافلة التي تسلك هذا الطريق أن يتجمعوا عند وادي فاطمة بالقرب من مكة المكرمة للاتجاه إلى المدينة المنورة، ويتزود الحجاج فيها بما يلزمهم، ثم يتجهون إلى بئر عسفان، وتسلك طريقها حتى تصل إلى رابغ التي تفترق عندها الطرق، وإن كان أكثرها استعمالًا هو الطريق السلطاني.

كان الحمّالة هم الذين يحددون أماكن التوقف، وكانوا يفضلون تلك التي تضم آبارًا للتزود بالمياه، وتعودت القوافل أن تدخل المدينة في اليوم السادس من خروجها من رابغ، وهذا الطريق السلطاني كان هو الطريق المعتاد بالنسبة لقوافل الحج وقوافل المحامل، وبالرغم من قلة مياهه فإن مطالعه ومنازله الوعرة كانت شبه معدومة، ولكن كانت تبعد عنه بعض الشيء سلاسل جبلية مكنت بعض عربان البدو من مهاجمة هذه القوافل، مما دفع قوافل الحجاج المسلمين ومواكب التجار إلى أن يسلكوا الطرق المسماة بالطرق الفرعية لعمرانها وعدم خطورتها.

٢. **الطريق الفرعي**: هو الطريق المؤدي من رابغ إلى المدينة المنورة عن طريق "بريدة"، والذين يودون السفر عن طريق "الطريق الفرعي" يتجمعون عند "المرحلة"، التي تسمى آنذاك "بئر رضوان"، وهي تبعد مسيرة اثنتي عشرة ساعة من رابغ، ويتزودون بالمياه والمؤن، ثم يسلكون الطريق مارين بقرية "أبي ضياعة" و"ريان" و"أم العيال" و"مضيق" و"صمد"، ثم تمر القوافل من المنطقة المنخفضة التي تسمى الغدير التي تتجمع فيها مياه الأمطار فتحولها إلى ما يشبه البحيرة.

الطريق الفرعي الثاني المؤدي إلى المدينة المنورة هو طريق غابر، وبالرغم من أن المسافة عبر هذا الطريق كانت تقطع في خمسة أيام من مكة إلى المدينة، فإنه طريق جبلي، كثير المطالع والمنازل، مما جعله صعب المنال بالنسبة للجمال التي غالبا ما تكون محملة بأشياء ثقيلة، وتجعل قطع الطريق مرهقًا، كما أن كثرة الجبال تجعله مرتعًا لقطاع الطرق والأشقياء، مما يدفع الجمالة إلى الابتعاد عنه وعدم سلوكه، إلا أن قِصَرَه بالنسبة للطريق السلطاني والطريق الفرعي تجعل منه معبرًا مطروقًا من قبل المشاة، أو من يمتطون صهوة الخيول، أو من قبل فرسان الخيالة والهجانة التابعين لقوة الدولة العثمانية، والمنوط بها حفظ الأمن وحماية مكة المكرمة والمدينة المنورة. وتورد بعض كتب التاريخ أن النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم قد سلك هذا الطريق عند هجرته الميمونة إلى المدينة المنورة.

وهناك أيضا الطريق الشرقي الذي يربط المدينة المنورة ومكة المكرمة، وهو طريق كبير ومتسع إلى حد ما، وكثيرًا ما تسلكه

القوافل المترددة بين المدينتين المقدستين، وهو الطريق المفضل عند قوافل المحمل، والقوافل التي كانت تحمل الصرة، وخاصة في المواسم التي كانت تشتد فيها الحرارة، وتزداد فيها حملات الخارجين على القانون، وتسلطهم على الطرق الأخرى.

وعرف بهذا الاسم لوقوعه على الطرف الشرقي من بلاد الحجاز، وتصل القوافل التي تقطع هذا الطريق إلى مرحلة بئر الليمون بعد مسيرة أربع عشرة ساعة، ثم بئر برود الذي تفضل القوافل الاستراحة عنده، والتزود من مياهه العذبة، وبعد المرور من بضع آبار ومراحل أخرى تصل القوافل إلى "بركة زبيدة"، وهي البركة التي أمرت السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد بتشييدها لتجمع فيها مياه السيول في هذه المنطقة.

ومن الطرق الفرعية التي تسلكها القوافل بين المدينة المنورة ومكة المكرمة أيضا طريق ينبع البحر، فينبع البحر تعد مرفأ المدينة المنورة، والقوافل المتجهة إلى البلدة الطيبة تصل أولا إلى "بئر سعيد" ثم قرية "صفراء"، وعند هذه القرية يلتقي طريق ينبع البحر مع الطريق السلطاني؛ ومن ينبع حتى طيبة الطيبة خمس مراحل سيرا بقوافل الجمال، والمعروف أن المرحلة هي مسيرة يوم واحد بالجمال، أي مسيرة سبعة وعشرين ميلا، وتمر القوافل التي تسلك هذا الطريق بقرية بدر المباركة، ويقرأون الفاتحة على أرواح شهداء بدر الكبرى، وهذا الطريق سهل ومستوٍ مما يشجع القوافل على عبوره.

أشهر الطرق إلى مكة المكرمة

أما أشهر الطرق المؤدية إلى مكة المكرمة، وكانت تسلكها قوافل الحج القادمة من بلدان العالم الإسلامي فكانت سبعة طرق، وبيانها كالتالي:

١. طريق الشام

هو الطريق الذي كانت تسلكه قوافل الحج القادمة من الشام وكذلك قافلة محمل الشام، وكانت قافلة الشام تتحرك في أغلب المواسم في الخامس عشر من شوال تحت رئاسة أمير الحج، وكان يتولاها في العادة والي سوريا.

وقبل التحرك يجري احتفال كبير ينظمه قائد الجيش الخامس، وبعد القيام بالتشريفات المعهودة في مثل هذه الأمور تخرج القافلة من الشام من "قبة الحاج"، التي كانت تعد نقطة البدء للقافلة، ومنها إلى الكسوة حيث ينضم إليها الحجاج الذين تجمعوا في "مزريب"، ثم تتجه مجتمعة إلى المراحل التالية.

ومن المناطق التي تمر بها القافلة عبر هذا الطريق منتزه مزريب في حوران، وبجوار عين مزريب أمر السلطان سليم الأول ببناء قلعة -مازالت أطلالها باقية حتى الآن- لحماية قافلة الحج، ثم الزرقاء فالبلقاء، ثم القطرنة حيث القلعة التي شيدها سليمان القانوني بجوار البركة التي أمر بإعادة تطهيرها بعد أن كانت قد تساوت مع الأرض، ومن القطرنة تتابع القافلة سيرها حتى الكرك، ثم عنيزة، فقلعة معان.

وهذه المنطقة تسجل كتب التاريخ أنها كانت مقر إقامة بني أمية، وأمر السلطان سليمان القانوني بإقامة قلعة وحفر بئر فيها. ومن معان إلى ظهر العقبة نحو "ذات الحج"، وفي ذات الحج أو حجر هذه أمر القانوني بإقامة قلعة لحماية القوافل من غارات البدو والأعراب، وتشتهر بتمورها وثمارها الجيدة، ومنها إلى "قاع البسيط" فتبوك ثم أخيضر التي تقع في منتصف المسافة بين مكة والشام.

وقد كلف السلطان سليمان القانوني عند جلوسه على العرش سنة ٩٢٦هـ - ١٥٢٠م واليه على الشام مصطفى باشا ببناء قلعة أخيضر، وبعدها تصل القوافل إلى بركة المعظم، ثم جبل الطاق الذي عقرت فيه ناقة النبي صالح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، ثم مبرك الناقة، ثم قرى صالح، ثم ديار ثمود، وهي تلك المنازل التي نحتت في الجبال، وفيها مسجد النبي صالح عليه السلام، ومنها إلى العلا التي تبعد عن المدينة المنورة بست مراحل، وهي من ملحقات المدينة المنورة؛ وأمر السلطان القانوني بتجديد قلعتها وحصنها لحمايتها من غارات الأعراب، ومنها إلى شعب النعام ومنزل فحلتين، ثم وادي القرى الذي تكثر فيه المياه والغابات، و"أبيار علي"، وفيها يحرم الحجيج جميعًا. ومنها تمر القوافل بقبور الشهداء، ثم الجديدة وقاع البرو وبلاد طارق وعقبة السويق؛ ومنها إلى عسفان حيث الآبار النبوية المأثورة، وبعدها تدخل القوافل إلى مكة المكرمة في أوائل ذي الحجة من كل عام، بعد أن تكون قد قطعت المسافة من المدينة في مائة وست ساعات.

٢. طريق مصر

وقد جرت العادة منذ القدم أن يصحب أمير الحج المصري المحمل وسط احتفال كبير من القاهرة متجها إلى بركة الحاج، وهناك يلتقي بجموع قافلة الحج المصرية، حيث يتجهون سويا إلى هدف البويب، ثم يتجه الموكب بعد ذلك إلى الحمرا، حيث أقامت السلطات المعنية آنذاك عدة أبنية وسقاية ماء ليتزود منها الحجاج؛ ومنها إلى بركة عجرود التي تقع تجاه السويس وتسمى أيضا "عيون موسى"، وكان بها خان كبير منذ زمن قانصوه الغوري، ثم تتحرك القافلة إلى منصرف، وفيها بعض المنخفضات التي يظن أن ملوكا سابقين قد حفروها في العصور الغابرة للربط بين البحرين الأبيض والأحمر، وهي التي حفرت مكانها قناة السويس، ومنها إلى قبيبات، ثم أول التيه حيث على الجانب الأيمن جبل الطور والجانب الأيسر جبل العريش.

وفي وادي النعمان قام والي مصر علي باشا بتوسيع الحصن والسقاية لخدمة الحجاج، ويقوم الحراس بملء حوض الفسقية قبل وصول الحجاج، وبعدها تتابع القافلة سيرها حتى مغارة شعيب وعيون القصب وشرم ومويلحة، وفيها دار قايتباي، ثم بطن كبريت فأزلم فالوجه فجبل الزيت حتى ينبع، وتستمر القوافل من العقبة حتى رابغ، ثم تواصل سيرها في الطريق المعروف حتى مكة.

٣. طريق عدن

تخرج القافلة وسط احتفال مشهود من لحج إلى يكرد، ثم تعز، ثم وادي الحسنا، ثم تنزل القوافل إلى "حيس".

وكان المحمل اليمني يخرج من عدن عندما كانت تحت الإدارة العثمانية، ومنذ سنة ٩٦٣هـ بدأ الوزير مصطفى باشا والي اليمن في تنظيم موكب المحمل الشريف باسم محمل صنعاء اليمن على إثر صدور فرمان له بهذا الصدد.

يتحرك الموكب من حيس إلى زبيد فرفع، ومنها إلى بيت العقبة الصغير، ومنها إلى قطيع، ثم المنصورية، ثم يتابع الموكب سيره في الطريق المعهود.

أما حجاج شحر فإنهم يتجهون إلى حضرموت برًا، ثم إلى صنعاء، ثم ينضمون هناك إلى قافلة صنعاء، ويتجهون سويًّا إلى مكة المكرمة، ومن شَحر إلى حضر موت خمسة منازل، ومنها إلى صنعاء أربعة منازل.

وعلى حجاج ظفار الذين يودون الاتجاه إلى صنعاء برًّا أن يقطعوا خمس عشرة مرحلة سيرًا، ثم ينضمون إلى جموع الحجيج التي احتشدت هناك لمواصلة السير سويًّا.

٤. طريق عمان

يمثل طريق عمان الطريق الرابع بين الطرق التي تسلكها قوافل الحج الإسلامية، ويتجه حجاج عمان بعد أن يخرجوا من حصن المدينة إلى "تروى"، ثم إلى "عجلة"، ومنها إلى "عصوه"، ثم بئر السلاح، وبعد ذلك تشد الرحال نحو مكة، والطريق من الحصن حتى مكة عشرون مرحلة، ولكن لصحراويته وندرة مياهه فإن حجاج عمان يفضلون التوجه والعودة بطريق البحر.

٥. طريق الحسا

وهو الطريق الذي كانت تسلكه جموع حجاج نجد والجزيرة مارين بالدرعية فشعرا ثم مرقب، ومن هناك مرورًا ببعض المراحل، حتى ذات عرق حيث مكان إحرام سكان نجد فساحة الكعبة المشرفة.

٦. طريق البصرة

تتحرك القافلة من البصرة إلى الدرهمية، ثم إلى صفوان، ثم إلى منزل "جهر"، وتحط رحالها للتزود بالمياه والمؤن، ثم تتجه إلى حصن النبي موسى الموجود في "أضافا"، وبعدها تتحرك القافلة مارة بالعديد من المواقع والمنازل، حتى تصل أيضًا إلى "ذات عرق"، التي تعد ميقات حجاج نجد والبصرة، حيث يحرمون فيها ثم يتجهون إلى بستان بني عامر، فمكة المكرمة حيث بيت الله الحرام.

٧. طريق بغداد

يتجمع حجاج فارس وأذربيجان وغيرها من هذه المناطق في بغداد، وتتحرك القافلة من بغداد حتى تنزل بهضبة (صرصران)، فينضم إلى الموكب جموع أخرى من الحجاج متجهين نحو هضبة (قراشر)، ومنها إلى شط الفرات، ثم إلى الكوفة، فمشهد علي المسمى (سد بيداء النجف)، ومنه إلى "متعب"، ومن هناك إلى "فرع" مرورًا بكثير من المراحل، حتى يلتقي بقافلة واسط في المكان المسمى "ثعلب"، ثم تتابع القافلة سيرها.

ويزدان الطريق من بغداد إلى مكة المكرمة بالأبنية وأسبلة المياه والخانات وغيرها من الأبنية رفيعة المستوى، وخاصة تلك التي

أمرت ببنائها السيدة "زبيدة" زوجة هارون الرشيد العباسي، والسلطان ملكشاه السلجوقي، وقد حافظ عليها وعني بها السلاطين العثمانيون جميعًا.

حماية طرق الحج

ولحماية طرق هذه القوافل كانت الدولة العثمانية تقيم الحصون والقلاع والمخافر على طول الطرق، وتوفر لها القوات التي تقوم بالحراسة وكسر شوكة قطاع الطرق والبدو والخارجين عليها.

وأقامت في المدينة المنورة قلعة كبيرة وفرت لها القوات اللازمة لحفظ الأمن في المنطقة. كما كان محافظ المدينة يختار من بين كبار الضباط الذين يستطيعون القيام بالمهام المنوطة بهم على أحسن وجه، وكان يجمع في يديه بين السلطتين المدنية والعسكرية، وكان المحافظ يلقب أحيانًا بشيخ الحرم النبوي.

كما أنشأت الدولة العثمانية قلعة في مكان مناسب من مضيق الجديدة بناء على طلب من الأهالي لحفظ الأمن.

كما كان الجيش السابع الميداني خاصًّا بولاية اليمن، وكانت وحداته كلها تتألف من عساكر نظامية، وكانت فرقة الحجاز المرتبطة بهذا الجيش عبارة عن ثلاث آيالات مشاة ونصف آلاى خيالة وبطارية مدفعية.

وقد حرصت الدولة على وضع محطات حراسة بجوار آبار المياه على طرق القوافل، وخاصة قافلتي الحج الشامي والمصري.

ولوقف التهديدات الخارجية لقوافل الحج والأماكن المقدسة قامت الدولة العثمانية بعمل حزام أمن حول الحجاز، يمتد هذا الحزام من سواكن ومواني اليمن وخليج البصرة وجدة والسويس، ولقد وضعت الدولة في حسبانها أيضا حماية طرق التجارة الشرقية الوافدة من الهند.

وكانت الدولة العثمانية فيما بعد تسعى لتطوير وتنظيم مواني جدة والحديدة وينبوع، وإقامة الأرصفة والمرافيء، وجعلت هناك أسطولًا مقيمًا من السفن العثمانية للعمل بشكل منتظم بين السويس وعدن.

وكانت هناك تقارير تقدم من حين لآخر إلى السلاطين العثمانيين تطالب بضرورة إصلاح وتنظيم وحماية المواني الممتدة من العقبة حتى باب المندب؛ كما كانت هناك سفن بريدية "بوسته" تعمل بانتظام بين إسطنبول والحديدة، لنقل البريد والجنود بين مواني البحر الأحمر والحجاز.

موكب الصرة السلطانية

ثم تم استحداث "صُرَّه آلايي"، وهي القوات التي كانت تقوم بالإعداد للاحتفال لخروج الصرة والمحمل وموكب الحج من أمام القصر السلطاني، ثم يناط بها الحفاظ على الصرة والمحمل وقافلة الحج، حتى تصل وتعود في أمن وسلام.

وكانت هذه القوات دائما في رفقة هذه المواكب، وكانت تسير برًا حتى سنة ١٨٦٤م مستخدمة الجمال والبغال والخيول، وبعد هذا

التاريخ شرعت الدولة بإرسالها عن طريق السفن الحربية إلى بيروت أو السويس ومنها إلى جدة أو ينبوع، ثم تكمل رحلتها برفقة قوات الحجاز إلى أماكن الشعائر الدينية.

وبعد افتتاح خط السكة الحديد الحجازي ١٩٠٨م كانت ترسل هذه القوات أيضا برفقة هذه المؤن والهبات والأوقاف، ولا تفارقها إلا بعد أن تصل إلى هدفها، وكانت هذه القوافل إذا ما خرجت برًا تتحرك من إسطنبول في الثاني عشر من رجب، ولكن بعد ما تقرر إرسالها عن طريق البحر أصبحت تخرج في الخامس عشر من شعبان من كل عام.

كما كان أمين الصرة الهمايونية يُختار في معظم الأحيان من بين كبار العسكريين المشهود لهم بالتميز العسكري والتدين وحسن السير والسلوك والتقى الورع وطهارة اليد والعدل، حتى يشرف بنفسه على القوات المرافقة للمحمل، وقافلة الحج، كما يقوم بتسليم الفرمان الخاص بتوزيع أموال الصرة الهمايونية على الحرمين الشريفين وأوجه التصرف والصرف منها إلى شريف مكة ومشايخ الحرمين الشريفين، بحضور رجالات الدولة العلماء وقادة القوات الموجودة في كل من مكة والمدينة وجدة والطائف، وأمراء قوافل الحج.

وكان يشرف بنفسه باعتباره ممثلا للسلطان العثماني على أداء المناسك وحفظ الأمن والأمان خلال موسم الحج كله، إلى أن تغادر القوافل كلها المدينتين المباركتين عائدة إلى بلادها، فيعود أمين الصرة بعد أن يكون قد أشرف أيضا على توزيع الأوقاف

والمخصصات على أهالي الحرمين، فيقدم تقريرًا مفصلًا إلى الصدر الأعظم وشيخ الإسلام في الآسِتانة، وبعدها يمثل بين يدي السلطان ليقدم تقريره عما أنجزه في موسم الحج ومرئياته ومقترحاته للموسم القادم.

حقيقة حريم السلطان(*)

في مرحلة توطيد أركان الدولة، كان السلاطين العثمانيون يتزوجون ببنات حكام الدول المجاورة أو بنات الأعيان والأشراف، ولكن ما إن حلّت مرحلة الازدهار حتى تغيرت هذه الحالة؛ حيث بدأ السلاطين يكتفون -في غالب الأحيان- بالزواج ببعض جواري القصر فقط، وذلك ليمنعوا التدخّلات السيئة التي يُحتمَل أن يقوم بها الأصهار مستغلين قرابتهم من السلطانة زوجة السلطان.

وفي المراحل اللاحقة، بدأ السلطان يعيش مع عائلته داخل القصر في جناحٍ يسمى "حريم السلطان"، الذي أعيد تنظيم هيكلته من جديد في عهد السلطان محمد الفاتح.

وبعد فتح إسطنبول في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي نُقِل حريم السلطان الذي كان في قصر "العتيق" في حيّ "بيازيد"، إلى قصر توب قابي الذي أقام فيه السلاطين العثمانيون زمنًا طويلًا.

(*) **مراد دومان** [كاتب وباحث تركي]. الترجمة عن التركية: **ماهر جلقمة**.

لابد أن نشير بدايةً إلى أن حريم السلطان -الذي نُقشت جدرانه ومداخله بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأدعية المأثورة- وُصفت الحياة فيه من قِبل الغربيين بشكل خيالي مجاف للحقيقة. ولكن على الرغم من كل تلك الأوصاف الزائفة، ظل الحريم محافظًا على حرمته وأصالته فلم تتلطخ فيه قدسية العائلة التي هي مهد الأخلاق الإسلامية والأصالة التركية، لأن السلاطين حرصوا أشد الحرص على أن يضعوا حواجز بينهم وبين سكّان الحريم، ويتعاملوا معهم ضمن قواعد صارمة ومعايير منضبطة.

ومما يجب لفت الانتباه إليه أيضًا، هو أن التاريخ سجل الكثير من مكائد النساء في القصور الأوربية، ولكن لا نرى -في المقابل- إلا القليل من قبيل هذه الأحداث في قصور الدولة العثمانية؛ من مثل ما وقع في أيام السلطانة من الجواري "هُرَّم" زوجة السلطان سليمان القانوني، وأيام السلطانة "نور بانو" و"صفيّة" و"كُوسَم". ولا شك أن أهم سبب أدى إلى هذه التدخّلات من قِبل النساء العثمانيات، هو جلوس جل السلاطين على سدة الحكم في سن الصِّغَر، وذلك منذ عهد السلطان أحمد الأول وطيلة معظم القرن السابع عشر الميلادي.. أدى هذا الأمر إلى صعوبة السيطرة على الدولة، ومن ثم إلى غياب السلطة في التنظيم، كما أثّر -بطبيعة الحال- على مؤسسة الحريم تأثيرًا سلبيًّا؛ حيث بدأت أمهات السلاطين بالتدخل في شؤون الدولة وفرض نفوذهن على الحكم بشكل لم يكن له مثيل سابق في الدولة العثمانية.

استمر هذا الوضع حتى عهد السلطان محمد الرابع الذي تربع على العرش في السابعة من العمر، حيث قامت والدته السلطانة "خديجة تورهان" بمساعدة وتوجيه ابنها السلطان في النصف الأول من حكمه، ثم تركته ليحكم البلاد بنفسه، وراحت هي تنشغل بتربية نساء الحريم وترسيخ فكرة عدم تدخل النساء في شؤون الدولة والسياسة.. وقد استمرت هذه التربية المحمودة حتى نهاية عهد الدولة العثمانية.

ولابد أن ننوه هنا، أن تدخُّل بعض أمهات السلاطين في الحكم، كان خوفًا منهن على زوال الدولة العلية، فذلك أدى إلى تدعيم أركان الدولة في وقت الضعف. فمثلًا، توجيهات السلطانة "كوسم" والسلطانة "تورهان" التي أبدينها في الشؤون الإدارية، ربما كان دليلًا على أنهما تمتلكان المعرفة الكافية للتمييز بين الخطأ والصواب فيما يخص الإدارة.

يسكن في الحريم أهلُ السلطان مع الخدّام من الجواري.. أما مَن يمتلك السلطة والصلاحيات التامة داخل جناح الحريم فهي والدة السلطان، وأما المشرف على الخدَم والعمال نساء ورجالًا، فهو شخص يسمى "آغا الحريم".

إن من أهم المسائل التي يدور النقاش حولها في هذه الأيام عن الحريم والتي تم تفسيرها خطأً، هي مسألة الجواري.. من المعلوم أن الجواري هن من أسرى الحروب، ومن المعلوم أيضًا أن الإسلام أمر بحُسن معاملة الأسرى والرفق بهم، وعدم إيذائهم أو التعرُّض لما يجرح كرامتهم.. فعلى هذا الأساس سارت الدولة العثمانية وتعاملت مع الأسرى برفق، وسعت إلى تربية النساء منهم

تربية إسلامية، وبذلت الجهود لهدايتهن إلى الإسلام، ثم من بعد استئناسهن بالإسلام قامت بإطلاقهن أحرارًا..

نعم، هذا ما كان يوصي به العلماء في مؤسسة الحريم، وهذا ما كان يفعَّل على أرض الواقع. ولا شك أن هذه القيم الإسلامية التي نفّذتها الدولة العثمانية، أقامت لها حضارة راقية لا نظير لها في مسرح التاريخ.. وليس بغريب أن تُخرِّج هذه الحضارة من جواري الحريم؛ "السلطانة الوالدة" أي والدة السلطان التي تعني السيدة الأولى في أيامنا هذه.

الحريم مدرسة قيم وأخلاق

إن الوظيفة الأساسية التي يتقلّدها الحريم، كانت تتجلى في كونها مؤسسة تعليم تطبيقي تسعى إلى تربية الجواري اللواتي سيَقُمن بخدمة القصر، كانت الجواري يتعرّفن في الحريم على الأخلاق الإسلامية السامية، ويتعلّمن القراءة والكتابة، ثم يتلقّين العلوم الدينية والاجتماعية من جانب، ومن جانب آخر يتعلّمن كيفية التعامل مع أهل القصر والأدب في الحديث والمعاملة.. ووفقًا للقابليات والمواهب، كنّ يتعلّمن كذلك فن الموسيقى أو مهنة الخياطة أو مهنة التطريز وغيرها من المهن.. ومن ثم كان يتم توظيفهن في القصر وفقًا لاختصاصهن.. وأما المتفوّقات منهن، كنّ يرتقين إلى مرتبة "نائب المشرف"، ومن ثم يتم تعيينهن إما إلى دائرة السلطان أو دائرة والدة السلطان، وإما إلى دائرة زوجة السلطان أو دائرة فرد من أهله.. وأما الماهرات الذكيات منهن، كان يتم ترقيتهن درجة درجة من خلال تقييم أدائهن، وفي نهاية الأمر يُلقَّبْن بـ"المعلّمة" ليقمن بخدمة السلطان مباشرة.

ولعل هذا النظام دليل على أن ترقية الجواري كانت تتحقق وفقًا للكفاءات، وليس وفقًا للشكل والجمال كما يزعم الكثير من الناس، بل الجارية المتفوّقة في التعليم، الكاتبة القارئة جيدًا، صاحبة الكلام الطيب والمؤدب، هي مَن كانت تستحق الترقية.

ولابد أن نلفت الانتباه هنا إلى أن نظام الحريم هذا، كان شبيهًا جدًّا بنظام "الأندرون" الذي ينشئ رجالًا أكفّاء قادرين على تقلُّد المناصب الإدارية المهمة في أجهزة الدولة العثمانية.

كانت بعض الجواري تُحرَّر ويتم تسريحها من الحريم؛ حيث يُعَدُّ جَهازها ويقدَّم لها وثيقة التسريح لتتزوَّج برجل "أندروني" تَربّى وتعلّم ونشأ -مثلها- في القصر السلطاني.

كان السلطان بنفسه يهتم بزواج الأندرونيين مع جواري الحريم، حيث كانت هذه المبادرة من السلطان تعزز ثقة الأندرني به وتزيد من صدقه ووفائه تجاه دولته.

ولا شك أن هذا الأمر يبين لنا مدى قوة المركزية وعمق جذورها لدى الدولة العثمانية.

كان يطلق على الجواري المسرَّحات من القصر اسم "أهل القصور"، هذا وقد كان القصر السلطاني يخصص الرواتب وكل التسهيلات، للواتي لم تتيسّر أمور حياتهن خارج القصر، أو للواتي ترمَّلْن.. أما اللواتي لم يرغبن في مغادرة القصر، كن ينلن الحماية الكاملة والحياة الكريمة في الحريم طيلة حياتهن.

الحريم جامعة حصينة

تـم تربيـة المئـات من الجـواري في الحريم خلال فتـرة الازدهار، بيد أن نسبة ٩٠٪ منهن كن يعملن كخادمات.. أما المتفوّقات من بين هـؤلاء الجـواري فكـن يعملن في خدمة الحريم وأهل السـلطان فقط مقابـل راتـب مخصص لهن، كما لم يكن لهن أية صلة مـع السـلطان أبدًا، إنما كان السلطان يهتم فقط ببعض الجواري المتعلِّمات الذكيات المتفوّقات اللواتي تم اختيارهن من قبل والدة السلطان أو المشرف، ولم يكن يعلم شيئًا عن غيرهن ولم يكن يرى من الأخريات واحدة.

إن التخطيـط المعمـاري للحريـم تـم تصميمـه على شـكل جامعة حصينة لا تسمح بالدخول العشوائي إليها حتى للسلطان.. ولعل هذا الأمـر يكفـي لأن يُضحد كل الادعاءات التي تقول بأن السـلطان كان يقوم بصفّ مئات الجواري ويختار منهن من يريد.

لقـد كان للحريـم تخطيـط معمـاري خـاص يمنـع رؤيـة ما يجري داخله، ويمنح لسكانه الحرية التامة في ممارسة الحياة اليومية.

اسـتمرارية الذُرّية بالنسـبة لآل عثمان كان أمرًا مهمًّا للغاية.. ومـع ذلك كان يُتوفَّى بعض أولياء العهد في سـنّ مبكّر بسـبب أو بآخر، أو لم تكن تنجب بعض الجواري الأولاد، أو تلد بعضها الآخر للسطان إناثًـا فقـط.. كل هـذه الأمور، كانـت من ضمن الأسـباب التي دفعت السلاطين العثمانيين إلى الزواج المتعدد.

ولابـد أن نشـير فـي هـذا المقـام، إلـى أن كل زوجات السـلاطين العثمانيين -أحرارًا وجَوارٍ- كن سواسـية أمام السـلطان وأمام الشـرع

والقانـون، بمعنـى أدق؛ كان كل مـا يجري في الحريم عبارة عن حياة شريفة ومنضبطة تحكمها الشريعة الإسلامية.

والجديـر بالذكـر أن أغلـب المعلومـات التـي دارت حـول الحياة اليومية في مؤسسة "الحريم"، تعود إلى القرن التاسـع عشر الميلادي، أي إلـى الفتـرة التي بدأ النفـوذ الغربي يتوغل في القصر العثماني ولا سيما في الحريم منه.. وهذا دفـع المؤرخين إلى تعميم ما كتبوه عن حيـاة القصـر فـي القرن التاسـع عشـر، علـى مراحل الازدهـار أيضًا، وهذا بطبيعة الحال جاء بتقييمات خاطئة خيالية لا تمت إلى الحقيقة بصلة.

أمـا الحقيقـة التـي لا تتغير، فهي أن كل خطوة تخطى في الحريم، كانت مقيدة بأنظمة منضبطة وقوانين صارمة لا تسـمح أبدًا بالإفراط فـي التـرف والبـذخ، بـل إن حفـلات تلك الأيـام التي كانـت تقام في الحديقـة الخاصة فـي حريم قصر طوب قابي، كانت منضبطة بقواعد أخلاقيـة، وكان المحتفلـون ملزميـن بتطبيـق هـذه القواعـد الأخلاقية بحذافيرها.

وقـد اسـتمرت هـذه العـادة المحمـودة بعـد انتقـال السـلاطين العثمانييـن إلـى قصـر "دولمه باهشـه" و"تشـيراغان" و"يلديـز" وقصر "بشكتاش" حتى في الأعراس، والأعياد، والمناسبات الدينية وغيرها مـن الاحتفـالات أيضًا، وظلت مسـتمرة على هذه الوتيـرة حتى نهاية عهد الدولة العثمانية.

يمكن أن نجد كل ما ذُكر آنفًا، في الكتب والذكريات التي دوّنتها بعض السلطانات في أواخر العهد العثماني، ويمكن كذلك أن نجده

في كتب الباحثين المنصفين والموضوعيين الذين درسوا الحريم العثماني دراسة دقيقة.. ولعلنا إذا انتبهنا إلى الآيات القرآنية المنقوشة على جدران قاعة الاستراحة للسلطان والتي تتعلق بالحياة الأسرية والتربية الأخلاقية، نتيقّن أن ما كُتب عن الحريم من قِبل الغربيين مناف للحقيقة تمامًا.

إذن، إن الحريم العثماني -بعكس ما وُصف- مدرسة أصيلة تقوم على المبادئ والقيم الإسلامية؛ من أخلاق وتعليم وسلوك وأدب ومعاملة.. هذه المدرسة استطاعت أن تحافظ على هويتها الأصيلة ومنهجها المصبوغ بصبغة الإسلام ستة قرون.. لذا، يجب أن يُتناوَل الحديث حول الحياة في الحريم العثماني باحترام وبدون المساس بحرمته وكرامته، وبالتالي نَقْل الصورة الحقيقية له دون التوغل في الفانتزيات والتحريف.

واجب علينا أن نشعر بالمسؤولية تجاه تاريخنا، ونوفي حق أجدادنا الأوفياء الذين ضحّوا بكل غالٍ ونفيس دون تردد من أجل الرسالة العالمية الإنسانية السمحاء.. لابد أن نعرِف أجدادنا بحق، ونعرّفهم إلى العالم بأجمل الصور والأشكال.

ذكريات رحالة فرنسي عن إسطنبول العثمانية(*)

لقد كُتِب الكثير والكثير عن مدينة إسطنبول والعثمانيين، لأن هذه المدينة -إلى جانب كونها أبهى وأعظم مدينة عرفتها الإنسانية في قرونها الوسطى- كانت تحتل مركزًا قياديًّا في العالم، والعثمانيون الذين جرت على أيديهم تلك الروائع والآثار التي ازدانت بها المدينة ناشرة السكينة والطمأنينة والهدوء، كانوا -ولا يزالون- يشكلون مادة دسمة في مذكرات الرحالة وكتابات المؤرخين.

ومن بين هؤلاء نتوقف عند الرحالةِ الأديب الفرنسي الشهير "جيرار دي نرفال" (*Gérard de Nerval*) الذي سجَّل بموضوعية في مذكراته مشاهداته عن الإنسان العثماني ومدينة إسطنبول، فمكننا من أن نرى حقيقة التاريخ في شكلها الواضح البرّاق، عارية من الافتراءات التي تشوّهها.

(*) **طلحة أوغزلوإيل** [كاتب وباحث تركي]. الترجمة عن التركية: **مصطفى حمزة**.

وعلى الرغم من أن مؤلفات هذا الأديب (الذي عاش في القرن التاسع عشر) في الشعر والرواية والمسرح، بقيت تُقرأ طيلة ١٣٥ عامًا، وأن البعض في عصره اعتبره أديبًا تجاوز حد العبقرية والجنون.. فإنه -على الرغم من ذلك- اشتهر بين الناس كواحد من أكثر الرحالة سياحةً في عصره.

وهذا الكاتب الذي أَسَرَتْه مشاهدُ الشرق وحياتُه، تردَّد كثيرًا على إسطنبول، واستطاع في مذكراته أن يقف على تفاصيلها الدقيقة، وملاحظاته التي سجلها في رحلاته تقدم لنا اليوم معلومات موثوقة عن حياة العثمانيين وإسطنبول في القرن التاسع عشر.

وأول ملمح استرعى انتباه الكاتب -بمجرد أن وطئت قدماه الدولة العثمانية- فأدهشه، تمثل في الأخوة والتعايش في مجتمع ينتمي أفراده إلى شعوب وأديان وثقافات مختلفة. وتحدث في مذكراته عن هذا الملمح بهذه العبارات:

"مدينة عجيبة إسطنبول، يعيش فيها جنبًا إلى جنب شعوبٌ أربعةٌ في غير كرهٍ بينهم ولا أحقاد، فالتسامح الذي يبديه هؤلاء من الأتراك والأرمن واليهود والروم فيما بينهم، لا نستطيع أن نراه عندنا بين من ينتمون إلى ولايات وأحزاب مختلفة".

وكاتبنا الذي لا يهمل المقارنة بين الحياة العثمانية والحياة الأوروبية من حينٍ إلى آخر، يركز في مذكراته أيضًا على التسامح العميق الذي تبديه الدولة للشعوب التي كانت تعيش تحت كنفها وسلطتها، وهذا مشهدٌ كتبه عن مقاهي إسطنبول:

"عند اجتيازنا باب سور "غَلَطة" تُقابلنا المقاهي التي تشبه المقاهي عندنا، وتنتشر على طاولاتها الصحف الأرمنية والرومية فضلًا عن صحف اليونانيين القادمين من مورة".

مدينة لا تعرف سوى التسامح

وكانت زيارة السلطان العثماني تأتي على رأس رغبات كل زائر قادم إلى البلاد العثمانية من غير المسلمين. ولتحقيق هذه الرغبة كانوا يحضرون مراسمَ تحيةِ يوم الجمعة، أو ينضمون إلى فعاليات سباق الخيول في ميدان الخيول... وكاتبنا يجمع كل طاقته في التركيز والانتباه قبل (تحية الجمعة) ينتظر السلطان العثماني، وما من شك في أنه كان ينتظره في هيبة عظيمة رسَمها له في مخيلته، لكنه سيجده في الواقع في صورة لم يكن يتخيلها:

"شاهدتُ مرور السلطان في عربة متواضعة تتقدم في الطريق الهابط إلى الميناء، كان عليه معطفٌ مُزَرَّر حتى العُنق، والأتراك يلبسون هذا النوع من المعاطف منذ عهد التنظيمات، والأمر الوحيد الذي يميز السلطان في لباسه عن بقية الناس هو النيشان الإمبراطوري المرصَّع بالألماس على طربوشه".

بعد أداء مراسم "التحية" يتقدم السلطان نحو منطقة "بيرا" (*Pera*) أو "بَيْأُوغْلُو" (*Beyoğlu*) لزيارة تكية هناك، وأمام التكية تقع هذه الحادثة التي تستولي على الكاتب دهشةً وعجبًا، لأنه لم يكن يتوقع هذا الحد من التسامح عند الحكام العثمانيين:

"كان السلطان قد بلغ شارع "بيرا" فدخل تكية أحمد باشا، وفيها أيضًا قبر "الكونت بونفال" (*Kont Bonneval*)، وبينما كنّا ننتظره أمام

باب التكية، إذ ظهر موكب جنازةٍ يتقدمها رهبان الروم، كان الموكب يتقدم نحو خارج المدينة، فطلب حرَس السلطان من الرهبان تغيير طريقهم، لأن السلطان على وشك الخروج من التكية، ومن غير المناسب أن يلتقي بموكب الجنازة.

وبعد تردّد قصير تكلم رئيس الرهبان -وهو في لباسه البيزنطي- مع رئيس الحرَس، ثم تابع الموكب دون تغيير طريقه، فقد اقتنع رئيس الحرَس بأنه لو صادف الموكب خروج السلطان فإن السلطان كان سينتظر مرور الموكب دون مشكلة، ففي إسطنبول تسامح كبير شامل لجميع الأديان، وهذه الحادثة أسجلها مثالًا لذلك".

موضوع آخر يَدهش له كاتبنا، هو هذا التضخيم المبالَغ فيه عند الكتّاب الأوربيين للحياة الأُسَرية للسلطان ومسألةِ الحريم فيها، فنراه قد سمع من محيط السلطان وشاهَدَ بنفسه ما يدحض ويبطل تلك الادعاءات:

> "أخبرني صديقي أيضًا عن عدد النساء في القصر، وهو مختلف تمامًا عما هو شائع عندنا في أوروبا. فقد كان يعيش في حرم السلطان (بيت الحريم) ثلاث وثلاثون امرأة، ثلاث مِنهن فقط مَحْظيّاته والأخريات خادماتُ الغرف. فالأوربيون يفهمون هذه العبارة -خادمات الغرف- بشكلٍ خاطئ".

الرفق بالحيوان ريادةٌ عثمانية

وتثور المشاعر لدى الأوروبي حين يتعرف على هذا المجتمع الذي تسود فيه أخلاق الأخوة والتعاون، لاسيما عندما يرى ما لم يعرفه في بلاده من أخلاق الحرص على تقديم المساعدة التي تتجاوز

الإنسان إلى عالم الحيوان، فما الذي شعر به كاتبنا بعد مشاهداته في هذا الشأن:

"بعد خروجي من الحُرْش الذي يحيط بقِشْلة (ثكنة) المدفعية التي تغطي ساحة واسعة، وجدت نفسي في طريق "بُيُكْ دَرَة" (النهر الكبير) وكان هناك مرج أخضر يمتد حتى أطراف القشلة، وعلى المرج مشهد لا يختلف كثيرًا عما شاهدته من قبل؛ إذ كان في المرج بضع مئات من الكلاب تنتظر وقد بدأ صبرها ينفد، وبينما هم كذلك إذ ظهر العساكر يحملون قدورًا كبيرة معلَّقة على أكتافهم بالعِصيّ؛ فبدأت الكلاب تتقافز في الهواء عندما رأتهم وكأنها تكاد تطلق صيحات الفرح، وما أنْ وُضعت القدور على الأرض حتى اندفعتْ مسرعة نحوها، وكان العساكر يحاولون تفريقها إلى مجموعات بالعِصيّ التي يحملونها.

قال لي إيطالي كان هناك: يُطبخ هنا طعام خاص بالكلاب! إن هذه الحيوانات لم تكن سيئة الحظ أبدًا، وفي إسطنبول أقيمت الأحواض قرب المساجد وصنابير المياه لتنتفع منها الحيوانات، إضافة إلى الجمعيات التي تهتم بحمايتها.

وصلنا إلى إحدى المقاهي، المثلجات وشراب الليمون و(الموكا)... كل شيء يوحي بالنمط الفرنسي وكأنه بقعة من أوربا. الشيء المحلي الوحيد المختلف هنا والذي لا يمكن أن يغيب أبدًا عن عين المُشاهِد هو العديد من اللقالق التي تتجول بين الطاولات، فما أن تَجلس على الطاولة وتَطلب قهوتك حتى تقترب اللقالق وتقف قربك وكأنها إشارات استفهام، تستطيع برقابها الطويلة أن

ترفع رؤوسها فوق الطاولة وتتناول قطع السكر، غير أنها قلما تفعل، لأنها تنتظر العطاء منكم. وهكذا، تتنقل من طاولة إلى أخرى تجمع البسكويت والسكر.

عندما دخلنا باحة التكية شاهدنا قطيعًا من الكلاب، كان الخدم يقدمون لها الطعام، ومنذ القدم كان الناس يخصصون التبرعات الكبيرة لرعاية الكلاب، كانت جدران التكية التي تظللها أشجار الدُّلب والأكاسيا مليئة بالأقفاص المصنوعة من الأخشاب الملونة، صنعت خصيصًا لتأتي إليها العصافير وتبني فيها أعشاشها، وكانت العصافير تتبنّى هذه المساكن المجهَّزة وتمتلكها وتعيش فيها آمنة من غير خوف ولا قلق من جوع".

آثار إسطنبول تلغي الأحكام المسبقة

وإذا كانت البيوت ذات النوافذ البارزة -والتي تحمل بتفاصيلها التزيينية قيمة فنية عالية وتعكس الحالة الروحية للعثمانيين ورؤيتهم الجمالية- تشد الأنظار إليها، فإن موجة التخلي عن هذه الثقافة والتطلع إلى التشبه بأوربا -التي ظهرت مؤخرًا على المسرح الدولي- لقيت رد فعلِ الغربيين قبل غيرهم، وأثارت انتباه كاتبنا الذي يقول:

> "ألزمت "التنظيمات" العثمانيين ارتداء الطربوش وحبستهم في المعطف الذي تبلغ أزرارُه العنق، وألغت الزينة من البيوت؛ فبطلت السقوف المذهبة التي تشبه خلايا النحل، وأعمال الحفر في "الأثاث الخشبي"، والصناديق المزخرفة المصنوعة من أخشاب أشجار الأرز، وحل محلها الجدران الملساء المطلية ذات الستائر،

وبعض الصور المعلقة في لوحات، والقليل من المزهريات وهذا كل شيء".

وتعرضت رؤية الدولة العثمانية للفنون والآثار الفنية لافتراءات ظهرت في بعض الأوساط الثقافية الغربية، في سبيل إضعاف هذه الدولة التي حكمت لأعوام طويلة مجتمعات كثيرة في ظل التسامح والتعايش والسلام، غير أن الأجانب القادمين إلى العاصمة وهم يحملون الأفكار الخاطئة عن الدولة العثمانية ومنها ما يتعلق بنظرتها "السلبية" للفن والآثار الفنية، سرعان ما كانوا يدركون خطأهم بمجرد رؤيتهم للنصب التذكارية بكل هيبتها في الساحات الكبيرة، ويرون بصمات الفنانين وتوقيعاتهم بأقلام القصب في فروع الفن المختلفة.

وتأتي عناية العثمانيين بالآثار التي تعود إلى الدول والثقافات السابقة وحمايتها، لتشكل جانبًا آخر من الجوانب التي تأخذ بألباب هؤلاء الغربيين وتصحح ما لديهم من انطباعات مسبقة.

وها هو كاتبنا يقدم رؤيته في ذلك في صباح العيد في ميدان الخيول:

"هزت المدينةَ أصواتُ المدافع التي انطلقت من السفن والحصون عند شروق الشمس صباح العيد، وانطلقت أصوات الأذان من المآذن الألْفِ تملأ الآفاق، وكانت مراسم العيد هذه المرة في ميدان الخيول، حيث كان هذا الميدان أيضًا يشتهر بذكريات الإمبراطورية البيزنطية، وكان فيه الأوبرا الأثرية التي تعود لها، والمجسَّمات القائمة على القواعد الحجرية البيضاء التي أحضرت من مصر، وهذه الهياكل -التي لازالت قائمة من عهد البيزنطيين-

خير إثبات على عدم صحة ما نظنه نحن الأوربيين عن العثمانيين بأنهم أعداء التماثيل".

الدين والبناء الأخلاقي

ومعتقدات المسلمين الدينية تشكل ملمحًا آخر في الانطباعات والمعلومات المغلوطة عند الغربيين، والكاتب -مثل جميع الغربيين الذين تلقوا سماعًا افتراءات ومعلومات خاطئة عن المسلمين وعن أنماط حياتهم- يضطر إلى عقد مقارنة بين الحياة في مجتمعه والحياة في المجتمع العثماني فيدلي بهذه الملاحظات:

"أرى أنه من الخطأ بمكان، اتهام المسلمين بغواية النساء، واتهامهم بالسخافة في بعض عاداتهم دون أن ندرك الاختلاف الكبير في المعتقدات والعادات بيننا وبينهم، فليس من الصحيح أن نصدر أحكامنا في حقهم انطلاقًا من أخلاقنا؛ فإذا أخذنا في الحسبان علاقة المسلم بزوجته وغيرته في موضوع "العِرْض"، فإننا عندئذ ندرك الافتراءات السفيهة التي اختلقها كتَّابنا في القرن الثامن عشر".

ضمت الدولة العثمانية عددًا كبيرًا من الرعايا المنتسبين إلى ديانات مختلفة لم تشهد مثله دولة أخرى، وقد وقف كاتبنا على مشهدٍ لم يكن يتخيله أبدًا، فما أن خطت قدماه نحو الشارع من مكان إقامته في "بيرا" صباح ذلك العيد حتى وقعت عيناه على هذا المشهد:

"يشارك الأوربيون المقيمون في "بيرا" في طقوس العيد كما جرت العادة فيحتفلون مع المسلمين".

وما شهده عقب صلاة العيد في ميدان الخيول توقف أمامه دهشة وعجبًا:

"توجه الجميع إلى الطعام والشراب بعد ذبح الأضاحي؛ أرغفة الخبز (خبز التنور)، والزبدة المحلاة بالسكر، والمقالي، والكباب المفضل عند الجميع في كميات وافرة، تُقدَّم للناس بلا مقابل، وقد سُدّدت أثمانها من قبل الأغنياء، يدخل المرء إلى أي بيت يريد، ويجلس على المائدة فيُستقبَل بحفاوة؛ فالبيوت كلها مفتوحة الأبواب على مصاريعها، يحاول الجميع تقديم ما يستطيعون من الضيافة، ويحاولون إضفاء السرور على الضيوف مهما كانت أديانهم أو أعراقهم أو مقاماتهم الاجتماعية، لا فرق في ذلك بين غني أو فقير".

فهل كان يمكن للقادمين إلى الدولة العثمانية الذين يقفون في حيرة وإعجاب أمام هذه السلوكيات الراقية، أن يظلوا بمنأى عن التأثر بهذا الدين الذي كان سببًا لمثل هذا البناء الأخلاقي العظيم!؟

لم يغب أيضًا عن عيون الكاتب وانتباهه، أولئك الدراويش المستمسكين بالدين الإسلامي بكل نقائه وصفائه، فكيف تناولت مذكراته هذا الموضوع:

"تأثرتُ كثيرًا بعبادة الدراويش في إسطنبول، فذكر الله عندهم يمكن أن يعبَّر عنه بكل لغة ولسان، وهم بيراعهم -التي يعزفون بها- لا يجبرون أحدًا أن يدور مثلهم، لكنه في نظرهم هو الأسلوب الأرقّ والأرقى في شكر الله وفي التعبير عن عظمته".

لقد جاءت المذكرات التي حوت مشاهدات نقلها ببراعة قلم الأديب الفرنسي "جيرار دي نرفال"، أمينة مجرَّدة من الخضوع لأي

تأثير، سوى ما تراه عيناه وتقع تحت حواسه، فكانت من أفضل المذكرات التي تحمل الكثير من الحقائق عن مدينة إسطنبول.

فهذا الكاتب الذي عرفه عصره ككاتب يعبّد الطريق لمن بعده في هذا المجال، ويقدم بأسلوبه النقي السيّال نموذجًا لهم ويمتلك القدرة على تمييز الحقائق ورؤيتها، نأمل أن تشكل مذكراته أفقًا جديدًا لمن لا يعرف شيئًا عن ماضيه ومع ذلك لا يتردد في انتقاده، وأن تدفعه إلى البحث المفصل عن هذا الماضي.

ولنختم مقالتنا هذه بعبارات من هذه المذكرات التي تتحدث عن نفسها:

"لم أقُم في هذه المذكرات، بالتعريف بإسطنبول، فقد كُتب الكثير عن قصورها ومساجدها وحماماتها وسواحلها، بل أردتُ فقط أن أعبر عما رأيته في شوارعها وساحاتها، فهذه المدينة تشكل منذ القدم الدمغة المُطَلْسَمة المقدسة التي توحد بين آسيا وأوروبا".

مأساة الأندلس وموقف العثمانيين(*)

هناك أسئلة حائرة تجول في أذهان العديد من المثقفين في العالم العربي حول التاريخ العثماني ومن أهمها سؤال: "لماذا لم تقم الدولة العثمانية بمساعدة مسلمي الأندلس عندما داهمهم الخطر الإسباني الماحق؟ ألم يكن في وسع الدولة العثمانية -وهي في أوج قوتها- الحيلولة دون وقوع تلك المأساة المروعة لمسلمي الأندلس. لنتناول هذا الموضوع بإيجاز.

من المعلوم لدى الجميع أن تفرق المسلمين في الأندلس إلى دول طوائف أضعفهم، وأن العديد من حكام هذه الدول الصغيرة بدؤوا يستعينون بالإسبان ضد الحكام الآخرين من المسلمين، وهكذا بدأت القصة الأليمة لأفول شمس الإسلام من سماء الأندلس.

وبينما كان المسلمون غارقين في خضم الفرقة والشتات، خطا الإسبان خطوة مهمة في مضمار الوحدة عندما تزوّج "فرديناند" ملك أراغون من "إيزابيلا" ملكة قشتالة، وأصبح الهم الوحيد للأسبان القضاء على آخر دولة إسلامية في الأندلس وهي دولة بني الأحمر في غرناطة والتي كان يحكمها آنذاك أبو عبد الله محمد وامتدت مدة حكمه عشر سنوات (١٤٨٢-١٤٩٢م).

(*) أورخان محمد علي

العثمانيون والانتصار للأندلس

والحقيقة أنه كان من المتوقع انتهاء حكم مسلمي الأندلس قبل هذا التاريخ بمئات الأعوام لولا المساعدات الخارجية التي كانت تأتيهم من الدول الإسلامية في شمالي أفريقيا؛ فقد قامت دولة "المرابطين" بنجدتهم ضد "ألفونصو" السادس ملك قشتالة، ثم جاءت مساعدات دولة "الموحدين" بعد ذلك وبقيت أسرة الموحدين في الأندلس حتى انتصار ألفونصو الثامن عليها في معركة "نافاس دي طولوسا".

ولكن الوضع تغير في أواخر عمر دولة بني الأحمر في غرناطة، فلم تكن هناك دول إسلامية قوية في شمالي أفريقيا، بل دول ضعيفة، وفي أحيان كثيرة دول متعاونة مع الإسبان والفرنسيين مثل دولة بني حفص في تونس والمرينيّين في المغرب، كما قام الأسبان بسد مضيق جبل طارق ليمنعوا وصول أي نجدة من مسلمي شمالي أفريقيا إلى الأندلس؛ فلم يبق أمام مسلمي الأندلس سوى الاستنجاد بأقوى دولتين إسلاميتين آنذاك وهما الدولة العثمانية في آسيا الصغرى، ودولة المماليك في مصر، فأرسلوا وفدًا لكل منهما طلبًا لنجدتهم.

الوفد الأندلسي في إسطنبول

وصل الوفد الأندلسي إلى "إسطنبول" عاصمة الدولة العثمانية التي كان على رأسها السلطان بايزيد الثاني ابن السلطان محمد الفاتح، وقام رئيس الوفد بتسليم رسالة استغاثة مؤثرة حفظها التاريخ من مسلمي الأندلس إلى السلطان، نُورِد هنا مقدّمتها:

"الحضرة العلية وصل الله سعادتها، وأعلى كلمتها، ومهّد أقطارها، وأعزّ أنصارها، وأذلّ عُداتها.

حضرة مولانا وعمدة ديننا ودنيانا، السلطان الملك الناصر، ناصر الدنيا والدين، وسلطان الإسلام والمسلمين، قامع أعداء الله الكافرين، كهف الإسلام، وناصر دين نبينا محمد عليه السلام، مُحيي العدل، ومنصف المظلوم ممن ظلم، ملِك العرب والعجم، والترك والديلم، ظل الله في أرضه، القائم بسنته وفرضه، ملك البرّين، وسلطان البحرين، حامي الذِّمار، وقامع الكفار، مولانا وعمدتنا، وكَهفنا وغيثنا، لا زال ملكه موفور الأنصار، مقرونا بالانتصار، مخلّد المآثر والآثار، مشهور المعالي والفخار، مستأثّرا من الحسنات بما يضاعف الأجر الجزيل، في الدار الآخرة والثناء الجميل، والنصر في هذه الدار، ولا برحت عزماته العليّة مختصة بفضائل الجهاد، ومجردة على أعداء الدين من بأسها، ما يروي صدور السفح والصفاح، وألسنة السلاح بَاذلة نفائس الذخائر في المواطن التي تألف فيها الأخاير مفارقة الأرواح للأجساد، سالكة سبيل الفائزين برضا الله وطاعته يوم يقوم الأشهاد".

وكان هناك مع هذه الرسالة أبيات طويلة من شعر مؤثر للشاعر أبي البقاء صالح بن شريف يصف مأساة المسلمين في الأندلس وغدر الأعداء بهم:

سلام عليكم من عبيد تخلّفوا
بأَندلسٍ بالغرب في أرض غربة
أحاط بهم بحرٌ من الردم زاخر
وبحر عميق ذو ظلام ولجة
سلام عليكم من عبيد أصابهم
مصاب عظيم يا لها من مصيبة

سلام عليكم من شيوخ تمزّقت
شيوخهمُ بالنتف من بعد عزة
سلام عليكم من وجوهٍ تكشفت
على جملة الأعلاج من بعد سُترة
سلام عليكم من بنات عواتِق
يسوقهم اللبّاط قَهرًا لخلوة
سلام عليكم من عجائز أُكرهت
على أكل خنزير ولحم جيفة

وبعد هذه المقدمة المؤثرة تشرح القصيدة غدر الأعداء الإسبان وكيف يقومون بتنصير المسلمين قهرًا وجبرًا وكيف أن المسلمين جاهدوا ولكنهم قلة أمام جموع الأعداء:

غُدرنا ونُصِّرنا وبُدّل ديننا
ظُلمنا وعوملنا بكل قبيحة
وكنا على دين النبي محمد
نقاتل عمال الصليب بنية
ونلقى أمورًا في الجهاد عظيمة
بقتل وأسر ثم جوع وقلة
فجاءت علينا الروم من كل جانب
بجد وعزم من خيول وعدة
فكنا بطول الدهر نلقى جموعهم
فنقتل فيها فرقة بعد فرقة
وفرسانها تزداد في كل ساعة
وفرساننا في حال نقص وقلة
فلما ضعفنا خيموا في بلادنا

ومـالـوا علـينـا بـلـدة بـعـد بـلـدة
وجـــاءوا بـأنـفـاظ عـظـام كـثـيرة
تـــهـدم أســـوار الـــبـلاد الـمـنـيـعة
وشـــدوا عـلـيـهـا الـــحـصـار بـقـوة
شـهـورًا وأيـــامًـا بـجـد وعـزمـة
فـلـمـا تـفـانـت خـيـلـنـا ورجـالـنـا
ولـــم نـر مـن إخـونـنـا مـن إغـاثـة
وقـلـت لـنـا الأقـوات واشـتـد حالنا
أحطناهـمُ بالكره خوف الفضيحة
وخـــوفًـا عـلـى أبـنـائـنـا وبـنـاتـنـا
من أن يـؤسـروا أو يقتلوا شـر قتلة
على أن نكون مثل من كـان قبلنا
من الدجن من أهل البلاد القديمة

ثم يقول الشـاعر بأنهم أصبحوا ضحية الغدر وعدم الوفاء بالوعود والبنـود التي بلغت خمسـة وخمسـين بندًا في عقـود الصلح، من أنهم سيسـتمرون في إقامة شـعائرهم الإسـلامية بكل حرية، ولكنهم عندما دخلـوا تحـت حكمهـم نسـوا تلك الوعـود والعهود وتركوا المسـلمين أمام خيارين لا ثالث لهما فإما التنصر أو القتل.

ثم يستغيث الشاعر بسلطان الدولة العثمانية، ويعقد آماله عليه:

فـهـا نـحـن يـا مـولاي نشكو إليكم
فـهـذا الـــذي نـلـنـاه مـن شـر فـرقـة
عـسـى ديـنـنـا يـبـقـى لـنـا وصـلاتـنـا
كـمـا عـاهـدونـا قـبـل نـقـض العزيمة
وإلا فيجلونا جميعًا عـن أرضـهـم

بأموالنا للغرب دار الأحبة
فأنتم بحمد الله خير ملوكنا
وعزتكم تعلو على كل عزة
وثم سلام الله قلت ورحمة
عليكم مدى الأيام في كل ساعة

دعا السلطان بايزيد الثاني الصدر الأعظم والوزراء والقواد إلى مجلس اجتماع طارئ لبحث الموقف وما الذي تستطيع الدولة العثمانية تقديمه في تلك الظروف.

بحث المشاركون في المجلس الظروف التي تمر بها الدولة العثمانية آنذاك، ونوع ومدى المساعدة التي تستطيع الدولة تقديمها لمسلمي الأندلس، ولسوء حظ مسلمي الأندلس فقد كانت الدولة العثمانية تمر بظروف قاسية جدًّا، كما كان بعد المسافة، وعدم وجود طريق برّي مباشر إليها يزيد من حدة المشكلة ويعقدها.

الظروف الصعبة للدولة العثمانية

نستعرض هنا باختصار شديد الظروف الصعبة التي كانت تعيشها الدولة العثمانية آنذاك:

العثمانيون والمماليك

كانت الدولة العثمانية آنذاك في حرب مع دولة المماليك في مصر، بسبب نزاعات بدأت من عهد السلطان محمد الفاتح (والد السلطان بايزيد الثاني)؛ فقد عرض السلطان محمد الفاتح على أشرف سيف الدين حاكم دولة المماليك في مصر (الذي كانت مملكة الحجاز ونَجد تحت سيطرته) قيام الدولة العثمانية بتعمير

وإصلاح قنوات الماء في الحجاز دون مقابل تيسيرا للحجاج، فقوبل برفض فظ من قبله.

ومما زاد من التوتر بين الدولتين قيام المماليك بفرض ضريبة على الحجاج العثمانيين.

وفي عهد السلطان بايزيد الثاني أبدى المماليك رغبتهم في ضم منطقة "جُوقُورْ أُوَه" العثمانية إلى الأراضي السورية التي كانت تحت حكمهم، كما حدثت مشاكل أخرى بين الدولتين لا نتطرق إليها هنا. والخلاصة أن الوفد عندما جاء إلى السلطان كانت الجيوش العثمانية في حرب مع جيوش المماليك التي تقدمت فعلا إلى منطقة "جوقور أوه".

مشكلة الأمير "جَمْ"

كانت الدولة العثمانية تعيش مشكلة الأمير "جَمْ" (الأخ الأصغر للسلطان بايزيد) الذي شق عصا الطاعة على أخيه السلطان مطالبًا بالعرش لنفسه.

وحدثت معارك بين الأخوين انتهت بانتصار السلطان بايزيد وهرب الأمير جَمْ إلى مصر حيث استقبل من قبل حاكم مصر بحفاوة، وكان هذا عاملًا مضافًا لزيادة التوتر بين البلدين مما أدّى إلى إشعال فتيل الحرب بينهما.

ولم تقف مشكلة الأمير جَمْ بإحداث التوتر بين هاتين الدولتين بل إن الأمير جم عندما أسر من قبل القراصنة وهو على ظهر سفينة وتمّ بيعه إلى البابا، أصبح ورقة تهديد في يد الدول الأوروبية والبابا

ضد الدولة العثمانية، وأدى إلى توتر العلاقات بين الدول الأوروبية وبين الدولة العثمانية، وإلى تحالف صليبي جديد من البابا "جويلس الثاني" وفرنسا والمجر وجمهورية البندقية ضد الدولة العثمانية مما حدا بالدولة العثمانية إلى تركيز اهتمامها على الخطر القادم إليها من أوروبا.

خطورة الدولة الصفوية

كانت الدولة الصفوية تحاول نشر المذهب الشيعي في الأناضول وترسل المئات والآلاف من شباب التركمان الشيعة -بعد تدريبهم- إلى الأناضول لهذا الغرض.

وكانت نتيجة هذه الجهود حدوث حركات عصيان مسلّحة قادها الشيخ جُنَيد أولًا ومن بعده ابنه حيدر، أي كانت هناك قلاقل كبيرة في الأناضول، ولم تتخلص الدولة العثمانية من هذه القلاقل ومن خطر الدولة الصفوية إلا في عهد السلطان سليم (ابن السلطان بايزيد الثاني).

إذن فالدولة العثمانية كانت في ضائقة شديدة وكانت في حرب فعلية مع المماليك من جهة، وفي مشاكل كبيرة مع الدول الأوروبية حيث نرى إنه بعد سنوات قليلة اضطرت الدولة العثمانية لإعلان الحرب على المجر وعلى بولندة، كما اتفقت بولندة والمجر وليتوانيا ضد الدولة العثمانية وأعلنت عليها الحرب، كما كانت تعاني من وجود قلاقل وحركات تمرد وعصيان في الداخل.

لا نريد الخروج عن الموضوع وإيراد تفاصيل جانبية، ولكن كان من الضروري إلقاء نظرة على وضع الدولة العثمانية آنذاك.

"بايزيد" يفعل ما يستطيع

بعد دراسة لكافة الظروف الداخلية والخارجية قرر السلطان بايزيد إرسال قوة بحرية تحت قيادة "كمال رَئِيس" على وجه السرعة. كان ذلك في عام ٨٩٢هـ/ ١٤٨٧م. أي قبل سقوط غرناطة بخمس سنوات.

وكانت الدولة العثمانية بعملها هذا تعلن الحرب على عدة دول مسيحية في أوروبا؛ كانت تعلن الحرب على قسطاليا وعلى آراغون وعلى نابولي وعلى صقلية وعلى البندقية؛ أي أن الدولة العثمانية على الرغم من مشاكلها الكثيرة -التي ذكرنا أهمها- كانت الدولة الإسلامية الوحيدة التي مدت يد العون لمسلمي الأندلس على قدر طاقتها، ودخلت من أجلهم في حالة حرب مع دول عدة؛ بينما توقّفت عن ذلك الدول الإسلامية الموجودة في شمالي أفريقيا والتي كان بإمكانها من الناحية الجغرافية مسلمي الأندلس كالدولة الحفصية في تونس والدولة الوطاسية في المغرب.

قام "كمال رَئيس" بضرب سواحل جزر جاربا ومالطا وصقلية وساردونيا وكورسيكا، ثم ضرب سواحل إيطاليا ثم سواحل إسبانيا، وهدم العديد من القلاع والحصون المشرفة على البحر في هذه السواحل، وقام أحيانا بإنزال جنوده في بعض السواحل لهدم تلك القلاع، ولكنه لم يكن يستطيع البقاء طويلا، لأن الحرب البحرية لا تكفي للاستيلاء على المدن ولاسيما المدن الداخلية البعيدة عن البحر، فلا بد من مشاركة القوات البرية التي تستطيع التوغل في الداخل وتثبيت وإدامة السيطرة على المدن المفتوحة.

ولم يكن هذا ممكنا آنذاك، لبُعد الشقة بين الأندلس وبين الدولة العثمانية وكذلك بين مصر والأندلس. ولو صرفت الدولة العثمانية كل طاقتها وحاولت الوصول بَرّا إلى الأندلس (وهذا ما لا يتوقعه عاقل) لكان عليها محاربة العديد من الدول الأوروبية لعشرات الأعوام.

هذا علما بأن الدول الأوروبية كانت قد قطعت كل صلة لمسلمي الأندلس مع البحر الأبيض المتوسط، كما سدّوا مضيق جبل طارق ليمنعوا وصول أي نجدة إليهم من الدول الإسلامية.

وقام "كمال رئيس" بقصف بعض سواحل تونس بسبب كون الدولة الحفصية الحاكمة في تونس في حلف مع الأسبان ومع فرنسا ضد إخوانهم من مسلمي الأندلس.

وكم كان من المؤسف أن هذه القوة البحرية العثمانية اضطرت أخيرًا إلى مواجهة الدولة الحفصية في تونس لكونها تقوم بمساعدة الفرنسيين، ولكون الدولة العثمانية في حرب مع المماليك فقد وقعت هذه القوة البحرية بين نارين، لذا لم تؤد هجمات هذه القوة البحرية إلى نتائج ملموسة.

وفي عام ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م استسلمت مدينة غرناطة وانتهى حكم المسلمين في الأندلس. ولكن هذه القوة البحرية قامت بنقل ما يقارب من ٣٠٠ ألف من المسلمين التاركين بيوتهم والهائمين على وجوههم من الأندلس إلى المغرب وإلى الجزائر.

أما الوفد الأندلسي الثاني المرسل إلى دولة المماليك في مصر فلم يحصل على أي نتيجة أيضا حيث إن مصر بعيدة عن الأندلس، ويحتاج إنقاذ هؤلاء المسلمين إلى قوة برية، كما كانت في حرب مع الدولة العثمانية كما ذكرنا.

كان الأشرف سيف الدين قايتباي (١٤٦٨- ١٤٩٦م) هو الذي يحكم دولة المماليك آنذاك، فلم يجد وسيلة لنصرة مسلمي الأندلس سوى إرسال وفود إلى البابا وإلى الأسبان ليقول لهم إن هناك العديد من المسيحيين يعيشون في مصر وفي سورية وأنهم يتمتعون بكامل حرياتهم الدينية ولا يتعرض لهم أحد، وليحذرهم بأنه سيقوم بقتل جميع المسيحيين وإجبارهم على اعتناق الإسلام إن قام الأسبان بقتل المسلمين أو إجبارهم على التنصر.

ولم يهتم الأسبان ولا البابا بهذا التحذير الذي عدوه مجرد تخويف لأنهم يعلمون أن الدين الإسلامي يمنع إكراه أحد على ترك دينه. وقد ادعى الأسبان لوفد مصر أن المسلمين تنصروا بملء إرادتهم ولم يجبرهم أحد على هذا، وجاءوا بشهود زور تم تهديدهم وتخويفهم فشهدوا بذلك.

وقد سجل أبو البقاء في شعره هذه الحادثة وذكر أسماء المدن التي عذب أو أحرق أهلها أو ذبحوا بالسيف قائلًا:

فسل وحرا عن أهلها كيف أصبحوا
أسارى وقتلى تحت ذل ومِهنة
وسل بلفيقا عن قضية أمرها
لقد مُزقوا بالسيف من بعد حسرة

وضيافة بالسيف مزق أهلها
كذا فعلوا أيضا بأهل البشرة
وأندرش بالنار أحرق أهلها
بجامعهم صاروا جميعا كفحمة

وهكذا بقي مسلمو الأندلس وحدهم في الميدان وتجرعوا الآلام وبادت دولتهم الزاهرة جزاء تفرقهم إلى طوائف عديدة؛ فجرّوا على أهاليهم وبلدهم تلك النهاية المروعة التي ستبقى من أكثر المآسي المروعة في التاريخ الإنساني.

الدور المركزي للأتراك في الأمة الإسلامية(*)

منذ اللحظات الأولى لدعوة الإسلام جاءت التأكيدات القرآنية على عالمية هذا الدين وعدم اقتصاره على العرب: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ (الأنبياء:١٠٧)، ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا**﴾ (سبأ:٢٨).

لقد فتح الرسول ﷺ وصحابتُه الكرام ﷺ صدورَهم لكل المنتمين للدين الجديد، وتبوّأ رجالٌ من أمثال "صهيب الرومي" و"سلمان الفارسي" و"بلال الحبشي" وغيرهم من غير العرب، مواقع متقدمة في حركة الدعوة الإسلامية، ولقوا كل ترحيب وتكريم.

ولمّا قامت حركة الفتوحات وانتشر المسلمون في الأرض وأصبحت الدولة الإسلامية دولة عالمية، وجد العرب الفاتحون أنفسهم يتعايشون مع شعوب شتى انتمى الكثير منها إلى الإسلام، وظلت شرائح أخرى على أديانها تمارس حقوقها الدينية والمدنية بحرية تامة.

(*) **عماد الدين خليل** [كلية الآداب]، جامعة الموصل / العراق

فهـا نحـن ذا إزاء مـا يمكـن تسـميته بـ"الأمميـة الإسـلامية" التـي أكدهـا القـرآن الكريم في الآيـة: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّـا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ (الحجرات:١٣)؛ أي ليتميز بعضكم عن بعض، وفي الآية الكريمة: ﴿**وَلَوْ شَـاءَ رَبُّـكَ لَجَعَـلَ النَّاسَ أُمَّـةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُـونَ مُخْتَلِفِينَ ۞ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾ (هود:١١٨-١١٩).

أمميـة تعتـرف بالتمايز بين الجماعات والشـعوب والأمم، ولكنها تسـعى لأن تجمعهـا فـي الوقت نفسـه على صعيد الإنسـانية: "كلّكم لآدم وآدم من تراب".

وهي محاولة تختلف في أساسها عن الأممية الشيوعية التي سعت -ابتداءً وبحكم قوانين التنظير الصارمة- إلى إلغاء التنوّع ومصادرته، وإلـى تحقيق وحدة قسـرية ما لبثـت أنْ تأكد زيفُها وعدم القدرة على تنفيذهـا تاريخيًّا بمجـرد إلقـاء نظـرة على خارطـة الاتحاد السـوفيتي (المنحـلّ) حتـى قبل حركة "البرسـترويكا"، والرفض المتصاعد الذي جوبهت به الأممية الشـيوعية من قبل حشـود الأقوام والشـعوب التي تنتمي إلى بيئات ثقافية متنوعة.

كمـا حدثتنـا الخبيـرة الفرنسـية فـي شـؤون الاتحاد السـوفيتي في ثمانينيات القرن الماضي "هيلين كارير دانكوس" في كتابها "القوميات والدولة السـوفياتية"، الأمر الذي كان أحد الأسـباب الرئيسـية لانهيار التجربة السوفياتية.

إننـا بمقارنـة هـذا بما شـهده التاريخ الإسـلامي من تبلـور كيانات ثقافيـة إقليميـة متغايـرة فـي إطـار وحـدة الثقافـة الإسـلامية وثوابتهـا

وأسسها وأهدافها المشتركة، يتبين مدى مصداقية المعالجة الإسلامية لهذه الثنائية (أي ثنائية الوحدة والتنوع) كواحدة من حشود الثنائيات التي عولجت بنفس القدر من الواقعية في الرؤية والمرونة في العمل.

لقد شهد عالم الإسلام أنشطة معرفية متميزة، وثقافاتٍ شتى على مستوى الأعراق التي صاغتها عربيةٌ وتركية وفارسية وكُردية وهندية وصينية ومغولية وزنجية وإسبانية... كما شهدت أنماطًا ثقافية على مستوى البيئات والأقاليم؛ عراقية وشامية ومصرية ومغربية وتركستانية وصينية وهندية وإفريقية وأوربية وشرقية وتركية وإسبانية وبحر متوسطية... وكانت كل جماعة ثقافية تمارس نشاطها المعرفي بحرية، وتعبّر من خلاله عن خصائصها وتؤكد ذاتها، ولكن في إطار الأسس والثوابت الإسلامية بدءًا من قضية اللغة والأدب، وانتهاء بالعادات والتقاليد، مرورًا بصيغ النشاط الفكري والثقافي بأنماطه المختلفة، ولم يقل أحدٌ أن هذا خروج عن مطالب الإسلام التوحيدية، كما أن أحدًا لم يسعَ إلى مصادرة حرية التغاير هذه، وفي المقابل فإن أيًّا من هذه المتغيرات، لم تتحول -إلا في حالات شاذة- إلى أداة مضادة لهدم التوجهات الوحدوية الأساسية لهذا الدين.

إننا إذا استعرضنا في الذهن منظومة الكيانات السياسية في التاريخ الإسلامي، أو ما أطلق عليه اسم "الدويلات الإسلامية" التي تجاوزت في عددها العشرات، فإننا سنجد من وراء التنوّع السياسي أو بموازاته تغايرًا في التعبير الثقافي ولكن في دائرة الإسلام، وسنجد كذلك حماسًا لم يفتر عما كان عليه أيام وحدة الدولة الإسلامية، لتحقيق المزيد من المكاسب لهذا الدين وعالمه، نشرًا للإسلام في

بيئات جديدة، وجهادًا للكفار فيما وراء الحدود، وتوسيعًا للسلطة الإسلامية فيما وراء الثغور، وتعزيزًا وإغناءً للقيم الحضارية الإسلامية التي تلتقي على المبدأ الواحد والمصير المشترك، أي باختصار وكما أطلق عليها المستشرق المعروف "فون غرونباوم" في كتاب أشرف على تحريره بالعنوان نفسه "حضارة الوحدة والتنوّع".

كل الشعوب التي انضوت تحت الدول الإسلامية مُنحت فرصتَها للتحقق والتعبير عن الذات، وبقي المجال مفتوحًا حتى للعبيد والمماليك كي يشكلوا دولًا، ولغير المسلمين أن يتمتعوا بحقوقهم الدينية والمدنية كاملة وأن يتبوّؤا مواقع متقدمة في الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية.

لقد انطوى عالم الإسلام على كل أشكال التعددية العرقية والدينية واللونية والمذهبية والطبقية.

الأتراك احتلوا مساحة كبيرة في خارطة "الأمميّة الإسلامية"، ومارسوا دورًا متشعبًا، وقدموا إنجازات كبيرة على المستويين السياسي والدعوي، وكان عالم التركستان في أواسط آسيا مَنجمًا خصبًا من الطاقات البشرية الخام التي كانت تغذّي عالم الإسلام بطاقات إسلامية شابة بين الحين والحين، وفي صيغة موجات متعاقبة كانت تنتمي للإسلام بإخلاص بالغ، وتبدأ مشاركتها الفاعلة في مصائره الدينية والسياسية والحضارية.

ولسوف نقف باختصار وبرؤية طائرٍ "*View of Bird*"، عند اثنتين من هذه الهجرات: السلاجقة والقوى التركية التي جاءت بمعيّتهم،

والعثمانيون، للتأشير على المعطيات الأساسية التي قدموها للأمة الإسلامية.

مضى السلاجقة بإستراتيجيتهم العالمية إلى العمق الأناضولي، وتمكّن سلطانهم الثاني "أَلْبْ أَرْسْلاَن" (٤٥٥-٤٦٥هـ/١٠٣٣-١٠٧٢م) من تدمير البنية العسكرية للبيزنطيين في معركة "مَلاذْكِرْد" عام ٤٦٣هـ/١٠٧١م، واضطرارهم إلى الدفاع بعد قرون متطاولة من الهجوم على الأرض الإسلامية، ثم ما لبث العثمانيون أن جاؤوا لكي يُتمّوا المهمّة ويخرجوا البيزنطيين من التاريخ في أعقاب فتح القسطنطينية على يد القائد العثماني الشاب السلطان محمد الفاتح (٨٥٧هـ/١٤٥٣م).

هذا إلى أن السلاجقة تَولّوا أكبر مقاومة للغزاة الصليبيين في الجزيرة الفراتية والشام وفلسطين، بعد أن تلقوا صدمتهم المبكرة في الحملة الصليبية الأولى (٤٨٩-٥٤٣هـ/١٠٩٥-١٠٩٩م) على ديار الإسلام، ولقد تمثل الردّ السلجوقي والقوى التركية الإسلامية التي جاءت بمعية السلاجقة، بقيادات ثلاث مارست دورًا خطيرًا، ليس فقط في وقف الزحف الصليبي وإنما في تدمير بنيته العسكرية والسياسية، وفتح الطريق لـ"الناصر صلاح الدين" وللمماليك من بعده للإجهاز عليهم وتحرير البلاد منهم.

فأما أولى تلك القيادات فتمثلت بوُلاة السلاجقة في الموصل (٤٨٩-٥٢١هـ/١٠٩٥-١١٢٧م)، حيث برز رجال من أمثال "قوّام الدولة كربوقا" و"شمس الدولة جكرمش" و"مودود بن ألتون تكين"

و"جيوش بك" و"آق سنقر البرسقي"، ألحقوا بالصليبيين هزائم قاسية في الجزيرة الفراتية والشام وفلسطين.

والقيادة الأخرى تمثلت بـ"أراتقة ديار بكر" الذين قدِموا مع السلاجقة واستقرّوا في الإقليم المذكور، حيث شكلوا شبكة من الإمارات في "ماردين"، و"ديار بكر"، و"حصن كيفا" ظلت تحكم هناك لأكثر من ثلاثة قرون (٤٦٥-٨١٢هـ/١٠٧٢-١٤٠٩م)، ومارس مؤسسوها الأوائل "سقمان بن أرتق" و"إيلْغازي" و"بلك بن بهرام" دورًا خطيرًا في مقاومة الغزاة الصليبيين وإلحاق الخسائر المتتالية بهم.

وأما القيادة الثالثة فتمثلت بأتابكة الموصل وحلب الأتراك "عماد الدين زنكي" (٥٢١-٥٤١هـ/١١٢٧-١١٤٧هـ) وابنه "نور الدين محمود" (٥٤١-٥٦٩هـ /١١٢٧-١١٧٣م)، وقد استطاع أولهما أن يوحد الإمارات الإسلامية الممزقة في المنطقة ويلحق بالصليبيين هزائم قاسية، كما تمكّن ابنه "نور الدين محمود" الذي اتخذ حلب قاعدة له، أن يواصل الطريق وأن يدخل دمشق ويوحّد الشام ومصر، ويُسقط بواسطة ضابطه الشاب "الناصر صلاح الدين" الخلافةَ الفاطمية، التي فقدت دورها التاريخي ومدت أيديها للصليبيين الغزاة تعرض عليهم اقتسام الشام وفلسطين بين الطرفين.

والذي مكّن "نور الدين محمود" من تحقيق هذه الإنجازات الكبرى وتمهيد الطريق لتحرير القدس، أنه أنشأ دولة إسلامية تحكم بشرع الله في كل مفاصلها وحلقاتها، وكان هو شخصيًّا النموذج الحيّ للقيادة الإسلامية الصالحة التي تذكرنا بعصر الراشدين والتي تجيء مصداقًا تاريخيًّا للآية الكريمة: ﴿**وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ**

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور:٥٥)، ولذا عُدّ "نور الدين" بإجماع المؤرخين، الخليفة الراشد السادس بعد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ/٧١٧-٧٢٠م).

هذا إلى أن أتراك ديار بكر من الأراتقة تلقوا بشجاعة فائقة الصدمة المغولية في موجتيها الأولى والثانية، وأبلوا بلاءً حسنًا في مقاومتها.

على مستوى الداخل الإسلامي قدّم السلاجقة الأوائل للأمة الإسلامية خدمات لا تقل أهمية، فقد أنقذوا العراق من عبث البويهيين وتسلطهم على مقدرات الخلافة العباسية (٥٤٧هـ)، وتمكّن سلطانهم الأول "طغرل بك" من سحق محاولة البساسيري الانقلابية عام (٤٥٠هـ) والتي استهدفت تسليم مقدرات الخلافة العباسية للفاطميين في مصر، وأنشؤوا شبكة من المدارس الفقهية في مدى عالم الإسلام لتعميق الوعي بمفاهيم هذا الدين وحماية ثوابته العقدية والتشريعية من التحوير والتزييف، وقام مهندسهم الفكري الوزير "نظام الملك" -الذي اغتيل على أيدي الباطنية- بالإشراف على بناء هذه الشبكة، ووضع كتابه المعروف "سياسة نامة" برنامج عمل في مجال الفكر السياسي.

هذا فضلًا عن قيام السلاجقة بتأسيس جملة من الإمارات والممالك، كان لها -كما ذكرنا- الدور الكبير في مصائر ومقدرات الأمة الإسلامية.

ولابد هنا من التأشير على الخطوط العريضة للدور المركزي الذي تبّوأه العثمانيون ولمكانتهم القيادية لمدى قرون عديدة.

فالعثمانيون هم الذين فتحوا القسطنطينية (١٤٥٣م) وحققوا نبوءة الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام، وهم الذين أخرجوا البيزنطيين من التاريخ بعد أن كان هؤلاء شوكة تحزّ جنب الأمة الإسلامية وكيانها السياسي لمدى قرون متطاولة.

والعثمانيون هم الذين نقلوا الإسلام إلى الجانب الأوربي من العالم القديم، وأَوْغلوا في فتوحاتهم حتى اجتازوا بولندة شمالًا، ودقوا أبواب فيينا غربًا، ونشروا الإسلام في مساحات شاسعة من أوربا الشرقية.

وهم الذين أعدوا العدة في وقت مبكر لمجابهة تحديات حركة الاسترداد الإسباني (الريكونكويستا) ضد الوجود الإسلامي في الأندلس، وإنقاذ ما تبقى للمسلمين هناك، ولكن التحديات والمشاكل التي جابهتهم صدّتهم عن تحقيق هدفهم الكبير هذا. وهم الذين امتصوا زخم الهجمة المغولية الثانية بقيادة "تيمورلنك" وكسروا حدّتها رغم التضحيات البالغة التي قدموها.

وهم الذين غلبوا الصفويين في معركة "جالْديران" (١٥١٤م)، وكان هؤلاء قد حدّوا سكاكينهم لطعن العثمانيين في الظهر ووقف اندفاعهم في العمق الأوربي.

وهم الذين لاحقوا الأسبان والبرتغاليين في محاولات الالتفاف المعروفة على الوجود الإسلامي في إفريقيا والخليج العربي،

وقاتلوهم شبرًا شبرًا وذراعًا ذراعًا، وحرّروا الكثير من الديار من قبضتهم.

وهم الذين تصدّوا لمؤامرات القوى الغربية الكبرى على عالم الإسلام وبخاصة بريطانيا وفرنسا وروسيا، زمن العنفوان الاستعماري الذي مضى لالتهام ديار المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

والعثمانيون هم الذين حَموا فلسطين من محاولات الاختراق الاستيطاني الصهيوني، واستَعلوا على إغراءات هرتزل، وضحّوا بعرشهم من أجل هذا الهدف النبيل.

هذا إلى أن الأتراك المسلمين هم الذين تولّوا العبء الأكبر في التصدّي للمحاولات الشيوعية الشرسة والمبكرة لافتراس الأرض والشعوب الإسلامية في آسيا الشمالية.

والعثمانيون أخيرًا وليس آخرًا، هم الذين قاموا بدور مؤكد في حماية عالم الإسلام من مخاطر التمزّق الداخلي، وتوحيد أقاليمه المبعثرة لقرون عديدة، وتمكينها من استعادة فاعليتها في مجابهة التحديات، بل إنهم حتى لحظات الأفول الأخيرة، رفعوا شعار "الجامعة الإسلامية" ودعَوا إليه بحماس منقطع النظير؛ وهو الشعار الذي لقي تجاوبًا مدهشًا من لدن الشعوب الإسلامية كافة، من الهند شرقًا وحتى المغرب الأقصى غربًا، ولكنه أُجهض بالمؤامرات الشرسة للدول الاستعمارية الكبرى، وبخروج الدولة العثمانية منهزمة في أعقاب الحرب العالمية الأولى وتفتيت أملاكها في كل مكان.

الوقف العثماني.. حضارة واقتصاد[*]

أُسست الأوقاف في التاريخ الإسلامي، من أجل تقديم الخدمات المختلفة إلى الإنسان والأحياء الأخرى من الحيوانات، وكانت مؤسسات الأوقاف -بلا شك- واحدةً من العناصر المؤثرة التي استطاعت الارتقاء بأنماط العيش وتأمين الحاجات الاجتماعية للناس الذين يعيشون في ظل الدولة العثمانية حتى في مناطقها النائية.

وإذا ما تأملنا في مفهوم الوَقْفِ لدى الدولة العثمانية، نجد أنه مزيج من الشرقي الممتد من حضارة الأيغور إلى السلاجقة، والغربي الممتد من الإمبراطورية الرومانية إلى الإمبراطورية البيزنطية؛ فقد ورثت الدولة العثمانية هذا الميراث الممتزج الديناميكي، وطورته وصبغته بقيمها وثقافتها الدينية.

لقد لعبت هذه المؤسسات القانونية، دورًا هامًّا في تطوير الحياة الاقتصادية والاجتماعية لدى الدولة العثمانية والبلدان الإسلامية كافة.

(*) **نعمان ترك أوغلو** [كاتب وباحث تركي]. الترجمة عن التركية: **مصطفى حمزة**.

يقوم النظام الوَقْفي على فعالياتٍ مؤسساتيّة قانونية، للرعاية الاجتماعية التي تضمن استمرارية المجتمع، وبهذا المعنى فإن فعاليات الأوقاف التي نشطت في الدولة السلجوقية والعثمانية، نمت نموًّا كبيرًا بتأثير الحقوق والأحكام الإسلامية.

ويعتبر "أورخان غازي" ثاني سلاطين الدولة العثمانية، هو أول مَن أسس نظام الأوقاف التي نمت بشكل منسجم بالنمو الاقتصادي والسياسي للدولة، وعندما أمر أورخان غازي ببناء أول مدرسة عثمانية في إزنيك، أوقف لها من الأموال غير المنقولة (العقارات) لتسد حاجاتها من المصاريف والنفقات.

واقتدت بها أوقافٌ أخرى قامت لأغراض مختلفة، كتقديم الأموال لليتامى، وللأرامل، وللغارمين المدينين، وكتوزيع الخضار والفاكهة للمواطنين، وكرعاية الكبار العاجزين كقوّاد القوارب والحمّالين، وكتأمين إرضاع الأطفال، وتجهيز البنات للزواج، وتأمين بَدَلَ الأواني والصحاف التي يكسرها الخدَم لكي لا يتعرضوا للعقاب من أسيادهم، وكإطعام الطيور، وشراء الألعاب للأطفال، وتأمين حاجيات المسافرين، والإنفاق على طلبة العلم وتأمين الإقامة لهم، وتأمين العمل للعاطلين، وكذلك التدريب المهني، ومؤازرة المفلسين والمدينين، وتزويج الشباب، وحماية الحيوانات، وتأمين نظافة الطرقات... بالإضافة إلى تأسيس أوقاف تمويلية لشق قنوات المياه، وإنشاء القناطر، وبناء سبُل المياه، وحفر الآبار، وبناء المدارس والخانات والحمامات والجوامع والطرق والأرصفة والجسور...

وبتمويلٍ من الأوقاف قامت المشافي بتقديم خدماتها للمحتاجين، وتقاضى الأطباء أجورهم منها، ويجري في هذه المشافي علاج المرضى من غير تمييزٍ في لون أو عرق أو دين، ويجري كذلك تأمين الأطباء، كما يتم تقديم الدواء مجانًا إن لزم الأمر، وتقديم وجبة أو وجبتين من الطعام يوميًّا في العمارات لأبناء السبيل والمسافرين والفقراء والمساكين.

مؤسسة الأوقاف والاقتصاد العثماني

النظام الاقتصادي في الدولة العثمانية -إلى جانب الإقطاع الذي ورثته من الدول الإسلامية المتلاحقة- كان يقوم على مؤسسات الفتوة والآخية التي تعتمد على العدالة في أساسها.

كان الاقتصاد العثماني يعتمد بنسة كبيرة على الزراعة، الأمر الذي أكسب أنظمة الأراضي مكانة متميزة ضمن البنى الاقتصادية العثمانية، ونظام الأراضي هذا، كان يتمثل بنظام التيمار؛ وهو نظام يتم من خلاله استخدام الأراضي من قبل الرعايا مقابل الوفاء ببعض الالتزامات كتوريد عُشْر المحصول لصاحب التيمار، ودفع الضرائب المقررة، كما كان أصحاب التيمار بالمقابل ملزمين بتقديم الجنود إلى الجيش أثناء الحرب، وذلك بما يتناسب مع حجم محصول تيمارهم.

ظل التيمار قائمًا كوسيلة اقتصادية للقوة العسكرية العثمانية، إذ لم تقم الدولة بجمع الموارد الزراعية في مركز واحد، إنما أعطتها لسباهية التيمار (الفرسان) لتتمكن من تأمين جنودها أثناء الحرب

من جانب، ومن تأمين مواردها الزراعية أثناء السِّلم من جانب آخر، وهذا وفّر لها نظامًا ديناميكيًّا حركيًّا بلا شك.

في القرن السادس عشر، كانت نسبة ٢٠٪ من الأراضي تدخل ضمن نظام الأوقاف لدى الدولة العثمانية، وكان حوالي ١٥٪ من موارد الدخل للأوقاف تتكون من الأسهم المقبوضة من واردات الدولة.

ففي هذه الحقبة كانت واردات الأوقاف تشكل ١٢٪ من بين الواردات العامة، وقد ازدادت هذه النسبة فيما بعد لتبلغ ٢٠٪، مع الأخذ بعين الاعتبار، أن واردات أراضي الأوقاف فقط هي الداخلة في حسابات النسب السابقة.

هذا وقد وصلت نسبة رجال الدولة الذين قاموا بتأسيس الأوقاف في القرن التاسع عشر إلى ٤٢٪، ونسبة ١٦٪ من العلماء، و٩٪ من أصحاب الطرق الصوفية، و٢٪ من أصحاب الحرف والصناعات، و١١٪ من أصحاب مختلفي المهن، و١٨٪ من النساء.

ونظام التمويل الذي تقوم عليه الأوقاف آنذاك، يملك دورًا مهمًّا في خدمات الثقافة والتعليم والصحة والبنية التحتية وأشغال المرافق العامة والخدمات الدينية والاجتماعية، علاوةً على المساهمة في تأمين التمويل والبنية التحتية اللازمة للضمان الاجتماعي، والعمل الخيري في مختلف الميادين.

ففي تركيا اليوم -مثلًا- يبلغ الإنفاق الإجمالي على الصحة، والتعليم، والضمان الاجتماعي، والفعاليات الدينية، والخدمات

العامة، (١٠٠) مليار ليرة تركية! وهذا الرقم الذي يعدّ عبئًا ثقيلًا على ميزانية الدولة في عصرنا، كانت الأوقاف تقوم بحمله لوحدها في العهد العثماني.

الأوقاف والخدمات العامة

كانت الأوقاف تلعب دورًا مهمًّا في الإعمار والإسكان إبان العهد العثماني، فالخدمات العامة التي تتلقاها المدن، ومؤسسات الرعاية الاجتماعية، والخدمات التعليمية، والدينية، وكل الحاجات الاجتماعية، كانت تلبى من قبل مؤسسات الأوقاف.

لقد تم دعم الأوقاف عن طريق مصدرين أساسيين: الأول هو المؤسسات الوَقْفِيّة القائمة على مصادر الدولة، وهي على الأغلب أوقاف يقوم بتأسيسها رجال الدولة وعلى رأسهم السلطان وأبناء آل عثمان.

والميزة الأساسية لهذه الأوقاف تكمن في تحويل جزء من الأموال المخصصة للبيروقراطيين من قبل الدولة، واستخدامها في الأنشطة الوَقْفيَّة الخاصة.

ونرى أن تشكيل المؤسسات الوقفية التي تستمر في عطاءاتها حول سد الاحتياجات الدينية والعلمية والصحية والثقافية للمدن، أصبحت تقليدًا متّبعًا بين رجالات الدولة.

والمصدر الثاني لنظام الأوقاف، يشمل أوقاف المواطنين العثمانيين الأخيار، الذين يبتغون مرضاة الله، ويسعون وراء الأعمال الصالحة التي تفيد الشعب والمجتمع، وهذه الأوقاف وإن كانت

صغيرة الحجم من حيث التمويل، فإنها لعبت دورًا كبيرًا لصالح الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

وعليه فإن هذا النوع من نظام الأوقاف الخيرية، الذي أبدى تطورًا مستمرًّا في العهد العثماني، شكّل عنصرًا مهمًّا في تمويل الخدمات، وساهم في نمو المدن العثمانية وازدهارها؛ ومن ثم أدت هذه الأوقاف مهمّة كبيرة في ارتفاع مستوى المعيشة ومن ثم الحياة الاقتصادية والاجتماعية في كافة أرجاء الأراضي العثمانية.

إذن، تمتعت الأوقاف بمكانة رفيعة مرموقة لدى الدولة العثمانية، وأصبحت جزءًا أساسيًّا من حضارتها، إذ أقامت الخانات التجارية الوقفية، والأسواق لكافة الأمتعة والسلع؛ من أقمشة ومجوهرات وأسلحة... وشيدت القصور الوقفية العديدة على الطرق بين المدن والمناطق لتحط القوافل التجارية وقوافل المسافرين رحالها، وتستريح وتأمن شرَّ الأشقياء وقطاع الطرق... علاوةً على أن هذه الأوقاف، ساهمت في تطور الفنون الجميلة كالخط والتذهيب والزخرفة والأبرو (فن الرسم على الماء) وتجليد الكتب، حيث كانت سببًا لآثار فنية عالية المستوى.

كما أن للأوقاف أهمية كبيرة أيضًا، في مجال اللغة والثقافة والتاريخ والقانون وحتى في الفولوكلور.

باختصار، لم تترك الأوقاف لدى الدولة العثمانية، ميدانًا من الميادين الاجتماعية، ولا أرضًا من الأراضي العثمانية، إلا ودخلتها وقدمت الخدمات لأهلها.

وبفضل هذه الأوقاف، استمرت خدمات التعليم، والصحة، والخدمات الدينية، والثقافية، من غير خلل أو تقصير، حتى في فترات المِحَن والأزمات الداخلية والخارجية للدولة.

ومما يجدر ذكره، أن الأوقاف التي تقدم الخدمات الثقافية والاجتماعية للمجتمع اليوم، والتي تتبناها الدول وتقوم هي بإدارتها وتمويلها، كانت تؤسَّس وتُدار وتموَّل من قبل أشخاص عاديين في العهد العثماني! ومن الصعب جدًّا، أن نجد اليوم دولة من الدول يقوم أفرادها باستقلال ذاتي بتمويل الخدمات العامة، كما كانت الحال في الدولة العثمانية.

مراكز النشاط الاقتصادي في الدولة العثمانية(*)

إن شبّهنا الدولة بجسم مخلوق حي، فإن بقاء هذا الحي مرتبط بعمل أجهزته المختلفة مثل الجهاز التنفسي وجهاز الدوران، وجهاز الإفراغ...الخ، بالإضافة إلى توفر الشروط الضرورية الأخرى؛ فإن نظرنا إلى الدولة العثمانية من هذه الزاوية، نجد أنها لم تنشغل فقط بالحياة الدينية وبالأمور العسكرية والحربية وبالتعليم والتربية فقط، بل كانت تملك تقاليد تجارية ومؤسسات تجارية عريقة.

وطوال أكثر من ستة قرون لم ينشغل المسؤولون عن إدارة الدولة بالحياة الدينية وبناء القلاع والحصون والثكنات العسكرية والمدارس والجوامع فقط، بل برزوا أيضًا في وضع تقاليد عريقة للتجارة وللمؤسسات التجارية، فبنوا المراكز التجارية والخانات والأسواق الكبيرة ومراكز كبيرة على الطرق الرئيسية للتجارة لاستراحة المسافرين والتجار والقوافل؛ وذلك لتشجيع التجارة وتوسيعها وفتح الأبواب أمامها.

وكان هناك مراكز تُجمع فيها البضائع التجارية في الدولة العثمانية الواسعة الأرجاء وتقوّم قيمها وتُثبت أسعارها، أي كانت تعمل عمل البورصة في أيامنا الحالية، وكان يطلق على هذه المراكز التجارية اسم "بَدَسْتان" (*bedesten*).

(*) **ناظم إينتبه** [كاتب ومؤرخ تركي]. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.

تأسست هذه المراكز أولًا في مدينة "بورصه" وفي "أدرنه" ثم انتشرت منهما إلى أرجاء الدولة العثمانية.

يأتي "بدَسْت" بمعنى "السوق، والبورصة، والمركز التجاري". ويأتي جذر هذه الكلمة من العربية والفارسية من كلمة "بازِستان"، أي المكان الذي تُباع وتُشترى فيه الأقمشة.

كما أطلق على "بَدَست" اسم "قيصرية" أحيانا، ومعناها "داخل القلعة". كانت "بَدَسْتَانْ"، مركز التجارة بين المدن وكذلك بين الدول، كما كانت بمثابة المراكز التجارية في المدن، فتعد من أهم الأبنية في كل بلدة.

التجارة الدولية

كانت التجارة الدولية في القرن الرابع عشر بيد البرتغاليين والجنويّين (البنادقة)، وكانت البضائع الثمينة تتجمع في الموانئ،حيث تتم التجارة فيها عن طريق النقل البحري بواسطة السفن.

كانت الدولة العثمانية على وعي بأن ازدهار التجارة في أي بلد يساعد على ازدهار ذلك البلد، وتخلفها يعني تخلف ذلك البلد. لذا قامت بإحياء طريق الحرير التاريخي، وأمّنت بذلك تحول التجارة إلى الطريق البري مرة أخرى؛ لذا بنت الخانات -أي الفنادق- ومراكز التجارة على الطرق التجارية المهمة، وأنشأت هذه المراكز في داخل المدن أيضًا.

واستطاعت الدولة -بتحقيقها الأمن والأمان للتجارة والتجار في أراضيها الواسعة وتيسير سبل التجارة أمامهم- السيطرة على التجارة الدولية بدءًا من القرن الرابع عشر حتى القرن السابع عشر.

البدستانات تختلف عن الخانات وعن "كَرْوان سَرايْ" (وهي أبنية محمية ومقامة على الطرق الرئيسية لاستقبال القوافل)، فقد استعملت الخانات بدءًا من القرن الثالث عشر وحتى القرن الخامس عشر لتأمين حاجات المسافرين والتجار.

وأطلق اسم "بَدَسْتان" في هذا العهد على هذه الخانات أيضًا، ولكن اقتصر اسم الـ"بدستان" في القرنين الخامس عشر والسادس عشر (عهد نضوج الدولة) في جميع المدن الكبرى على مراكز البورصة والتجارة فقط، واقتصرت الخانات على أماكن استراحة المسافرين.

"بَدَسْتان" والعمارة

كما قلنا فإن الـ"بدستان" كانت مباني تجارية ظهرت عند ظهور الدولة العثمانية وتوسعها، ولم يكن فنها المعماري يشبه مثيلاته في حضارات الأناضول وفي الحضارة البيزنطية القديمة، كما لم يكن يشبه "القيصرية" وهي الأسواق المفتوحة وغير المسقفة والتي كانت موجودة في جنوبي شرق الأناضول؛ بل كانت تحمل السمة المعمارية للمدن "العثمانية-التركية" مثلما كانت المراكز والمباني الدينية والتجارية الأخرى الكبيرة (كجوامع السلاطين الكبرى) تحمل سمتها الخاص بها، كانت هذه المباني تحتل مركز المدينة وترمز إلى أنها مدن عثمانية.

كانت الـ"بدستان" في الدولة العثمانية مربعة أو مستطيلة الشكل، لها قبب مغطاة بالرصاص، وتنقسم إلى أجزاء وأقسام لتكون صالحة لأفضل استخدام واستعمال، ولها جدران سميكة من الحجر،

وترتفع في وسط المدينة وكأنها حصن أو قلعة، وتشرف بأبراجها على المدينة من علٍ، ويمكن رؤيتها من بعيد والتعرف عليها.

كان لها في العادة باب أو بابان، وأحيانًا أربعة أبواب رئيسية، وكانت مفتوحة على الشارع أو الشوارع الرئيسية للمدينة، كانت الـ"بدستان" مقسمة من الداخل إلى ٤-٢٠ قسمًا مربع الشكل، ولكل قسم قبة فوقه، ويدخل الضوء من نوافذ صغيرة موجودة في أعلى الجدران، وفي خارج بناية الـ"بدستان" تلتصق جدران الدكاكين بها، كما تنتظم الدكاكين ومحلات العمل على جانبي الطريق الخارج من الـ"بدستان"، كما توجد حول هذا المجمع دكاكين مربعة أو مستطيلة الشكل.

تكون مداخل الـ"بدستان" في العادة مرتفعة وفخمة، كمداخل المعابد، وجدرانها الحجرية مزينة بأشكال فنية وزخارف. أبوابها من الحديد أو من خشب الأبنوس ومزخرفة كذلك بزخارف حديدية أو خشبية، ودكاكينها مصانة جيدًّا، والبناية تحتوي على دكاكين وعلى المخازن العائدة لها، وقبابها مغطاة بالرصاص لحفظ البناية من تسرب مياه الأمطار والثلوج، لذا فإن بنايات الـ"بدستان" كانت تحمل طابعًا عثمانيًّا متميزًا. ولكونها مبنية من الحجر كانت أيضًا رمز المتانة والقوة والعمر الطويل.

وفي الخانات كانت السلالم موجودة على يمين ويسار المدخل مباشرة وتؤدي إلى الطابق الثاني بـ(٢٠-٣٠) درجة. وفي القسم الأمامي من الطابق العلوي يوجد "رَواق"، وفي القسم الخلفي توجد حوانيت أو متاجر، وبينما تغطي القبب أعلى الرواق تكون سقوف

الحوانيت على شكل أقواس وقناطر، وكل حانوت عبارة عن غرفة واحدة.

أما الحوانيت في الأركان فيكون كل منها عبارة عن غرفتين أو ثلاث غرف، ويوجد أيضًا رواق أمام المتاجر في الطابق الأرضي، وتحت هذه الحوانيت والمتاجر، توجد مخازن لخزن البضائع، وفي هذه المخازن توجد صناديق حديد تحفظ فيها الأمتعة الثمينة.

ويذكر "أَوْلِيا جلبي" الإصطبلات الملحقة بهذه "الخانات"، حيث تستريح فيها الحيوانات التي تحمل البضائعَ والناسَ في القوافل. والإصطبل الموجود في "قوزاخان" في مدينة "بورصه" يعد أنموذجًا لإصطبل الجمال، حيث استعمل القسم العلوي منه لاستراحة المسافرين ولخزن البضائع، وتوجد مواقد في غرف الطابق العلوي، وترتفع المداخن من جانب القبب، وتوجد ميضأة في وسط باحة الخانات، وفي المؤخرة يوجد مسجد.

مبادئ عمل مراكز الـ"بدستان"

كما توجد حاليا قواعد ومبادئ معينة في المراكز التجارية وفي البورصات وفي المناطق الصناعية التعاونية حددتْها القوانين، كذلك كانت لمراكز الـ"بدستان" في الدولة العثمانية قواعد يجب العمل بها.

فهي تؤسس أولًا إما بفرمان من السلطان أو بأمر من وزير، وعندما يتم بناؤها تصبح مركز جذب للتجار الأغنياء الذين يرغبون بالتعامل في مراكز تجارية آمنة.

ويقول المؤرخ التركي المعروف "خليل إنالجيك": "كان من القواعد المعروفة أن الـ"بدستان" تعد مركزًا للتجارة في المدينة، وكذلك مركزًا للتجارة بين الأمم".

لذا نرى أن أسواق الـ"بدستان" ومراكزها في الدولة العثمانية كانت طوال مئات السنين محلًّا لزيارة آلاف التجار القادمين من إيران والهند وأوروبا، ومحل تعارفهم ولقائهم وإقامتهم، ومحل بيعهم وشرائهم.

وقد أنشأ السلطان محمد الفاتح بفرمان منه، "بدستان إسطنبول" والسوق المحيطة بها بعد الفتح مباشرة، لتكون مركزًا تجاريًّا كبيرًا وآمنًا على طريق الأناضول - الروملي ولمدينة إسطنبول كذلك، حيث استطاعت هذه السوق استيعاب الفعاليات التجارية الكبيرة آنذاك.

ومع أن جزءًا من إيجار الـ"بدستان" والخانات كان يذهب إلى باني هذه البنايات، إلا أن الجزء الأعظم منه كان يصرف لبناء الجوامع والمدارس الدينية والكليات ومراكز توزيع الأطعمة مجانًا للفقراء، أي كان يصرف لأعمال البر والخير؛ فقد صرف إيجار الـ"بدستان" التي شيدها السلطان "محمد جلَبي"، في مدينة أدرنه عام ١٤١٨م، لتعمير جامع "أسكي جامع"، وإيجارُ الـ"بدستان" التي شيدها السلطان محمد الفاتح وكذلك إيجار سوق "قبالي جارشي" للصرف على أياصوفيا التي حوّلها من كنيسة إلى جامع، وصرف إيجار الـ"بدستان" التي شيدها السلطان بايزيد الثاني في مدينة بورصه لتعمير جوامع إسطنبول ومراكز مساعدة الفقراء.

التجارة والنشاط الاجتماعي

لم يفصل العثمانيون الحياة التجارية عن الساحات الأخرى للحياة، واستفادوا في تأسيسهم هذا التوازن بين مناحي الحياة من خزين التجارب الإسلامية الطويلة الأمد، والتي بدأت من عهد المدينة المنورة في حياة الرسول ﷺ، واستمرت طوال عصور عديدة وفي بلدان إسلامية متعددة.

كان التجار في العهد العثماني على نوعين: التجار المتجولون، والتجار المقيمون في المدن. فكانت مباني الـ"بدستان" محل عمل التجار المقيمين في المدن ومركزًا لتعيين أسعار البضائع أيضًا، أي كانت تعمل عمل البورصة الحالية، كما كانت دائرة لاستيفاء الضرائب.

وكان الموظفون الرسميون الذين يعيّنون الأسعار ويستوفون الضرائب يقيمون هنا؛ لذا لم يكن يسمح بزيادة الأسعار خارج الحد المعقول، أي لم يكونوا يسمحون بالتعامل بـ"السوق السوداء".

كانت كل "بدستان" تشكل نواة الأسواق الكبيرة، وكانت جميع أنواع السلع والبضائع تباع وتشترى فيها مثل أسواق "سوبر ماركت" في أيامنا الحالية.

كان بعض هذه المراكز التجارية مراكز لأنواع معينة من البضائع ولمنتوجات أصحاب مهن معينة، مثلا هناك مركز للصباغة، أو لبيع السجاجيد أو الأقمشة أو البهارات أو الكتب أو للعطارين، وكان يوجد حولها بياعو الحاجيات اليومية من الأغذية كالفواكه والخضروات والطحين والملح...الخ. أو من أنواع الوقود كالحطب

والفحم.. أو من المواد الخام كالدهون والزيوت والأصباغ.. وكذلك كان أصحاب الحرف الأخرى كالخياطين وأصحاب المطاعم وصناع الخزف..الخ، يزاولون نشاطهم هنا.

كما كانت هذه الأسواق تضم الأماكن الضرورية لحاجات الناس كالمساجد وأماكن الوضوء وأماكن القراءة والمقاهي والحلاقين والحمامات...إلخ.

كان أصحاب الحرف المختلفة يعملون في الـ"بدستان" كعائلة واحدة، وكانت لهم منظمات ذات تقاليد عريقة ومستقرة مثل نقابة "الأخوة" (*Ahîlik*). ولم يكن يؤخذ إلى هذه النقابة من أصحاب المهن من لم يمر بمرحلة التدريب والتعليم التي تتدرج من مرحلة المتعلم الناشئ أو العامل المبتدئ إلى المتدرب إلى المعلم (المحترف).

كان يتم تعليم الشباب المبتدئين الحرف المختلفة في ظل تدريب وتعليم يأخذ بنظر الاعتبار التدريب المهني والتجاري مع الحرص على ترسيخ مفاهيم أخلاقية أهمّها أن يكون كل منهم إنسانًا محبًّا للخير وجارًا حسن الخلق، أي يتلقون تدريبًا وتعليمًا أخلاقيًّا أيضًا. وكان يتم ترقية هؤلاء الشباب من صنف "المبتدئ" إلى صنف "المتدرب"، ثم إلى صنف "الأستاذ" أو "الأسطة" بالتعبير السائد آنذاك في مراسيم احتفالية.

وهكذا كانت "بدستان" تنشئ كادرها وتحافظ عليه.

كانت لـ"بدستان" أربع وظائف مهمة:

١-تعيين أسعار البضائع.

٢-فرض الضرائب على البضائع واستيفائها.

٣-خزن البضائع والسلع الغالية والثمينة العائدة للدولة أو للتجار، مثل الذهب والمجوهرات والأقمشة الغالية، والوثائق المهمة، حيث كانت هذه البضائع تحت ضمان الدولة، فتخزن بشكل آمن، ثم تعرض للبيع.

٤-كونها مقرًّا للتجار المحليّين، حيث كانوا يقومون بأنشطتهم التجارية، ومنها كانت تنطلق قوافلهم إلى البلدان الأخرى.

كان لكل "بدستان" سَريّةُ أَمنٍ خاصة بها، وشخص مؤتمن، وكانت الأموال المفقودة (أي الأموال التي فقدها أصحابها) تبقى عنده مدة معينة، فإن لم يظهر صاحبها تسلم لبيت المال، كما كانت تودع عنده أموال اليتامى حتى يبلغوا سن الرشد.

كما كانت الـ"بدستان" تقوم بوظائف شبيهة بوظائف البورصة التجارية في أيامنا الحالية (بورصة القطن أو بورصة الزبيب مثلًا).

كانت الـ"بدستان" في بعض المدن مركز عمل التجار الذين يقومون بتجارة الأقمشة الثمينة، وكان كل منهم يملك فرمانًا من السلطان وأمرًا من القاضي كضمان وتأييد له عند قيامه بهذه التجارة. وكانت أي تجارة سِرّيّة تجرى خارج الـ"بدستان" تُعد تجارة غير قانونية ومنافسة غير شريفة بالنسبة للتجار الموجودين في الـ"بدستان" الذين يدفعون الضرائب بانتظام. فمثلًا، حدث في عام ١٦٠٩م، أن طرق سمع تجار "بدستان" أن بضائع معينة (مثل العطور) تباع سرًّا في منطقة "غلطة" إلى العطارين، فتقدموا بالشكوى إلى السلطان وتمت معالجة الأمر.

أما سيطرة تجار الأقمشة الذين هم أحد عناصر الاقتصاد المضبوط رسميًّا، فقد استمرت حتى أواسط القرن السادس عشر، حيث صدر قرار بالسماح لتجارة الأقمشة خارج الـ"بدستان" ما لم يكن هناك قرار من الحكومة بالمنع.

نعتقد أنه من المفيد إجراء تحليل مقارن بين الـ"بدستان" التي كانت تحتلّ مكانًا مرموقًا في الحياة التجارية في الدولة العثمانية، وبين المراكز التجارية الحالية فهذا مفيد، ليس من الناحية التاريخية فقط، بل من الناحية التجارية والاجتماعية كذلك.

فمن ناحية هناك فائدة في ضبط الفعاليات التجارية ومراقبتها، وأن تكون هذه الفعاليات على أساس مشروع وتُراعى فيها الحقوق؛ ومن ناحية أخرى، فإن عدم السماح للشخص بالعمل التجاري (إن لم يكن أهلًا له ولم يدرّب بعد عليه) أيضًا من الأمور التي يجب مراعاتها.

عملاق الأدب العثماني: "فضولي"[*]

الشاعر، هو محمد بن الملا سليمان البياتي المنسوب إلى بغداد، حيث قضى ردحًا من عمره، والمشهور أنه عاش بـ"كربلاء" ومات بها ودفن فيها، وكان مشتغلًا بإشعال القناديل والشموع في الصحن الحسيني، فقد عاش حياة متواضعة مع اشتهاره في الآفاق وهو حي.

ولادته تسبق سنة (١٤٨٠م)، بدليل قصيدة بالفارسية نظمها للأمير "ألوند"، من أمراء دولة "أَقْ قُويُنْلُو" التركمانية في بلاد العراق وما جاورها، وإذ إن وفاة هذا الأمير كانت في سنة (٩١٠هـ/١٥٠٤م)، فلابد أنه كان شابا عندئذ في سنه العشرين، لأن نظمه بالفارسية متأخر عن نظمه بالتركية، فسنة ولادته تقدر كما مرّ آنفا.

أما وفاته ففي عام الطاعون سنة (٩٦٣هـ/١٥٥٥-١٥٥٦م) مصابًا به، فاستظل بظل ثلاث دول عاصرها هي دولة "أَقْ قُويُنْلُو" والدولة الصفوية ثم الدولة العثمانية، وقد عين السلطان سليمان القانوني راتبًا له، وله مراسلات مع السلطنة بشأنه.

(*) **عوني عمر لطفي أوغلو** [كاتب وباحث تركي]

و"فضولي" هو مَخْلَصه الشعري على عادة شعراء الترك في اتخاذ مَخْلَص لهم.

يقول الشاعر إنه تلقب بهذا المخلص حتى ينفرد به لانصراف الشعراء عنه لدلالته المتواضعة، فإن مفهومه بالتركية هو: الزائد الذي لا نفع منه، ولكن للاسم معنى بالضد يدل على زيادة الفضائل والمكارم، وهي مما يحوزه الشاعر بجدارة، فإنه كان متواضعًا في حياته، منصرفًا عن بهارج الدنيا وترف الحياة وحب المقام، مع اكتسائه بفضائل العلوم النقلية والعقلية من فقه وكلام وحديث وطب وفلك، زيادة على إمارته للشعر بالتركية والفارسية.

ومن منظوماته ديوانه بالتركية، وديوانه بالفارسية، وديوان ليلى ومجنون (بالتركية) الذي يزيد على ثلاثة آلاف بيت، وديوانٌ مثنويٌّ بالتركية من ٤٤٤ بيتًا، وديوان "ساقي نامَه" من ٣٢٧ بيتًا من الشعر التصوفي، وترجمة شعرية لأربعين حديثًا، ومن تآليفه "حديقة السعداء" في واقعة كربلاء، و"مطلع الاعتقاد في معرفة المبدأ والمعاد" في العقائد (بالعربية).

هو من أعظم شعراء الترك والعجم، كما يعَدّ من شعراء العرب، وأزعم أن شعره بالعربية يشوبه التكلف والاصطناع، وهو دون شعره التركي والفارسي بأشواط، فقد بلغ فيهما الذروة، حتى عده العلامة "حسين مجيب المصري" في كتابه "فضولي البغدادي"، أميرًا على الشعر التركي وفوق الشاعر "باقي".

و"فضولي" شاعر ملتزم، يسند شعره بالعلم والفن، يقول في مقدمة ديوانه الفارسي: "إن الشعر بغير علم جدارٌ من غير أساس، وغايته

ألاّ يُعتَدَّ به"، ويقول في بيت له: "إن من يرفع كلامه يرفعه بالصدق. وإن قَدْر الكلام بقَدْر أهله"، وشعره عابق بالتصوف، ومعمور بالعلم، ومشحون بالعشق والعاطفة وخطاب القلب، مضطرب بالهجر والجفاء وغير متنعم بالوصل واللقاء، يرفع العشق في أحاسيسه الإنسانية إلى مدارج تصوفية راقية، حتى يَعُدّ بعض الباحثين ديوانه في "مجنون ليلى"، شعرًا صوفيًّا.

إن المعاني وأسلوب التعبير عنها، متلازمان في الأدب وفي الشعر خاصة، ومن قوة الشعر التعبير عن معنى رائقٍ، بإفادةٍ موجزة وبليغة، في صور من الكلام مبتدعة ومركبة، و"فضولي" خير من جمع هذه الشؤون في شعره، بل يكاد أن يرفع المعاني إلى العلياء في كل بيت من أبيات شعره، فمِثلُه قليل وعزيز في التاريخ.

القصيدة المائية

هذه القصيدة عروضية و"نعتية"، و"النعت" غرض من أغراض الشعر التركي، يعني مدح النبي ﷺ، وقد ألزم الشاعر فيها نفسه بحرف الراء رَوِيًّا، يتبعه كلمة "صُوْ" (الماء)؛ فالتزم بصعب لا يُلزمه، ليصعد بقوة القصيدة.

فإن تكرار كلمة الماء في قافية كل بيت، يحصر الشاعر في معنى لا يرتبط بالمدح بطبعه، لقد اتخذ من "الماء" محورًا وغرضًا للقصيدة، ثم سخّر المشاعر والإيحاءات الحائمة حول "الماء"، ليهيّجها ويقودها إلى عشق النبي ﷺ السلسبيل الطاهر؛ فدل ذلك على روح التحدي عند "فضولي" في خوض أمر شديد يحجم عنه غيره؛ فتمكن في زج معان وطيدة "بالماء" في صور بديعة بلسان

بليـغ، فـي غرض المديـح. (تمعن في البيت الثالث والعشـرين مليًّا، وجمعه لعصي المعاني وجَمِّها في بيت واحد).

ولعل التزامه بقافية الماء بعد الراء جاء لمناسبة الماء مـع مقام النبي ﷺ مـن عـدة أوجـه، فالماء عزيز وشـهي، وقوام الحيـاة ومدد الظمآن ورمـز الطهـارة ولهفـة الصـادي... ولفظـه التركي "صُوْ" يسـير اللفظ، نغمـه يطـرب الأذن. وتكـرار صوتـه يقرب من هسهسـة الماء. وكأني بسـامـع القصيـدة حاسًّـا بالعطـش وباحثًا عن الماء، لتكـراره في آخر كل بيـت، مـع نعومة النغم في "صُـوْ" بعد الراء المفتوحة، هذا ماعدا قوة المعاني وبراعة التصوير وبلاغة اللسان، وقد وَضَعْتُ "الماء" في الترجمة في أول كل جملة، لضرورات اللسـان، ولاسـتحضار شـيء ضئيل من روح الأصل.

إن معانـي العشـق والهجر والشـوق بإيحاءاتهـا ورموزها الصوفية ظاهرة في القصيدة، حتى لا تكاد تفطن في الأبيات من مطلـع القصيدة إلى البيت الخامس عشر: "هل المقصود ذات النبي ﷺ بزخم صوفي المبانـي؟ أم إن الشـاعر ينحو منحى شـعراء العـرب بافتتاح قصائدهم بالنسيب... ليجاري "البردة" مثلًا؟".

وأزعـم أنـه اتخـذ طريقـه **سـرًا** بيـن الأمريـن بأسـلوب فريـد فـي "النعـت النبـوي ﷺ"، فإن نَقُل بأنه جارى الأقدمين من شـعراء العرب في أسـلوبهم، مخالفًا تقاليد شـعراء الترك، فقد فعل، وإن نقُل أنه لم يخرج عن أصول وأساليب الترك، فقد فعل.

فإنّ دمعه الذارف شـوقٌ إلى الحبيب الذي يهفو إلى لقائه ووقوع بصـره عليـه، غيـر مبـالٍ حتـى إنْ كان وصالـه كتلقي حدائد السـيوف

وثواقب النبال، ما دام في حَدّها وصلٌ به. فهو يجوب في هذه الأبيات الأولى من القصيدة في عالم من العشق العُلوي الوجداني المجرد.

ولكن زخما من الاستعارات والإشارات مستَخدَمةً في الأدب الصوفي، تومئ إلى النبي ﷺ في تلك الأبيات الأولى... كالنبيه والسكران، والزاهد والكوثر، والعندليب والوردة الحمراء، بل الورد في الأدب الصوفي قرين رمزي للنبي ﷺ. غير أن هذه الإيماءات لا تستلب من تلك الرموز والإشارات معاني العشق الوجداني الإنساني في معالجة الشاعر لهذه المعاني.

ومما يشد من أزر "ثنائية الانتقال" بين النعت النبوي وبين العشق الوجداني، أن اللسان التركي لا يميز في قواعد خطابه بين المذكر والمؤنث.

فالواقع أن "فضولي" انتهج طريقًا اقترب فيه من "البردة" وأسلوب شعراء الجاهلية في الافتتاح، ولكنه لم يتطابق معهم ولم يغادر تقاليد الشعر التركي أيضًا، وإنه زاد على انتهاجه أُسلوبًا وسطًا مبتدعًا بين الأسلوبين، بأنه أعدّ مناخًا عاطفيًّا خفيًّا وعشقًا وجدانيًّا ساميًّا، يتجهز به المرء في تولية وجهه نحو الحبيب محمد ﷺ والشوق والحاجة واللهف إليه في البدايات.

ثم انتقل إلى الأصل المقصود الصريح ابتداء من البيت السادس عشر، في وحدة نفسية للقصيدة، وإعداد حسي متسق، وانسجام روحي ونفسي منصهر في بودقة واحدة، قوامها الشوق والتوق إلى المحبوب العزيز على الوصال، بأسلوب يوحد بين الحسي والعلوي.

فالتصاعد في وتيرة العشق والشوق، الثنائي الانتقال إلى الذهن بين الحسي والنعتي، المحافظ على الوحدة النفسية، يستل السامع من واقع مادي أصم إلى فضاء الوجد والهيام العلوي الفسيح، مهيئا النفس للارتقاء في المدارج إلى أجواء المشاعر النقية العلوية في العشق، صعودًا إلى الأصل، وهو العشق المحمدي والشوق إلى النبي ﷺ في لهف كلهف صريع في هجير الصحارى إلى قطرة ماء... في أحوال شعورية ونفسية موحدة ومتماسكة ومنتظمة كحبات المسبحة بالخيط.

إن معاني القصيدة كلها تحوم في أجواء وجدانية علوية واحدة من العشق والشوق والتوق إلى الوصال، وترفع الإنسان إلى مراتب عشق النبي ﷺ في حال محسوس بها في المشاعر القريبة، ولكن بالتحليق السامي في فضاء النقاء والصفاء والبهاء.

إن الشاعر يرقى بنا إلى ذرى المعاني للعشق الصوفي المجرد... ثم يمسك بزمام قيادنا نحو العشق النبوي ونحن في أرق أحواله الدافقة بالحيوية. عشق ملتهب في حنايا النفس، لكنه شهي ولذيذ تهفو إليه النفس وتتوق، وتسعد بلهيبه الذي يحرك ولا يحرق.

وهو لشدة أواره النوري يستعصي أن يذوي أو يخمد بالماء الذي يغمر الكون والأفلاك كلها، بل النفس تأبى وتكره أن يخمد فيها هذا اللهيب أو يستكين، الماء هنا يفقد طبعه في إخماد حر اللهيب، فليس من شأنه في هذا الحال تسكين لوعة العشق، وله أن يكون دمعًا ذارفًا ونازفًا في اللهف إلى الوصل، وطهرًا يسري في النسغ ليزدهر وردًا لأجمل وجه، ورِيًّا يروي الصادي الظمآن الذي تشقق شفتيه رمضاء

فيافي الحب، ورضابا للحبيب يروي الغليل، ونورا في جِبِلّة الطينة النبوية الطاهرة يزخ الحياة بالاقتداء بهديه.

فهو السلسبيل الدفاق الذي تهفو إليه النفوس في رخائها ومَحْلها. وكذلك، هو مظهر معجزات الحبيب حين يطفئ نار الشر في الكون، ويتدفق زلالًا من بين أصابعه ﷺ ليغيث بالنضرة والحياة، ويتقلب بين يدي معجزاته الباهرات سمًا للشر وعسلًا سرمديًّا للخير.

ولئن كان الماء في القصيدة معينًا دفاقًا، لذيذًا وعزيزًا، ووسيلة ومحرّضًا، يحض على المضي في سبل الشوق إلى الحبيب بلا فتور ولا ونى، فإنه يستحيل إلى عاشق بذاته، يسعى حثيثًا في الدروب الموصلة إلى النبي المعشوق ﷺ، مجذوبًا وغائبًا عن الشعور إلا الحب، يضرب برأسه الأحجار في السفوح إذ يسيل، عساه أن يسعد بلقاء التراب الذي داسته قدم الحبيب، لا يكل ولا يمل وإن تشابكت الأعصر عليه. ولنقل إنه خاب في الوصول إلى تراب قدميه، فلا رجوع ولا عودة!.. يذوب إذن ويذوي، ويتفتت، سعيدًا، لأنه يعاود الكرة بعد الأخرى، عمرًا بعد عمر. فلا شكوى ولا ملل؛ بل ما أجدى السعي في هذه الدروب، ما دام الشوق إلى الحبيب أشهى حتى من الوصل نفسه!؟.

وهذه المعاني السامية والصور الزاخرة أسلوب بديع في النعت (المدح) المحمدي ﷺ، نسيح بها في هيام العشق النبوي الذي هو قوام الحياة الحقة في آفاقها الروحية المنسابة من الأزل الغابر إلى الأبد السرمد، كالماء... عشقٍ رقراقٍ وحيٍّ، كالماء.

قصيدة "الماء"، شعر مفعم بأفياء معان للعشق رفرافةٍ لا أشك في عجزي عن نقل ظلال البلاغة والعلو فيها، وعن استحضار رونق عواطفها وتلألؤ جواهرها، وقد آثرت ألا أبتعد عن معانيها القريبة حتى أضع بين يدي القارئ نصًّا ملتزمًا بالأصل؛ فلعل ذلك يجعل دراسة القصيدة أيسر للباحث، وعسى أن يكون الالتزام بأصل المعاني في الترجمة أجدى في تصور ظلالها الدائرة في محور الأدب الكلاسيكي وعلى إتمام المعنى في البيت الواحد، وفي الاستلهام بآثار أدبية تنطلق منها، وفي الحث على تراجم لها، شعريةٍ أو نثرية أدبيةٍ، أبلغ وقعًا في النفس وأعظم إثارة للضمير والشعور من هذه الترجمة التي أحسب أنها الأولى إلى العربية..

ترجمة القصيدة المائية

١- الماء، دع الماء لا تهرقه دمعًا على نيران قلبي.

الماء، كل الماء، يقصر عن هذا اللهيب.

٢- والماء، هل لونه هو الذي في القبة الدوارة، أم الذي في الأفلاك بحر من ماء عيني؟

٣- والماء يشقق الصخر شروخًا بمر الزمان... فهل عجبٌ إن تفتت قلبي بسيوف نظرك، نشوانًا؟

٤- والماء يشربه الجريح متوجسًا حذرًا. وقلبي الجريح متوجس حذر، أن ينطق ببنت شفة عن سنان أهدابك.

(يشفق الشاعر أن ينطق بشيء عن أهداب عين الحبيب وإن كانت أسنتها الجارحة كالماء له، وهو الجريح. كخشية الجريح أن يشرب الماء حتى لا يزيد نزفه فيهلك).

٥- والماء إن سقى ألف جنة، ما تفتحت عن وردة كوجهك، فلا تَشْقَ يا زارع عبثًا، ودع الرياض غرضًا للسيول!

(يعني لا جدوى من سقاية الزرع وإن سالت سيولًا إن كان القصد مضاهاة الجمال في الزهور، وقد تفتحت أجمل الورود طرًّا).

٦- والماء الأسود حتى إن تَقَطّر على عين المحرر (فأعماها) لطول تأمله في خطوطك، كما يتقطر (الحبر) في القلم، فإن خطه الغباري الدقيق يستعصي أن يضاهي دقيق ملامحك.

(الماء الأسود الذي يذهب البصر. والخط الغباري هو نوع من أدق الخطوط كتابة).

٧- والماء ما ضاع سدى، حتى إن سقى الشوكَ رجاءَ الوردِ. فلست أبالي، إذن، مهما بلت جفوني لعارض من خاطرك.

(يعني أن البكاء على الحبيب ليس هباءً، وإن لم يبلغ الباكي المراد. كما أن الماء لا يذهب سدى ما دام الورد رجاء).

٨- والماء إن يرو العليل في ظلمة الليل، تكن صدقة.

فتصدق ولا تحرم قلبي العليل في يوم الغم من سيف نظرك.

(يحسب الإنعام بالنظر، وإن كان حديدا كالسيف، ريًّا يروي ظمأه في بلوى الفراق، كما يرتوي العليل الظامئ الساهر بأوجاعه).

٩- والماء، ما ضرك -يا قلبي- أن تطلبه لي مرة في هذه الصحراء!؟ فاستدع -يا قلب- في الهجر نباله، فيسكن شوقي إلى وصله!.

(هنا أيضًا، يستجلب نبال الحبيب في الهجر ويطلبها، كالماء في هجير الصحارى).

١٠- والماء يستسيغه النبيه، والخمر يستسيغه السكران. وإن الزهاد طلاب الكوثر، وأنا مشتاق إلى شفاهك!

١١- والماء ينساب في مسالكه إلى ربوع رياضك بلا كلل.. فأظنه عاشقًا لذاك السرو البهي القويم.

١٢- والماء هذا غريمي، فلأكنْ ترابًا في طريقه مانعًا إياه عن تلك الربوع. (حتى أحوزها حصرًا).

١٣- والماء، قدِّموه إلى (يد) الحبيب في جرة، تصنعوها من ترابي، إن مت يا أخلاّئي، فمرادي أن أقبل يديه، إذ لم أبلغ مرادي! (حين يمس الحبيب الجرة).

١٤- والماء تراه مُقبّلًا أذيال ثوب السرو، واقعًا على أقدامه، متوسلًا به... لأن السرو زاه وشامخ، لتوسل القُمريّ به.

(هنا يسمو بالحبيب ويجعله عزيزًا عن الوصول، مهما توسل القمري. ففي عزه لتوسل المحبين إليه، يقبّل الماء أذيال أثوابه ويسيل ذائبا تحت قدميه ويتواضع له).

١٥- والماء عساه أن ينقذ البلبل، إذ يختلط بمزاج غصن الورد... فإن الورد يهوى امتصاص دم البلبل في لونه.

(يعني أن الماء قد يخفف من غلواء الورد المستمد لونه من دم العندليب بالسريان في مزاج الغصن).

١٦- والماء في طهر طينتك نورٌ لأهل العالم، واقتداءٌ لطريق الأحمد المختار ﷺ.

١٧- والماء أغرق نار الشر بمعجزات سيد البشر وبحرِ دُرِّ الاصطفاء.

١٨- والماء تفجر من جلمود الصخر بمعجزة، ليخلّد نضارة روضة النبوة.

١٩- والماء أكفأ ألف ألف بيت نارٍ للكفار، إعجازه في العالم بحر محيط مديد.

٢٠- والماء تفجر من بين أصابعه ﷺ للأنصار يوم الشدة، في إعجازٍ من يسمع به يعض الأصابع عجبًا.

٢١- والماء إن يذقه عدوٌ له، يكن سم أفعى، وإن يرتشف خليلٌ له سُمّ أفعى يكن ماء السرمدية وإكسير الحياة.

٢٢- والماء المرفوع إلى وجهه بكف الوضوء، كل قطرةٍ منثورةٍ منه ألفُ بحرٍ للرحمة، متلاطمِ الأمواج.

٢٣- والماء هيمانٌ، لا يفتأ يسيح في الأرض أعمارًا متواصلةً، يرطم رأسه بالأحجار، حجرًا حجرًا، متلهفًا لتراب أقدامك.

(مع عموم المعنى، فقد ينصرف إلى نهرَي دجلة والفرات النابعين من فجاج الجبال في تركيا، ثم يسيحان حتى يلتقيان في شط العرب الذي يصب في الخليج، فكأنهما يريدان أن يبلغا تراب جزيرة العرب، موطيء قدم الرسول ﷺ، فلا ينالان المرام، مع إصرارهما في السيلان آمادًا طويلة؛ ويعزز البيت الذي يليه هذا المعنى).

٢٤- والماء لن يرجع القهقري عن مأواك وإن فُتِّتَ فَتاتًا. فمرامه أن يشع نورًا في كل ذرة من تراب مأواك.

٢٥- والماء يشربه السكران دواءً يعالج ذهول عقله.

كذلك يداوي الخطاة آثامهم بذكر نعتك (مناقبك) وِردًا لهم.

٢٦- والماء لهف الصادي، المتشقق شفتاه عطشًا.

كذاك لهفي إليك يا حبيب الله، يا خير البشر.

٢٧- والماء الفياض من قطر نداك، يا بحر الكرامة، أوفت الثوابت والسيارات في ليلة معراجك.

٢٨- والماء إن ابتغاه للتجديد معمار مرقدك، ففيض الزلال يصب أبدًا من معين نورك.

٢٩- والماء رجائي أن يُرش من غمام إحسانك، على نارٍ يلهبه خوفُ الجحيم حريقًا من الغم، في قلبي المشتعل.

٣٠- والماء في مطر نيسان يغدو لآلئ.

كذلك صارت كلمات "فضولي" جواهر بيمن نعتك (مدحك).

٣١- والماء، أرجو أن يهبه عين وصلك لهذا الظمآن.

فإن رجائي ألا أُحرم يوم الحشر.

(استلهامًا من أسطورة تقول بأن قطرة مطر الربيع تغدو لؤلؤة).

شهود الحال في القضاء العثماني(*)

لا شك أن العدالة من أسمى الغايات التي سعى الإنسان إلى تحقيقها منذ القدم، وإن الديانات السماوية نزلتْ لترسيخ العدالة وإرساء قواعد الأمن والاستقرار بين الناس، ثم إن مقولة "الظلم لا يدوم" تؤكد على أن الأمم التي عمّرت طويلًا، هي التي أرست دعائم العدل والعدالة بقوة بين أبناء مجتمعاتها.

ولا نخطئ إن أدخلنا العثمانيين في قائمة الأمم والدول التي ساهمت بقوة في دعم ثقافة القانون ونشر قيم العدالة النبيلة المرتبطة بالمنظومة القيمية للحضارة الإسلامية.

الدواوين المركزية

إن مؤسسة القضاء في الدولة العثمانية تختلف من مدينة لأخرى، وإن "ديوان الهومايون" في العاصمة؛ هو المجلس الأعلى الذي يملك السلطة الكاملة في جهاز القضاء.

كانت تُعقَد بعض المحاكم في ديوان الهومايون في الباب العالي بعد مجالس الاستشارة حول شؤون الدولة، وفضلًا عن الدواوين

(*) **رمضان بالجي** [كاتب وباحث تركي]. الترجمة عن التركية: رضوان يوسفي.

التي يعقدها الباب العالي يوميًّا، كانت هناك أيضًا محاكم تسمى بـ"دواوين العصر" وتعقد على مدى ثلاثة أيام في الأسبوع، ومحاكم تسمى بـ"دواوين الجمعة" ويشرف عليها قضاة عسكر الأناضول والروميلي، ومحاكم تسمى "دواوين الأربعاء" ويشرف عليها كل من قاضي إسطنبول، وقاضي منطقة غلطة، ومنطقة أيوب سلطان، ومنطقة أسكدار.

هذا وإن هذه الدواوين هي التي شكلت العمود الفقري لنظام القضاء المركزي في الدولة العثمانية.

وبالتالي كان شيوخ الإسلام وقضاة العسكر يقومون بمراقبة القوانين التي يتم صدورها من أجل المصلحة العامة، وبالبحث عن مدى تطابقها مع مبادئ الإسلام وقيمه، وذلك لمنع وقوع الخطأ في المجال القضائي.

أما مؤسسة الإفتاء، فبالرغم من عدم تواجدها بشكل مباشر في جهاز القضاء، إلا أنها بفضل فتاويها في مختلف النوازل، تتمتع بمكانة خاصة، وتشكل رقابة دقيقة على جهاز القضاء.

القضاة

يتبوأ القضاة منصبًا مهمًّا في جهاز القضاء وجهاز الإدارة داخل الدولة العثمانية، فالطلاب الذين يتخرجون من المدارس الراقية؛ كمدرسة السليمانية ومدرسة الصحن الثماني، كانوا يُعيَّنون حسب درجاتهم التعليمية، قضاة في أهم المراكز والمدن وعلى رأسها مكة المكرمة والمدينة المنورة.

أما بالنسبة للنظام الإداري، فكان القاضي يملك السلطة الكبرى في المناطق التي يمارس مهامه فيها.

لقد كانت فرمانات السلطان وقراراته حول المناصب، تُرسَل مباشرة إلى القضاة، وكذلك كان كبار رجال الدولة، المسؤولون عن إرساء دعائم القوانين الشرعية والعرفية؛ مثل الصدر الأعظم (الوزير الأول) والقاضي عسكر، والوالي، وقائد القوات البحرية، يوجهون الأوامر إلى القاضي من خلال رسائل تسمى "الرجاء".

وكان القاضي يقوم أولًا بتسجيل هذه الأوامر في دفتر السجلات ثم يبدأ بالتنفيذ، وكان يتولى مهمة القضاء، والإدارة، ورئاسة البلدية في آن واحد، وكان كذلك هو رئيس المحكمة الذي يقوم بحلّ النزاعات والاختلافات القانونية التي تنجم بين الناس.

وبالتالي كان القضاة -باعتبارهم المكلَّفين بتطبيق قوانين العرف- ملزمين أيضًا بالإشراف على شؤون مالية الدولة، والعقود المبرمة بين الأفراد والدولة، وكذلك تنظيم مصادر الدخل للدولة، وتنظيم قوانين الضرائب، ومتابعة أحكام الحظر والمنع.

كما كان القضاة أيضًا، مسؤولين عن متابعة شؤون التجار والحرفيين، وتنظيم أمور النقابات، وتحديد أسعار السوق، وتفتيش نظام الإعمار، ومراقبة الأوقاف، بالإضافة إلى تعيينهم النوابَ، ومديري الأوقاف، والأئمة، والخطباء، وكذلك تفتيش كتّاب العدل، وتفتيش عقود الميراث والزواج، وتفتيش قضاة التنفيذ، وتفتيش الزوايا والتكايا.

وكان القاضي أيضًا يشرف على مجموعة واسعة من النواب، والكتّاب، والخدم، والمحضِرين أثناء تسيير الشؤون القضائية.

هذا ويملك شيخ الإسلام والقاضي عسكر، حق الطعن في قرارات القاضي، وفي حالات استثنائية، يمكن أن يحال قرار القاضي إلى ديوان الهمايون للطعن أو الاستئناف.

شهود الحال

من الملفت للانتباه في المحاكم الشرعية داخل الدولة العثمانية، وجود هيئة رقابية تسمى "شهود الحال" تتابع سير المحكمة حيث يستشير القاضي مع هذه الهيئة ليتلقى منها المعلومات حول القانون العرفي والعادات المحلية.

يشارك شهود الحال في المحاكم بصفة شهودٍ لمؤازرة القاضي على تحقيق العدالة، فهم يتواجدون أثناء المحاكمة من أجل متابعة سير المحكمة ومراقبتها، أما أعضاء شهود الحال فكان يتم اختيارهم من المدرسين، والأعيان، والأشراف في المدينة، وفي بعض الأحيان كان القاضي عسكر ممن يشتركون في هذه الهيئة.

كما كان يطلق على هذه الهيئة كذلك اسم "المسلمين العدول" أو "الشهود العدول"، مما يبرز أهمية هذه الهيئة في مجال القضاء.

والجدير بالذكر أن عدد أعضاء شهود الحال غير محدد، إذ بعد ما تسجَّل بعض أسماء شهود الحال، يضاف إلى القائمة عبارة "وغيرهم"، وهذا يشير إلى أن هناك أعضاء آخرين قاموا بالتوقيع على قرار المحكمة لم تُكتَب أسماؤهم.

ومن جانب آخر كان يوجد عضو واحد -على الأقل- في هذه الهيئة يمثل المدعي، وعضو آخر يمثل المدعى عليه، ومن الملاحَظ أن عدد أعضاء شهود الحال يزداد في القضايا المهمة الكبرى، ولا سيما في القضايا الخطيرة.

ولا بد في هذا الصدد من الإشارة إلى أن شهود الحال لم يتدخّلوا في قرار القاضي ولم يكن لهم تأثير عليه بالمرة، ولكن وجودهم كان بمثابة العنصر الضامن للعدل في المحكمة، حيث كان القاضي قبل إصدار حكمه يلجأ إلى شهود الحال ويستشير معهم، ثم يصدر الحكم، وهذا دليل واضح على دور شهود الحال في تجلّي العدالة في المحكمة.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن شهود الحال ليسوا شهود عيان على القضية، بل إنهم المراقبون في المحكمة.

كل ذلك يشير إلى آلية الرقابة الموجودة في المحاكم العثمانية من جانب، ومن جانب آخر إلى شفافية المحكمة في انفتاحها للعموم، ومن ثم حياديتها في إصدار القرارات.

بداية نشاط شهود الحال

يبدو في وثائق الأوقاف العثمانية أن هيئة شهود الحال تشكّلت استلهامًا من الآيتين الكريمتين اللتين يقول الله تعالى فيهما: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ**﴾ (البقرة:٢٨٢)، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ**﴾ (المائدة:١٠٦)، ولعل

انتقال الوقف عن طريق الوصية بين الأجيال يعزز هذه القناعة، ولا شك أن تطبيق نظام شهود الحال في المحاكم المحلية، أعطى شكلًا جديدًا للنظام القضائي في الدولة العثمانية.

والجدير بالذكر أن الدولة العثمانية أخذت نموذج شهود الحال من سابقتها الدولة السلجوقية، مثلًا كان وقف "طُرُومْتاي" الذي كان محافظًا على مدينة أماسيا في عهد السلطان غياث الدين كَيْهوسرو السلجوقي (١٢٣٧-١٢٤٦)، واحدًا من هذه الأوقاف التي نرى فيها عبارة "شهود الحال" وبوضوح.

ونجد عبارة "شهود الحال" كذلك في وقف مسجد "إبْلِيكْجي" الذي تم تشييده في عهد إمارة "كرامان أوغولاري"، وبالتالي نجد في الجزء الأخير من النص الذي نقش على مدخل وقف السلطان مراد الثاني عبارة: "يقول الله ﷻ: ﴿**فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ وقد حكم قاضٍ من قضاة المسلمين وبحضور شهود، على صلاحية وشرعية هذا الوقف".

أعضاء شهود الحال

النواب: وهم من كبار رجال المدينة المحترمين، وكانوا يحضرون كل القضايا.

المفتي: فضلًا عن الإفتاء، كان المفتي يحضر القضايا المهمة أيضًا. وكان القاضي إذا تعذّر عليه حلّ قضية، سرعان ما يراجع المفتي ويطلب منه الفتوى حولها.

ولا شك أن وجود المفتي بين أعضاء شهود الحال، أكسب لمؤسسة العدالة ميزة خاصة تستحق التقدير.

نقيب الأشراف: وهو موظف مهمته رعاية الأشراف وحماية حقوق الأسياد الذين ينحدرون من نسل الرسول عليه أفضل الصلاة والتسليم.

أخي بابا (رئيس التجار والحرفيين): وهو من أعضاء شهود الحال في المحاكم التي تدور حول التجار والحرفيين، بالإضافة إلى عضويته في شهود الحال في القضايا التي تتعلق بالضرائب، والزواج، والطلاق، والأوقاف، والنزاعات التجارية، والميراث، وتعيينِ وصيّ للأيتام، وبرعاية العجزة والاعتناء بهم.

الدفتردار (أمين المال): كان دفتردار ولاية قبرص، عضوًا في شهود الحال أيضًا، وهو يسعى أثناء القضايا إلى حل النزاعات التي تقع بين الأطراف من جانب، ومن جانب آخر إلى تأمين حيادية قاضي المحكمة.

إلى جانب هؤلاء الأعضاء ثمة أعضاء آخرون في شهود الحال؛ مثل المُحضِرين الذين يُحضِرون إلى القاضي أصحابَ الدعاوى، ورؤساء الكتّاب الذين يقومون بتحقيق الشكاوى، والكتّاب المُقْسِمين الذين يقسمون الميراث لأصحابها بالعدل، والمقيّدين الذين يقومون بمهمة التسجيل في السجلات، وقرّاء الفتح الذين يتلون سورة الفتح في كل صباح داخل المحكمة.

الخلاصة

في فترة من الفترات كانت مقولة "عدلُ ساعةٍ خيرٌ من عبادة ستين سنة" راسخة في نفوس المسلمين والمجتمعات الإسلامية، لذا لم يتعذر عليهم إيجاد سبلٍ تُحقِّق لهم العدل والعدالة بين أبنائها.

من هذا المنطلق يمكن القول إن السر في استمرارية الدولة العثمانية ستة قرون، يكمن في إدراك المعنى الحقيقي للعدالة وتطبيقها في القضاء. ويتضح مما ذكرناه آنفًا، أن النظام القضائي في الدولة العثمانية كان قائمًا على مبادئ وأسس إسلامية سامية.

منهاج الفاتحين(*)

عندما سئل القائد الفرنسي "نابليون بونابرت": "مَن هم العظام؟" أجاب وهو يشير إلى السلطان العثماني محمد الفاتح: "لا أستطيع أن أكون حتى تلميذًا له، وإذا سألتموني عن السبب أقول: "أنا رجل سيّئ البَخْت، لأني خَسِرتُ الأراضي التي استوليت عليها بالسيف وأنا على قيد الحياة، أما هو، فإنه رجل ذكي حافظ على الأراضي التي دخلها، وعرف سبيل توريثها إلى أجيال أمته القادمة".

تُرى، ما الذي دفع "نابليون" الذي حارب العثمانيين مرارًا، إلى هذا الاعتراف المرّ الذي سطّره التاريخ بحبرٍ لا ينمحي؟ أو ما الذي دفعه إلى وضع السلطان محمد الفاتح في مقدمة العظام وليس الإسكندر الأكبر ملك الإغريق، أو جنكيز خان إمبراطور المغول؟ لا شك أن السبب هو بقاء ثمرة الفتوحات العثمانية إلى يومنا هذا وعدم انمحائها عن مسرح التاريخ.

الهدف من الفتوحات

لعل السبب الأهم في بقاء ثمرة الفتوحات العثمانية إلى اليوم، هو التسامح والرحمة والمعاملة الإنسانية التي أبدتها الدولة العثمانية تجاه الشعوب التي فتحت أراضيها.. إذ كانت الدولة العثمانية تسمح لأبناء هذه الشعوب ممارسة طقوسها الدينية، وترعى القيم الإنسانية

(*) **متين رئيس** [كاتب وباحث تركي]. الترجمة عن التركية: **محمد مراد**.

في هذه الأراضي، وكأنها نَقشت سياستها في الفتوحات، استلهامًا من مقولة العالم العثماني "الشيخ أدب عالي" التي يقول فيها: "أَحْيِ الإنسانَ تحيا الدولة".

ومما يجدر ذكره أن العثمانيين دولة احتذتْ -في فتوحاتها- تقليدًا عتيدًا ورثتْه عن أسلافها، فقد كانت آخر مَن أحيا مفهوم الفتح الذي يهدف إلى "إعلاء كلمة الله" الذي بدأه سيد المرسلين محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم.

هذا ولم تكن الغاية من الفتوحات لدى العثمانيين توسيع بقعة المملكة، بل نقْل القيم الإسلامية إلى كل الأرجاء، وغرس محاسنها في كل القلوب؛ لذا سعى سلاطينها ورجال دولتها، إلى كسب قلوب الشعوب في الأراضي المفتوحة ونيل محبتهم ورضاهم؛ فقاموا بإنجاز مشاريع محمودة، خدمةً لأبناء هذه البلاد وفتحًا لقلوبهم.

عندما سافر السلطان محمد الفاتح إلى "طرابزون"، جرى بينه وبين "سارة خاتون" (والدة "أوزون حسن" أمير أَقْ قُيونلو) حوار علّه يكشف لنا الغايةَ التي سعت الدولة العثمانية إلى تحقيقها بهذا السفر. حينما رأتْ "سارة خاتون" معاناة الجنود في جبال البحر الأسود الوعرة قالت متأسّفة: "يا بني، لماذا تعاني من أجل مدينة واحدة كل هذه المعاناة؟" فأجابها السلطان الفاتح قائلًا: "يا أماه، إن هذه المعاناة ليست من أجل الحصول على طرابزون، بل من أجل كسب مرضاة الله، لأنه حمّلنا الأمانة، فإذا رفضنا هذه المعاناة، فلا يليق بنا أن نكون مجاهدين في سبيله تعالى، ونُسأل يوم القيامة عمّ فعلناه في سبيل الحفاظ على هذه الأمانة".

مفهوم الحكم لدى العثمانيين

منذ بضعة عصور وتقوم الدول العظمى بإشعال الفتن في الأراضي التي تريد الاستيلاء عليها، بينما العثمانيون كانوا إذا دخلوا بلدًا اتخذوا سبيل إرضاء الجميع النائي والقريب، وانتهجو الأسلوب الذي سار عليه الرسول ﷺ في المدينة المنورة.

فالرسول ﷺ بعد الهجرة، اهتم بالمشاكل الاجتماعية في المدينة المنورة وسعى إلى حلها؛ إذ كان يعيش في هذه الديار قبائل متنوعة ومن أعراق مختلفة، وبالتالي كانت هذه القبائل في حالة صراع وحرب فيما بينها، ولعل هذه الحالة تؤكد أن أبناء هذه المدينة كانوا في أمس الحاجة إلى التوحد والأخوة والتسامح فيما بينهم؛ لذا كانت جهود الرسول ﷺ -قبل كل شيء- تصبّ في هذا الاتجاه، ومع مرور الزمن، انتهت الحروب بين هذه القبائل وساد الأمن والسلام في كل جنبات المدينة، وسرعان ما تحولت المدينة المنورة إلى مركز تجاري آمن، ونقطة ثقافية جاذبة، يفد الناس إليها من كل صوب وحدب.

والجدير بالذكر أن سلاطين آل عثمان انتهجوا منهج رسول الله ﷺ في فتوحاتهم، فعندما رأى أمم البلقان المتناحرة بسبب الحروب المذهبية العرقية، الحبَّ والتسامح الذي أبدته الدولة العثمانية لهم، رضوا بحكمها رضاء من القلب واحتضنوها بحب؛ لأنهم رأوا بأمّ أعينهم جهودهم في حل مشاكل القوم، واتباعهم -في ذلك- أسلوب الملاطفة والليـن بدل القسوة والإكراه، وما لبث أن انتشر الأمن والسلام في البلدان التي دخلت في حوزة الدولة العثمانية، وارتفع مستوى المعيشة لدى شعوبها.

تواضع الجنود

زار الرحالة الفرنسي (*Bertrandon De La Broquiere*) بلاد الأناضول في عهد السلطان مراد الثاني، وإن ما قاله حول الجنود العثمانيين، دليل على تواضعهم الذي رآه منهم، قال: "لم أستطع التمييز بين القواد والأمراء والجنود في الجيش العثماني؛ إذ كانت أزياؤهم العسكرية في منتهى البساطة، وقد حظيتُ أيضًا، برؤية السلطان وهو يصلي في المسجد؛ إذ لم أر له عرشًا ولا كرسيًّا، بل كان يصلي على سجادة فُرشتْ على الأرض، ولم أر له حارسًا ولا ضابطًا ولا أيّ أحد حوله".

المشاريع المعمارية

غالبًا ما كانت الدولة العثمانية تصرف غنائم الحرب على المؤسسات الخيرية الإغاثية، كما كان السلاطين أيضًا يصرفون حصصهم من هذه الغنائم على المساجد، والمدارس العلمية، والبيمارستانات، وتأسيس الأماكن الخيرية، وقد سار رجال الدولة الآخرون على نفس المنهج الذي سار عليه السلاطين، وبادروا إلى تأسيس منشآت خيرية يستفيد منها الأهالي والمواطنون.

هذا وقد وجّه العالم الجليل "أق شمس الدين" -الذي كان له الدور الروحي في فتح إسطنبول- نصائح معبِّرة إلى الباشاوات وأسياد المدينة، عندما كانت الغنائم توزَّع على الجنود في منطقة "أُقْ ميداني" بإسطنبول، قال: "أيها الفاتحون! اعلموا أن خاتم النبيين محمدًا ﷺ بشّر بكُمْ فقال "ونعم الجيش ذلك الجيش"، إنكم المبشَّرون بهم، ولكن أوصيكم ألاّ تُسرفوا أموال الغنائم إسرافًا،

بـل اصرفوهـا فـي طريق الخير والحسـنات"؛ فقام الجنـود بتنفيذ هذه الوصية وسعوا جاهدين لإعمار آخرتهم بإعمار دنياهم، وما لبث أن تحولـت إسـطنبول إلى مدينـة تزدان بالمسـاجد والقباب، واصطبغت بصبغة الإسلام النقية وقيمه العالية السامية.

ولـم تقتصـر هـذه المبـادرات الخيريـة علـى إسـطنبول فقـط، بـل انتشرت إلى كافة أرجاء الأراضي العثمانية؛ حيث تم إنجاز مشاريـع كبيرة في الأراضي التي دخلت في حوزتهم، وقدموا خدمات محمودة لأهاليها، فزيّنوا تلك البلاد بالآثار التي ظلت قائمة إلى يومنا هذا.

ومن أبرز الدلائل على تواضـع السلاطين العثمانيين، إقامتهم في "قصر توب قابي" البسـيط حتى أواسـط القرن التاسـع عشـر.. حيث لم يرغبوا في إنشـاء القصور الضخمة والفِلل الفخمة في البلاد التي فتحوها، بل فضّلوا أن يقدموا خدمات لأبنائها وأهاليها، ليظهروا قيم الإسلام الراقية العالمية ورسالته الشاملة الإنسانية.

هـذا وإن الأراضـي التـي تـم فتحهـا، سـرعان مـا كانـت تتطـور وتزدهـر؛ حيـث تقـام فيها المسـاجد والأسـواق، والمدارس، وسـبل الميـاه، والحمامـات.. بيد أن كل هذه المنشـآت كانت تجتمـع تحت سقف بناء يسمى "الكلية"، وكانت هذه الكليات بمثابة المقر الروحي والمعنوي للشـعب العثماني، لأن الروح الذي نقشـه العثمانيون على هذه المباني كان يعكس وجهة نظرهم إلى الدنيا والحياة.

ومما يجـدر ذكره في هذا الصـدد، أن الأمم التي لم تدخل تحت الحكم العثماني أيضًا، كانت تسـعى إلى محاكاة الأسـاليب العثمانية

التي تنفذها في تطوير البلاد المفتوحة، ونرى هذه الآثار تمتد على مساحة واسعة من الأناضول إلى البلقان، ومن القارة الأفريقية إلى اليمن، وإلى غيرها من البلدان التي اصطبغت بالهوية العثمانية وتحلّت بقيمها التي تجرّعتها من مبادئ الإسلام السمحة.

ومن خلال هذه الفتوحات، أعطت الحضارة التركية الإسلامية ثمارها في الأراضي المفتوحة -ولا سيما أراضي البلقان- بشكل سريع؛ فتحولت المراكز السكانية الصغيرة إلى مدن مهمة متطورة، لأن هذه المدن كانت تحاكي مدنًا مركزية كـ"بورصة"، و"أماسيا"، و"مانيسا" وغيرها من المدن التي تتمتع بالمكانة المرموقة لدى العثمانيين، ومن ثم بدأت المدن في البلقان تتحول إلى مدن عثمانية تتزين بعاداتها وتقاليدها الراسخة.. ثم إن السياسة التسامحية التي انتهجتها الدولة العثمانية في هذه البلاد، دفعت شعوبها إلى اعتناق الإسلام وإلى الدخول في فضاءاته الرحمانية.

ففي القرن السادس عشر -مثلًا- وصل عدد المسلمين في "أسكوب" و"مناستر" إلى ٧٠٪، وفي "نغبولو" و"تيرنوا" إلى ٥٠٪، وفي "فيدين" و"صوفيا" و"فيليبا" إلى ٧٠٪.

وختامًا، يقول المؤرخ التركي "سَزائي قَرَه قُوج" خلال تعليقه على فتح إسطنبول: "كان فتحُ إسطنبول فتحَ حضارة في حقيقة الأمر"، والحق يقال إن التسامح، وحسن المعاملة، والرغبة في إحياء الإنسان، وغيرها من الأسباب، جعلت كل الفتوحات العثمانية فتحوحاتٍ حضارية قيمية، ولا شك أن الوسيلة العظمى التي ساعدت

على تحقيق هذه الفتوحات، هي تكاتف أصحاب العلم وأصحاب الحروب في سبيل إعلاء كلمة الله ونشر قيم الإسلام الإنسانية في كل أرجاء العالم، ولا شك أن ذلك لعب دورًا كبيرًا في بقاء آثار الحضارة العثمانية الإسلامية -مقارنة بالحضارات الأخرى- إلى يومنا الحالي دون انمحاء.

مراسيم ليلة القدر(*)

في ليلة القدر، أي في أواخر شهر رمضان المبارك، يتم ترتيب موكب ومراسيم "ليلة القدر" في قصر طوب قابي؛ لأن السلطان كان يؤدي صلاة التراويح في أحد الجوامع الكبيرة خارج القصر.

كان جامع آيا صوفيا في غالب الأحيان، هو الجامع الذي يصلّي السلاطين فيه التراويح في ليلة القدر، إذ كان الطريق بين قصر طوب قابي وجامع آيا صوفيا يضاء بالمشاعل، وقد كان موظفو القصر الكبار، يشتركون في هذا الموكب مع الموظفين الكبار الذين يشتركون في موكب السلطان لصلاة الجمعة.

ولكن لم يكن السلطان يؤم الجماعة، بل كان يصلّي خلف إمام الجامع، ثم يعود الموكب بعد انتهاء الصلاة من الطريق نفسه إلى القصر.

مراسيم الإفطار القصريّة

كانت حفلات الإفطار في قصر طوب قابي في شهر رمضان مشهورة أيضًا، إذ كان من ضمن العادات والتقاليد قيام السلاطين والوزراء وأركان الدولة الآخرون بتهيئة مآدب الإفطار، ومن المعلوم أن السلاطين كانوا يهيئون مآدب الإفطار، ويدعون إليها الوزراء والأمراء والسفراء الأجانب ورؤساء الأديان الأخرى، ومآدب

(*) **محمد بهادير دوردنجي** [كاتب وباحث تركي]. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.

الإفطار هذه، كانت من العادات المرعية، بدءًا من قمة المجتمع وانتهاءً بالطبقات الفقيرة.

كانت مآدب الإفطار العثمانية غنية بألوان الأطعمة، وتقدم ضمن الأصول العثمانية والتربية العثمانية الأصيلة والراقية، ويُشرك فيها الفقراء فتتجلى فيها صور التساند، وقد كان السفراء الأجانب المدعوون إلى هذه المآدب ينبهرون بما يرون من ألوان الطعام والشراب، وبالجو الروحاني السائد فيها.

لم يكن أصحاب الأديان المختلفة فقط هم مَن يحضر هذه المآدب، بل العديد من الناس من الطبقات الاجتماعية المختلفة أيضًا، كان الإفطار في قصر طوب قابي يبدأ بشرب القليل من ماء زمزم مع التمر.

تأدية صلاة العيد

عندما يتم توديع شهر رمضان تنطلق حركة محمودة لاستقبال العيد؛ حيث يتم تشكيل موكب سلطاني لاستقبال العيد، كان هذا الموكب -لا سيما في العهود الزاهرة للدولة العثمانية- موكبًا عظيمًا يعكس هيبة الدولة العثمانية وقوتها ومجدها بجلاء.

وغالبًا ما كان يختار السلطان جامع السلطان أحمد لصلاة العيد، وقد يتم اختيار جوامع أخرى كبيرة في أحيان قليلة، مثل جامع الفاتح، أو جامع بايزيد، أو جامع السليمانية، أو جامع "نوري عثمانية"، أو جامع آيا صوفيا، أما موظفو القصر فكانوا يصلّون العيد في أغلب الأحيان، في جامع آيا صوفيا، ويعودون مسرعين إلى القصر لإنجاز كل ما يتطلبه التهيؤ للعيد.

وبعد انتهاء مراسيم العيد أمام باب السعادة (أي باب قصر طوب قابي)، يركب السلطان جواده المزين سرجه بأنواع الجواهر ويرجع إلى القصر، يقف الصدر الأعظم والوزراء، لاستقبال السلطان بعد دخوله من الباب، ثم يركبون خيولهم ويمشون في ركابه وهو في طريقه إلى الجامع.

كان المكان الذي يصلّي فيه السلطان في الجامع، يهيأ من قبل مسؤول الخزينة (خزيندار باشي)، إذ يرافق الصدرُ الأعظم السلطانَ حتى موضع السجادة التي سيصلّي عليها، ثم يقوم برفقة السلطان أثناء الرجوع حتى الباب الأوسط.

بعدها يتم تناول طعام العيد في موضع اسمه "تحت القبة" (قبه آلتي) في القصر.

حاولنا هنا وصف المراسيم والتقاليد التي كانت سارية في ثقافتنا وتاريخنا عند الاحتفال بشهر رمضان المبارك في قصر طوب قابي العثماني.

وأرى كمؤرخ ضرورة إحياء هذه التقاليد وإن كانت بصورة رمزية، ذلك لأن هذه التقاليد مهمة؛ بحيث لا يجوز دفنها في طيات التاريخ وصحائفه.

* جامع آيا صوفيا قريب جدًّا، بل ملاصق تقريبًا لقصر طوب قابي. (المترجم)

المآذن العثمانية.. رشاقة وبساطة وسموق[*]

المئذنة تعلن التوحيد وتشرئبّ إلى السماء، تريد الانعتاق من الأرض إلى السماء، من المادة إلى المطلق... فالمئذنة تعطي السموق وترتفع إلى أعلى لتأكيد هذا الرمز.

في هندسة المئذنة قمة التجريد، وكأنها تبغي -بالتماس مع السماء- الوصل والاقتراب.

فالمئذنة عنصر معماري مرتبط بالزمان والمكان... فسموق المئذنة مستوحى من سموق النخيل -أروع الأشجار وأكثرها ثباتًا- وهذا السموق مؤثر لإمكانية سماع صوت المؤذن في الفضاء الكوني.

الأذان سمعيًّا مرتبط بالعمارة، ويتآلف الاثنان من أجل رسالة التوحيد مرتبطين برحلة الشمس اليومية ما بين مشرق ومغيب، وفجر وغسق، وسحر وشفق، وبالتالي مواقيت الصلاة هي لحظات كونية من الأزل إلى الميعاد... رحلة كونية نحن فيها نسجد ونقترب.

انظر لمآذن جامع السلطان أحمد والسليمانية بإسطنبول في صعودها المستمر ومعراجها الصامت... إن فكرة الصعود دائمًا كانت تشغل أرواح المسلمين؛ الصعود إلى اللامتناهي، إلى الأعالي، وهذا لا يأتي إلا بارتقاء الروح وعلوها.

(*) **محمد حسن فخري** [عضو نقابة الفنانين التشكيليين/مصر].

وفنيًّا وبالنظر إلى مراحل تنوع أشكال المآذن، أشعر دائمًا أن الطراز العثماني وهو أحدث تلك الطرز التاريخية، أكثرها نضجًا وبساطة. فبينما ينتقد البعض المآذن العثمانية الطراز مقارنة بالمآذن الأخرى، مرددين: إنها أبسط في شكلها، ولا تحتوي على التفاصيل العديدة، والثراء الذي تحمله المآذن المملوكية مثلًا؛ أنا أرى العكس... لأن بساطة المآذن العثمانية هو ميزتها وتفردها على مآذن العصور السابقة لها... فهي أقرب إلى بساطة الدين الإسلامي بلا تعقيد واستغراق في التفاصيل... لذلك هي أسهلُ شكلٍ مئذنةٍ يمكن تنفيذه في وقتنا الحاضر.

ولذلك أرى فلسفة تعميم بناء المآذن على الطراز العثماني الذي تنتهي فيه قمم المآذن بمخروط (شبيهه بالقلم الرصاص) مطلوبة للأسباب التالية:

• بساطة تنفيذها وقلة التكلفة ماديًّا (مقارنة بالمآذن المملوكية مثلًا).

• يسهل تنفيذها في أحجام صغيرة مع عدم إخلالها بالشكل الجمالي، فالمآذن المملوكية -على سبيل المثال- لا يصلح تصميمها إلا في المقاسات الكبيرة من المآذن.

• بساطة شكل المآذن العثمانية، وهي أقرب لمفهوم التجريد الإسلامي البسيط، لا تحتاج إلى الكثير من الزخرفة.

• الشكل الأسطواني لبدن المئذنة -وهو الغالب على النمط العثماني- يجعلها لا تعترض التيارات الهوائية، وكأن الهواء ينزلق

من عليها ولا يصطدم بها، وبالتالي تكون أكثر ملاءمة وثباتًا؛ لذلك ترى الكثير منها نحيلة وفارعة في الطول بلا خشية من عوامل الرياح وتيارات الهواء البيئية.

• الشكل المخروطي الذي تنتهي به قمم تلك المآذن الرشيقة العثمانية، أكثر تأكيدًا ووضوحًا لفكرة العروج إلى السماء، والإشارة إلى الواحد. فالأشكال الأخرى من قمم المآذن، مثل الخوذة المتكئة على عنق، لا يتضح ولا ينجلي فيها معنى الإشارة كالشكل المخروطي العثماني البسيط.

• إن المآذن العثمانية الجادة، الواقفة كالحراس الساهرين على حماية دينِ وثقافةِ إمبراطورية، وَرِثت خلافةَ أكبر عقيدة حكمت أركان المعمورة، وبهذا الشكل المثلث أو النهايات الهرمية لتلك المآذن -وهي تصعد إلى السماء- كانت رسائل صامتة بالغة الاحترام والمهابة أيضًا.

إن فكرة الصعود والالتقاء في نقطة إلى أعلى، لهي أكبر معنى إسلامي شكلي يمكن أن يجسده الفن. فالمآذن مثل السارية أو العلم، فهي إشهار للبناء وتمييز له حتى ولو لم تُستخدَم للتأذين في العصر الحالي، مع وجود مكبرات الصوت.

تأملات معمارية في المسجد الكبير بـ"بورصة"(*)

ركبنا العبّارة من مدينة إسطنبول انطلاقًا إلى مدينة بورصة العريقة عَبْر بحر مرمرة، مع مجموعة من الإخوة الأتراك والمصريين. كان يومًا جميلًا مشمسًا.، وكنتُ في شوق لزيارة مدينة بورصة العريقة، ورؤية شوارعها ومبانيها التاريخية، وجبلها الشاهق الأشم.

وبعد تناول الغداء في أحد المطاعم الأنيقة الذي استمتعنا فيه بتناول وجبة شهية من "كباب الإسكندر" كما يطلقون عليه في بورصة، انطلقنا إلى المسجد الكبير (أُوْلُو جامع) والذي يعدّ أول جامع كبير بناه العثمانيون عام ١٣٩٩م، والذي قام بتصميمه المعماري "علي نصار" على مساحة ٣١٦٥ مترًا مربعًا، ويتسع لما يقرب من ٤٥٠٠ مصلّ، ويمتاز هذا المسجد باحتوائه على عشرين قبة مميزة في تفاصيلها، كما يحتوي على ٢١١ نافذة؛ ١٥٢ منها موجودة على قباب المسجد المختلفة، وللمسجد ثلاثة مداخل بالإضافة إلى مدخل خاص كان مخصصًا لدخول السلطان لأداء الصلاة في مقصورة خاصة به.

(*) د. **يحيى وزيري** [كلية الآثار، جامعة القاهرة/مصر]

لماذا عشرون قبة؟

في عام ١٣٩٦م قام ملك المجر وحلفاؤه الأوروبيون بمهاجمة قلعة "نيكوبوليس" (*Nicopolis*) بجيش كبير، وكانت تلك القلعة تابعة للعثمانيين في ذلك الوقت، وبناء على طلب قائد القلعة قام السلطان العثماني "بايزيد" بتجهيز جيشه، للدفاع عن القلعة وصدّ هجوم ملك المجر وحلفائه، ونذر "بايزيد" في دعائه بعد الصلاة أن يبني ٢٠ مسجدًا إذا وفّقه الله ﷻ لهزيمة أعدائه والانتصار عليهم.

وبعد أن انتصر "بايزيد" في المعركة وعاد إلى مدينة بورصة، اقترح عليه شيخه ومستشاره "أمير سلطان"، أن يبني مسجدًا واحدًا كبيرًا له عشرون قبة يستخدم في صلاة الجمعة، بدلًا من بناء عشرين مسجدًا صغيرًا، وفاءً لنذره، وراقت الفكرة لـ"بايزيد" وقبِلها ثم شرع في بناء هذ الجامع الكبير في بورصة، بحيث أصبحت كل قبة من قبابه وكأنها تكافئ مسجدًا صغيرًا.

الكتابات الخطية بالمسجد

يلفت نظر الزائر فور ولوجه إلى قاعة الصلاة، وجود ١٣٢ لوحة خطية معلقة وثابتة تزين جدران وأعمدة المسجد، وقد بقيت من أصل ١٩٢ لوحة خطية كانت موجودة بالمسجد، ويرجع تاريخ اللوحات المعلقة إلى حوالي ١٥٠ عامًا خلت، واللوحات الثابتة يرجع تاريخها من ١٠٠ إلى ١٥٠ عامًا مضت.

وبذلك يتميز هذا الجامع المهيب بأنه بمثابة متحف أو صالة عرض للخطوط العربية المختلفة، وبخاصة أن تلك اللوحات الخطية، تركز على موضوعات ذات صبغة دينية يأتى على رأسها

لفظ الجلالة "الله"، مع بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية إلى جانب بعض الحكم المأثورة.

وعلى حد علمي، فإنه لم يَحْتوِ مسجد في العالم الاسلامي على كل تلك اللوحات الخطية العربية المميزة، والتي أعطت للمسجد رونقًا خاصًا يُدخل السكينة والصفاء على من يرى تلك الكتابات، كما يغذّي الأرواح والنفوس التي تقرأها، إلى جانب المتعة البصرية الناتجة عن تتبع أسلوب الكتابة الفني والزخرفي، والذي يُبرز المعاني الإيمانية العميقة في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المختارة.

لقد ركّزت تلك الكتابات على فكرةِ وحدانيةِ المولى ﷻ وهي الغاية الكبرى للإسلام. فنجد على جدار القبلة (الجدار الجنوبي للمسجد) لوحةً معلقة مكتوبٌ عليها "هو الله" تارة من اليمين وتارة أخرى بطريقة معكوسة من اليسار، بحيث تلتقي اللفظتان في منتصف اللوحة عند "هو" الضمير الدال على الذات الإلهية.

وغالبًا ما تم كتابة حرف "الواو" على كل حوائط المسجد، ولكن أجملها وأكثرها تعبيرًا عن وحدانية الله، لوحة خطية ثابتة بجدار القبلة أيضًا يطلق عليها "الواو الخضراء"، وأهم ما يميزها، انتهاء حرف الواو واتصالها بزهرة التيوليب (*Tulip*)، و"التيوليب" أو "اللَّالَة" عند العثمانيين، ترمز إلى وحدانية الله الواحد الأحد.

وعلى نفس الجدار وضعت لوحت معلقة، مرسوم عليها المسجد الحرام تتوسطه الكعبة المشرفة، ويتميز هذا الرسم الثلاثي الأبعاد، بإمكانية رؤية باب الكعبة وقباب المسجد الحرام متجهة إلى الناظر

إليها من أيِّ زاوية، وكأنها تدعوه إلى زيارتها كلما وَلَّى وجهه شطر تلك اللوحة الرائعة.

أما الآيات القرآنية الكريمة فلها نصيب الأسد في تلك الكتابات. فقد علقت لوحة فوق الباب الموجود بالجدار الشرقي لقاعة الصلاة، مكتوب عليها قوله تعالى: "بل هو قرآنٌ مجيدٌ في لوحٍ محفوظ"، وعلى يمين الباب لوحة مكتوب عليها قوله تعالى: "إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر"، وعلى يسار الباب، الحديث النبوي الشريف: "أكمل المؤمنين إيمانًا أَحْسَنهم خُلُقًا".

ومن نماذج اللوحات الثابتة بنفس الجدار السابق والتي استطاع فيها الخطاط التعبيرَ عن روعة المعاني القرآنية عن طريق اختلاف مقياس الخط وكذلك حرف "الواو"، ما يَظهر في اللوحة التي احتوت على قوله تعالى: "ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين، ولكن المنافقين لا يعلمون"؛ فالآية الكريمة تكرر فيها حرف "الواو" أربعة مرات، اختار الخطاط المبدع للأولى حجمًا أكبر وهي التي تسبق لفظ الجلالة، ثم بدأ حجم "الواوات" الأخرى يتناقص حتى الوصول إلى الواو الرابعة وهي أصغرها وهي التي تسبق قوله تعالى: "ولكن المنافقين"... فالخطاط هنا عبّر عن قدرِ وقيمةِ كل مذكور في تلك الآية بما يتناسب معه، فـ"الواو" الكبرى تتناسب مع الذات الإلهية، والأصغر مع الرسول ﷺ، فالتي تليها صغرًا مع المؤمنين، أما "الواو" الصغرى والأخيرة فهي التي تسبق ذكر عدم علم المنافقين. روعة في التعبير عن المعنى العميق الوارد في تلك الآية الكريمة، والتي تمثل عمق الفهم والتدبر لتلك المعاني والتعبير عنها من خلال الكتابة والخط العربي.

ومن اللوحات الخطية المدهشة في مبناها ومعناها، بالجدار الشمالي للمسجد، جزء من آية قرآنية وردت في سورة الحج وهي قوله تعالى: "من كل فجٍّ عميق"، حيث تم كتابة الكلمات الأربع بحيث ترتبط معًا وتبدو وكأنها كلمة واحدة، ترتبط وتتطابق عند الحروف الأخيرة لتلك الكلمات الأربع (النون، اللام، الجيم، القاف)، الحروف الأربعة وكأنها تراكمت فوق بعضها البعض، لتعطي إحساسًا بالعمق والبعد المذكور في معنى الآية القرآنية، حيث إن كلمة "عميق" في اللغة العربية معناها البَعيد إلى أسفل.

وتظهر أهمية الحرف وأسلوب استخدامه بطرق فنية مختلفة ومبتكرة في وقت واحد في العديد من لوحات المسجد، ومن أكثرها تعبيرًا عن ذلك، لوحتان ثابتتان، إحداهما على الجدار الغربي للمسجد، وهي ترى من بعيد على هيئة كتابةٍ دائريةٍ لعدد تسعة أحرف متكررة لحرف "السين"، وإذا ما اقتَربْتَ منها وقرأتَها، وجدتَها هي آيات آخر سورِ المصحف وهي سورة "الناس"، والتي تنتهي كل آية فيها بحرف "السين" والذي يحتضن بداخله باقي الآية. أما اللوحة الثانية فمكتوبة على أحد أعمدة المسجد والحرف الأساس فيها هو "الواو"، حيث يتكرر ثمانية منها على هيئة كتابة دائرية تحتضن بداخلها الآيات الأولى من سورة "الشمس".

إن ما ذكرناه هنا يعتبر غيضًا من فيض... فاللوحات الخطية الكثيرة الأخرى الموجودة في المسجد، لا تقل روعة ولا جمالًا عما أشرنا إليه آنفًا، وهو ما يحتاج إلى مقالات أخرى لا تحصى، حتى يمكن أن نوفّي تلك الإبداعات الخطية حقها من الذكر والتأمل والاستمتاع.

المجموعة الشمسية على جناحى المنبر

إذا كانت حوائط المسجد وأعمدته قد ازدانت بتلك الكتابات الخطية الرائعة التي عبّرت عن العديد من المعاني القرآنية العميقة المسطورة في القرآن الكريم، فإن جانبي المنبر الخشبي للمسجد، قد ازدانتا بزخارف خشبية على هيئة أطباق نجمية ذات حشوات خشبية، يتوسط بعض تلك الأطباق أنصاف كُرات خشبية بارزة تمثّل المجموعة الشمسية.

فقد تم التعبير عن الشمس وكل كواكب المجموعة الشمسية، بأنصاف كُرات خشبية تتناسب في أحجامها مع الأحجام الحقيقية للشمس وتلك الكواكب، كما رُوعي في اختيار أماكنها أن تكون المسافات بينها متناسبة مع المسافات الحقيقة التي تفصل الشمس عن تلك الكواكب أيضًا، وبذلك اجتمع في المسجد الكبير بـ"بورصة"، كتابة آيات قرآنية من الكتاب المسطور وبعض آيات الكون المنظور المتمثلة في هذا العمل الفني والعلمي البديع في آن واحد، في إشارة هامة إلى التكامل بين الإيمان والعلم في الإسلام.

إن هذا التعبير الفني المدهش عن طريق تلك الأطباق النجمية السابحة على جانبي المنبر، تعكس مدى التقدم العلمي عند علماء المسلمين الأوائل في تلك العصور الزاهرة، حيث إن صناعة وابتكار فكرةِ هذا المنبر، كانت قبل ٢٣١ عامًا من اكتشاف العالم الأوروبي "جاليليو" لحقيقة كُرويّة الأرض ودورانها حول الشمس، كما تسبق فكرة اكتشاف الأمريكان لكوكب "بلوتو" عام ١٩٥٣م، حيث نفاجأ بوجوده على جناح هذا المنبر قبل حوالي ٦٣١ عامًا مضت قبل هذا الاكتشاف.

قصة النافورة بصحن المسجد

يتوسط صحن المسجد نافورة بديعة من الرخام الأبيض وضعت بعد بناء المسجد بحوالي ٢٢٠ سنة، وهي تحتوي على ثلاثة وثلاثين مخرجًا للماء، موزعة على ثلاثة مستويات، وعند خروج الماء من تلك الفتحات، فإن صوته يبعث على السكينة والاسترخاء داخل نفوس المصلّين، كما يعمل على امتصاص جزيئات الغبار والدخان بصحن المسجد، إلى جانب استخدام هذا الماء في الوضوء والطهارة، فتجتمع سكينة الباطن مع طهارة الظاهر.

ولتلك النافورة وظيفة بيئية هامة؛ حيث تقوم بدور التكييف الطبيعي لهواء المسجد عن طريق ترطيب الهواء الداخل من القبة المفتوحة بلا نوافذ والتى تعلو تلك النافورة تمامًا. إلى جانب أنه في الماضي حيث كانت تستخدم الشموع والمصابيح التقليدية، فكان الماء يقوم بامتصاص نواتج دخان ما يقرب من ٧٠٠ مصباح وشمعة كانت تستخدم في إضاءة المسجد قبل استخدام الثريات والمصابيح الكهربائية الحديثة.

تلك لمحات وتأملات خاطفة لبعض ما رأيته بالمسجد الكبير بـ"بورصة"، هذا المسجد الذي جمع بين روعة وضخامة البناء، وروحانيات التعبير عن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والحكم المأثورة، والتي جعلت حوائط وأعمدة المسجد تنطق بلا لسان بروائع البيان، لتجعل من هذا البنيان ليس فقط مكانًا للصلاة، ولكن صرحًا معماريًّا للتفكر والتأمل في آيات الرحمن وعجائب الأكوان.

تناغم المعنى والمبنى في الهندسة المعمارية
إطلالة على الجامع الأخضر(*)

كانت ثقافة المدينة في الدولة العثمانية تولي اهتمامًا كبيرًا لكل جزء من الطبيعة؛ شجرةً كانت أم ووردةً أم نبتةً أم خَضارًا.، ويظهر بجلاء هذا الاهتمامُ في "الجامع الأخضر" الذي أمر ببنائه السلطان العثماني محمد شَلَبي عام ١٤٢٠ بمدينة بورصة الخضراء، ثم أمر بنقش زخارفه بعده السلطان مراد الثاني عام ١٤٢٤.. فليس ثمة مكان أنسب للسكينة والراحة من هذا الجامع الفريد ببنائه وطبيعته؛ فمن زقزقة العصافير إلى خرير المياه الهادئ إلى حفيف أوراق الأشجار التي تنساب نغماتٍ على نافورة الميضأة الرخامية، ينشأ جو تبتهج به الروح وتنجذب إليه العقول والألباب.

إنه الجامع الأخضر الذي يلامس المشاعر والأحاسيس في كل موسم جديد. تنساب من بين الأوراق الكثيفة وقتَ الأصيل حزمُ أشعة الشمس الدافئة، لتحوّل الباحة والجناح الغربي من الجامع إلى خيمة تبعث الراحة والطمأنينة في قلوب ضيوفها الزائرين... يلعب الأطفال ويمرحون على عشبها، ويرتاح الشيوخ تحت أشجارها الوارفة.، وإذا ما حلّ موسم الخريف، تتوشّح هذه الباحة اللون الأصفر، لتعرض لضيوفها محاسن الطبيعة بأبهى صورها.

(*) **محمد كول كونول** [كاتب وباحث تركي]. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.

يقول الأديب التركي "أحمد حمدي طان بينار": "الجامع الأخضر بفنه المعماري البديع، هو دمجٌ بين خضرة الوديان الخلابة وزرقة السماء الأخّاذة"، أما الشاعر الفرنسي "بِيار لوتي" فيفصح عن أحاسيسه فيقول: "أثناء دخولي الجامع أجد نسمات الدفء تلامس وجهي، ثم أشعر وكأن الضوء الخافت اللطيف في الممر يفسح لي الطريق ويبيّنه، وفي حال دخولي العالم الداخلي تتحول هذه المشاعر إلى سكينة تسكن شغاف قلبي".

تصاميم الواجهة الشمالية البديعة للجامع، تستقبل زوارها بحفاوة كبيرة ولا تدعهم يلِجون الجامع إلا بعد أن تقدّم لهم باقة أزهار مزخرفة تفوح منها رائحة تاريخ مجيد. لقد اعتنى المعماري "الحاج عيواض باشا" بتصاميم هذه الواجهة وزخرفها عناية خاصة، وكأنه أراد بذلك إدخال الزائر إلى الجامع بعد سياحة وجيزة في عالم التجريد والمعنى.

يتكون الجامع من طابقين.. عندما ندخل إلى الرواق نرى أربع نوافذ تحتية؛ اثنتان منها على اليمين والأخرى على اليسار، ويتوسط كل نافذتين من هذه النوافذ محراب خارجي أي صيفي. كما يوجد في القسم العلوي من الجامع، أربع شرفات اثنتان منها صناعية دون منْفَذ هوائي. إن هذه الواجهة بهندستها البديعة وخطوطها الكوفية المتشابكة المنحوتة، توحي بقصر متميز لا مثيل له، ومن الأمور التي تجلب الأنظار أيضًا التجاويف القريبة من السطح، والتي ربما تؤدي إلى اعتقادها خطأً معماريًّا، لا، بل إنها حُفرتْ بقصدٍ لإيواء الحَمام

والطيور، ولعل هذا دليل على الشفقة الإلهية التي وُضعت في قلوب أجدادنا الأمجاد.

يتنقّل المرء بين جماليات هذه الواجهة ليستقر بصره في نهاية الأمر على الباب المتوَّج المنتصب أمامه بمهابة؛ يرى زخارف أركانه المنحوتة بسعف النخل والزخارف البيزنطية المُحَلْزَنة المتشابكة، ويرى كذلك زخارف حافّتَيه المنقوشة على الرخام والحجر الأخضر. إن هذا الجامع فعلًا، من أروع التصاميم التي شهدتها العمارة الإسلامية في العالم الإسلامي.

إن كتابات الجامع مع اسمه منقوشة على الباب المتوَّج بطريقة رائعة، يقول الرحالة التركي "أَوْلِيا شَلَبي" عن هذه النقوش: "إن الباب القِبلي مزخرف يمنةً ويسرةً بنقوش بديعة تمتد حتى الطابق العلوي، وبكتابات جذابة لا يستطيع أمهر الخطاطين خطّها حتى على الورق ولو بأحسن ريشة، ولكن الفنان الذي أتقن النقش على الرخام بالإزميل، استطاع خلال ثلاث سنوات أن يقدم فنه بأرقى الصور"، وإن الكتابات التي تحيط بالباب، هي آية قرآنية نُقشتْ في الأعلى، وأحاديث نبوية نُقشتْ على جانبي الباب.

مآذن الجامع الأسطوانية الجذوع، لا تعود إلى عهد بناء الجامع؛ فمآذنه الأولى -كما أخربنا الرحالة أوليا شلبي- التي كانت مزينة بخزف صيني أخضر، انهارت إثر زلزال وقع عام ١٨٥٥م، إلا أن مآذنه الحالية تعود إلى أواخر القرن التاسع عشر.

الماضي والحلم والحقيقة

بعد اجتياز الباب الخشبي الذي يبدو عليه فن نحت الخشب بأروع صوره ندخل الجامع... فأول ما نراه في المدخل، هما الإيوانان على اليمين وعلى اليسار، والتي نصعد عبر كلٍّ منهما إلى الطابق العلوي. إن النور الخافت فيهما يساعد الزائر على تبيّن طريقه، وبالتالي على إحساسه بالأبعاد الثلاثة للمكان.

وما إن نجتز الإيوان ونصل إلى المركز، حتى نجد أنفسنا فجأة وسط فسحة واسعة مستنيرة، وهنا يعلق نظرنا بالميضأة الرخامية تلقائيًا... يقال إن صوت الماء الذي يصدر من هذه الميضأة، يمنع وصول أصوات المتكلِّمين في المحفل العلوي إلى الطابق الأرضي.

تم وضْع مخطط الجامع الأخضر على شكل "T" المعكوس، وهذا الشكل كان منتشرًا ومزدهرًا في مدينة بورصة في تلك الآونة، حيث سماه أهل المدينة بـ"الشكل المجنح"، علمًا بأنه مستَلْهَم من الفن المعماري السلجوقي. إن معظم الجوامع في بورصة، مسقوفة بقبتين رئيسيتين متعاقبتين باتجاه المحراب، وتتصل هاتان القُبتان بقنطرة مقوّسة جميلة.

أما حجر الزاوية المذهّبة الموجودة في وسط القنطرة الكبيرة، فتعدّ أهم عنصر في ربط القبة بالقنطرة. إن النافذة الثمانية الأضلاع أعلى القبة الأولى، تعكس أشعة الشمس على الجدران الداخلية بشكل نقاط متلونة. أما الإيوانات الجانبية التي يُصعد إليها عبر درجة واحدة والتي تشرح صدر الزائر بجوها الهادئ اللطيف، تزيد على المساحة الداخلية فسحة وَسَعَة روحية، تم زخرفة هذه

الإيوانات بشكل مسدّس بالخزف الأخضر الصيني المذهّب، ثم ملئت الفراغت بين الخزف بمثلثات فيروزية لكي تبدو وكأنها "ختم سلمان"، وكما هو الحال في الجوامع الأخرى لمدينة بورصة، فإن هذه الإيوانات خُصّصت لمجالس الدروس أو مجالس الاستشارة أكثر من تخصيصها للصلاة.

ونحن غارقون في التأملات في عالم الزخارف والتصاميم داخل الجامع، يشد نظرنا فجأة محافل المؤذنين والمحفل السلطاني الذي يعلوها. زُينتْ جدران محافل المؤذنين بالخزف الأخضر الداكن السداسي الشكل، أما سقفها فزُين بالخزف الأخضر، والداكن الأزرق، والأصفر، وفي بعض الأماكن بالخزف الأحمر.

ولرؤية المحفل السلطاني ينبغي الصعود إلى الطابق العلوي، لذا نعود إلى المدخل، فنرى في هذا الممر الأعمدةَ البيزنطية ورؤوسَها، ثم يظهر أمامنا باب صغير فيه سلّم حلزوني عمودي ضيق، فلا يمكننا إلا أن نتسلّق عليه لنصل إلى المحفل السلطاني، وخلال السير نحو المحفل، نرى على اليمين واليسار غرفَ الديوان الأربع المنفتحة على الداخل والخارج، تبدو وكأن هذه الغرَف المربوطة بالممرات الضيقة، ترخي على هذا القسم من الجامع شيئًا من الغموض، ومما يشدّ أنظارنا هنا، هي الخزفُ والتنانير والجدران والمحراب والأبواب الخشبية المزخرفة، وأما المحفل السلطاني الذي يصلي فيه السلطان، فنرى أشكال نجوم منحوتة على جدرانه وسقفه لمحاكاة السماء الصافية في الليل. هذا وقد صُممتْ واجهة المحفل بطريقة تتيح للسلطان رؤية قسم كبير من أرض الجامع.

النور المتدفق من السماء

إن القسم الذي أقيم عليه المنبر والمحراب -وهو القسم لأداء الصلاة- يرتفع عن أرضية الجامع بثمانية وتسعين (٩٨) سنتمترًا، كما يبلغ علوّ الجدران هنا ثلاثة أمتار ونصف (٣,٥)، وهي مزخرفة بالخزف الأزرق الداكن ذي الخطوط البيضاء، وقد نُقش على جهة اليسار من المحراب بيت شعر فارسي يلخّص فكرة إنشاء الجامع، مشيرًا إلى انقضاء أيام المحن والمصائب فيقول: "يظن الظالم أنْ بوضْع أغلال الظلم في أعناقنا قد ظلَمنا، ليته يعلم أن هذه الأغلال قد رُفعتْ عنّا منذ زمن بعيد ووُضعتْ في عنقه هو"، وقد نُقشت لوحتان دائريّتان على النافذة اليمنى واليسرى كُتبتْ فيهما سورة النبأ: ﴿**عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۞ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۞ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۞ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۞ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ**﴾، ولا شك أن نقش هذه السورة مع البيت الشعري، هو تذكرة للإنسان بحقيقة البعث بعد الموت، وإرشاده إلى الخير والصلاح.

يظل الإنسان مشدوهًا أمام تصاميم هذا الصرح وتزييناته البديعة... فأشعة الشمس المتسللة على الخزف، تضفي على عالم الزخارف المذهّبة ألقًا ولمَعانًا فريدًا، تشعر وكأن كل قطعة من الجامع تُنشد قصيدتها، أو تسبّح ربها وتدعوه بلسان حالها، لكن بصوت جماعي موحّد، يقول الأديب التركي "أحمد حمدي طان بينار": "الجدار والقبة والمحراب والخزف... كلها تدعو وتسبح بحلّتها الخضراء".

ولا يفوتنا في هذا المقام، أن نذكر محراب الجامع الذي يعدّ آية في الجمال؛ حيث نرى على جزء كبير منه أجمل فنون الخط الكوفي

والثلث، ثم نرى إطارًا داخليًّا منقوشًا بالأزهار، وتاجًا مزخرفًا بأزهار الزنبق، وأنماطًا هندسية بديعة بأبهى صورها وأشكالها. ثم لفظَ الجلالة "الله" المنحوت داخل المحراب بمهارة.، وكأن ذلك كله هو تذكرة للإنسان بعلاقته الوثيقة بربه، وأنّ فلاحه لا يتأتى إلا بالتوجه إليه والتمسك بحبله، والحق يقال إن لهذا المحراب صورة ساحرة خاصة به، فكأن أَمْهر الأيادي قامت بنقشه خطًّا خطًّا ونسجته خيطًا خيطًا، في مكان سريٍّ في الكون، ثم نُفخت فيه الحياة ووُضِع على الحائط القِبلي ليزيد على جمال الجامع جمالًا.

يبلغ ارتفاع هذا المحراب الجميل عشرة أمتار وسبعة وستين سنتمترًا (١٠,٦٧)، وعرضه ستة [٦] أمتار، ليرتفع بشكل منتظم حتى حافة القبة، وكأنه ارتفع ليجمع النور المتدفق على القبة، ثم يرسله بطريقة معيّنة إلى الأسفل لينتشر هذا النور كخط كهربائي إلى الأطراف... يمرّ على الخطوط المنقوشة فوق النوافذ ثم يواصل طريقه على زخارف خزف جدران الإيوان، ثم يعمّ كل جنبات الجامع، ومن هنا يُطلق فيوضاته إلى الحديقة الغناء ثم إلى أرجاء المدينة كلها.

ومع أن الجامع يبدو من الخارج بسيطًا متواضعًا، إلا أن شهرته اكتسبها من زخارفه ونقوشه الداخلية البديعة، ولقد عمِل أكبر وأشهر فناني ذلك العصر لكي يقدّموا الذوق الفني الرفيع في العمارة الإسلامية. فهنا نجد بجلاء امتزاج قدرة الفنان المعماري مع رقة الفنان التشكيلي، بل حتى مع العالِم والشاعر في تشييد هذا الصرح الأخضر السامق بأسمى صوره.

يقول الرحالة "أوليا شلبي": "أهل المدينة يقولون أنْ لا مثيل لهذا الجامع في بورصة، والسياح الأجانب يقولون أنْ لا مثيل لهذا الجامع في العالم".

مظاهر حضارية

من الثقافة العثمانية

أثبتت الثقافة العثمانية نفسها بنجاح، وضربت بجذورها على مسرح الزمنِ مدةً ليست بالقليلة، ونقشت لنفسها مكانةً خاصّة على صفحة التاريخ بين الأمم، وحافظت على شموخها بين الثقافات الأخرى إلى أن صعّبَت على غيرها فكرةَ المنافسة، ولم يتحقق ذلك عن طريق الصدفة العابرة، بل بمميزات خاصة وأسس ومنهجيّة كفلت لها تجاوز العقبات مهما كانت، لا بل وتحويلها إلى نجاحات في بعض الأحيان، فكانت جديرةً بالريادة مؤهّلةً للقيادة.

إنها انطلقت من المفاهيم الإسلامية الصِّرفة، واهتدت بالكتاب والسنة، وضبطت ضربات قلوب أربابها على أوتار حب النبي المصطفى صلّى الله عليه وسلّم، فكانت تتحرّق له عشقًا، وتتمايلُ به فرحًا.

ISBN 978-977-6631-00-7

9 789776 631007

بـــروج
BURUJ BOOKS